كتاب
لطف التدبير

لمحمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي
المتوفى سنة ٤٢١ هـ

حققه وعلق عليه
أحمد عبد الباقي

يطلب
من مكتبة المثنى ببغداد
ومن مكتبة الخانجي بالقاهرة
١٩٦٤

كتاب
لطف التدبير

لمحمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي
المتوفى سنة ٤٢١ ﻫ

حققه وعلق عليه
أحمد عبد الباقي

يطلب
من مكتبة المثنى ببغداد
ومن مكتبة الخانجي بالقاهرة
١٩٦٤

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
ت : ٩٠٦٠١٧

مقدمة

من بين المخطوطات التى تعتز بها مكتبة المثنى ببغداد، مخطوطة نفيسة يرجع عهدها إلى القرن التاسع الهجرى ، بعنوان : « لطف التدبير » تأليف محمد بن عبد الله الخطيب ، المعروف بالإسكافى المتوفى سنة ٤٢١هـ . وقد تصفحتها بإمعان ، فوجدتها تضم مجموعة من الحكايات والأخبار ، فيها بحوث شيقة ومعلومات طريفة ، علاوة على قيمتها الأدبية والتاريخية . فحاولت إخراجها من مطاوى النسيان بتحقيقها ونشرها ، مساهمةً بقسط متواضع فى حركة إحياء تراثنا العربى الخالد .

تقع المخطوطة فى (٢٢٠) صحيفة من القطع المتوسط ، كتبت بخط النسخ ، وبمداد أسود ثابت ، عدا العناوين التى كتبت بالمداد الأحمر ، واتبعت صحائفها نظام التعقيبة . وللمخطوطة غلافان : أحدهما داخلى ، وهو غلافها الأصلى ، والآخر خارجى ، يظهر أنه أُضيف إليها بعد مدة من كتابتها . لأن العنوان المثبت عليه يختلف فى خطه ومضمونه عن العنوان الوارد على الغلاف الداخلى ، كما أن ورق هذا الغلاف يختلف عن بقية ورق المخطوطة .

وعنوان المخطوطة على غلافها الداخلى الأصلى هو : « كتاب لطف التدبير لمحمد بن عبد الله الخطيب ، تغمده الله تعالى برحمته » . أما العنوان المدون على الخلاف الخارجى المضاف فهو : « كتاب الجوهر الإكسير فى اللطف والتدبير فيما وقع للخلفاء والسلاطين من الأحاديث الغريبة والحكايات العجيبة . تأليف خاتمة الحفّاظ والمحدِّثين : الحافظ البغدادى تغمده الله برحمته ، آمين . وقد

اشتمل على اثنين وثلاثين باباً على التمام والكمال » . وهذا العنوان ، كما يبدو ، مُستَمد من مُحتوى الكتاب . إلا أن الذى أضاف الغلاف الثانى ، توهم فى اسم المؤلف ، حين نسب الكتاب إلى الحافظ البغدادى ، وهو أبو بكر أحمد بن على الخطيب صاحب تاريخ بغداد . والوقوع بهذا الخطأ غير مُستغرب ، وذلك لتشابه لقب المؤلفَيْن ، ولسعة شهرة الخطيب البغدادى بالنسبة للخطيب الإسكافى مؤلف الكتاب .

وتنتهى المخطوطة بالعبارة التقليدية للمخطوطات العربية ، وتتضمن اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، وقد أثبتناها فى آخر الكتاب . وليس فيها ما يشير إلى الأصل الذى نسخت عنه ، وهو نقص يؤسف له .

والمخطوطة رغم عمرها الطويل الذى قارب خمسمائة عام ، نظيفة بصورة عامة ، ولا زال ورقها صقيلًا قويًّا على كرِّ هذه السنين ، خلا بعض الصحائف القليلة التى تسربت إليها الأَرَضة . إلا أن تخريباتها ، لحسن الحظ ، قليلة ، وأكثرها قد حدث فى هوامش الصحائف ، فلم تؤثر على شىء من نصوص الكتاب إلا اليسير . وخطها على وضوحه وسهولة قراءته حصل فى عدد غير قليل من كلماته تصحيف وتحريف ، بَعُدَ بها عن معناها الأصلى . كما سها الناسخ عن نسخ بعض الكلمات والعبارات فى بعض الأبواب .

وقد تيسر لنا الحصول على صورة فوتوغرافية لنسخة أخرى من الكتاب ، موجودة فى مكتبة السلطان أحمد الثالث باستانبول ، وقام بتصويرها معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة . وقد تفضل الأخ الأستاذ فؤاد سيد ، أمين دار الكتب المصرية بتوفيرها لنا ؛ فله منا جزيل الشكر على مساهمته بإحياء هذا التراث العزيز .

وعنوان هذه النسخة ، وسوف نرمز إليها برمز (ب) ، يطابق عنوان نسختنا حيث جاء كما يلى : « كتاب لطف التدبير ، من جمع الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل الحبر العلامة أبى عبد الله الخطيب ، قدّس الله روحه ، بمحمد وآله الطاهرين » .

ويلاحظ أن هذه النسخة نسبت كذلك إلى العلامة الخطيب البغدادى ، وهو نفس الخطأ الذى وقع فيه مالك نسختنا عند ما أضاف الغلاف الخارجى .

وهناك عنوان آخر للكتاب كتِب فى أعلى الغلاف بخط يغاير خط العنوان الأصلى هو : « كتاب لطف التدبير فى تدبير الرئاسة » . ويظهر من نوع خطه أنه كتب بعد مدة من نسخها .

تتألف النسخة الثانية من (١١٦) صحيفة تحتوى كل منها على (٢١) سطراً ، وقد كتبت بخط النسخ . وخطها قوى واضح ويعتبر ممتازاً ، ونرجح أن ناسخها خطاط . إلا أنها مثل غيرها من المخطوطات ، جاءت مشحونة بأخطاء الناسخ من تصحيف بعض الكلمات وتحريفها ، وإغفال بعض الجمل والعبارات ، وتقديم الأقسام وتأخير بعضها بالنسبة لنسختنا . كما أن عدداً من قصصها تنقص عن مثيلاتها فى نسختنا ، مما يجعل نسختنا أتم وأكمل من النسخة الثانية . ولذلك اعتبرنا نسختنا هى الأصل ورمزنا إليها بحرف (ا) ، وحاولنا أن يكون الكتاب المطبوع طبق ذلك الأصل جهد الإمكان .

غير أننا اعتورتنا بعض المصاعب التى يقدرها مَنْ عالج تحقيق الكتب المخطوطة ونشرها ، منها الأخطاء فى النسخ ، بتصحيف بعض الكلمات أو تحريفها ، مما يخرجها عن معناها الأصلى أحياناً ، أو سهو الناسخ عن نسخ بعض الكلمات أو العبارات ، فيأتى النص ناقصاً . فحاولنا الاستفادة من نسخة (ب) ،

فساعدتنا على قراءة ما لم نستطع قراءته من الكلمات فى نسخة (ا) ، وفى إكمال النقص الذى جاء فى بعض أبوابها ، وفى تصحيح الاضطراب والارتباك فى بعض عباراتها . فوضعنا ما أخذناه من النسخة الثانية (ب) ليكمل النقص الذى فى نسخة الأصل بين قوسين . أما الكلمات التى وجدناها تتباين بألفاظها ومعانيها بين النسختين ، فقد حاولنا أن نثبت ما فى نسخة الأصل ، ثم نشير في الهامش إلى ما ورد فى نسخة (ب) ، إلا فى حالات قليلة جداً ، عند ما لا نجد ما ورد فى نسخة الأصل يطابق سياق الكلام ، فنأخذها كما وردت فى النسخة الثانية (ب) ، ونشير إلى ذلك فى الهامش .

كما أننا حاولنا أن نرجع فى تحقيق بعض النصوص التى وردت فى تضاعيف الكتاب إلى أصولها فى أمهات المصادر ، وبخاصة ما سبق تأليفه عصر المؤلف ، لمقابلتها وتصحيحها بحسب ما جاءت فى تلك الأصول ، وقد أشرنا فى الهامش إلى كل تصويب من هذا القبيل . وبهذه الوسيلة أيضاً استطعنا أن نكمل ما وجدناه من نقص فى بعض النصوص ، وتقويم لبعض العبارات ، استعصى علينا فى كلتا النسختين ، إلا أن بعض الأبيات الشعرية التى لم نعثر على أصولها فى مصادر أخرى ؛ فقد اضطررنا إلى إثباتها كما جاءت فى المخطوطة .

وبالنظر لشدة التشابه والتقارب بين النسختين ، نستطيع أن نقول إنهما قد نقلتا عن أصل واحد . أما الاختلافات الموجودة بينهما ، وهى قليلة ، فمردها إلى الناسخ فى كل منهما . إما لنسيانه نسخ بعض الكلمات والعبارات أو لعدم استطاعته قراءة الأصل . ومن الطبيعى أن نجهل ما إذا كان نسخ هاتين النسختين قد تمّ عن نسخة المؤلف أم غيرها ، لأنهما لا تتضمنان أية إشارة إلى النسخة التى تم النقل عنها .

إلا أن الخط الذى كتبت به النسخة الثانية ، من حيث نوعه وقوته ووضوحه، يجعلنا نرجح أنها كتبت مؤخراً ، غير أن الناسخ آثر أن يضع عليها تاريخ النسخة التى نقل عنها . والواقع أن الناسخ لم يذكر اسمه فى آخر المخطوطة ، كما هو المعتاد ، بل اكتفى بقوله : « تمت النسخة المباركة المسماة بلطف التدبير فى أول رمضان المبارك سنة ثمانين وثمانمائة » وأرجح أن هذه العبارة قد نقلها مع نص الكتاب بألفاظها وتاريخها . ولو كنا اطلعنا على المخطوطة نفسها ، لكان فى نوع ورقها ودرجة جِدّتها مايساعدنا على تأكيد ماذهبنا إليه . على أن الصورة الفوتوغرافية التى بين أيدينا للنسخة الثانية ، تدل دلالة واضحة على نظافة المخطوطة وحدّتها ، مما يؤيد قولنا بحداثة نسخها ، إضافة إلى نوع خطها وقوته ، كما أشرنا آنفاً

وللتحقق من عنوان الكتاب وصحة نسبته إلى الخطيب الإسكافى ، رجعنا إلى عدد من كتب التاريخ والتراجم ، التى وضعت فى عصر المؤلف وبعده ، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وكتاب الأنساب للسمعانى ، وكتاب المنتظم لابن الجوزى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، وكتاب الكامل لابن الأثير ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، فلم نجد للمؤلف محمد بن عبد الله الإسكافى ذكراً فى هذه المصادر ، عدا ترجمة مقتضبة فى معجم الأدباء ، تضمنت إشارة موجزة عنه مع أسماء بعض ما ألّف من الكتب ، وقد ورد ذكر هذا الكتاب بينها باسم : « لطف التدابير فى سياسات الملوك » . وقد لاحظنا أن كتب التراجم وفهارس الكتب التى وضعت بعد صاحب معجم الأدباء ، والتى تضمنت شيئاً عن الخطيب الإسكافى ومؤلفاته ، قد نقلت ما جاء عنه فى المعجم المذكور دون زيادة . فإن صلاح الدين الصفدى صاحب كتاب « الوافى بالوفيات » نقل حرفياً ما جاء فى معجم الأدباء عن الإسكافى ومؤلفاته . ومثله فعل السيوطى فى كتابه بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة . وكذلك الأمر فى المعاجم الحديثة مثل كشف الظنون

عن أسامى الـكتب والفنون ، ومعجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، وهدية العارفين ، ومعجم المؤلفين ، وكتاب الأعلام . فإنها كلها اقتبست ما تضمنه معجم الأدباء مع بعض التحريف فى عنوان الـكتاب . فقد ذكره صاحب كشف الظنون بعنوان : « لطف التدبير فى سياسات الملوك » أما صاحب معجم المطبوعات فقد أثبته بعنوان : « لطف التدبير فى سياسة الملوك » وسايره فى ذلك صاحب هدية العارفين وصاحب الأعلام .

أما المستشرق بروكلمان، فقد ذكره فى كتابه المفصل عن تاريخ الآداب العربية باسم « لطف التدبير فى حيل الملوك » وقد أشار إلى وجود نسختين مخطوطتين من الـكتاب فى استانبول ، إحداهما فى خزانة عاشر بعنوان : « لطف التدبير فى حيل الملوك » ، والثانية فى خزانة طوب قبو . سراى (أحمد الثالث) وهى التى حصلنا على صورة منها .

والـكتاب مجموعة أخبار وحكايات مبوبة فى اثنين وثلاثين باباً ، ينتظم كل منها قصصاً يتفق مغزاها وعنوان الباب ، مع باب ختامية فى أغراض مختلفة . وبوسعنا أن نقسم الأغراض الأساسية التى تضمنتها أبواب الـكتاب إلى ستة أقسام هى :

١ — ما يحتاج الملوك إلى معرفته من لطف التدبير فى عقد المُلْك وإدارة شئونه ، وفى معالجة أمور الفتن والشغب .

٢ — الحروب وتدبيرها كفتح القلاع والبلدان ، وصد الأعداء ودحرهم .

٣ — دفع المـكروه بقول أو بلطف أو بمكروه مثله ، ودفع الشبهات .

٤ — المكايدة والثأر والانتقام .

٥ — فنون السياسة كالتعرف على الأسرار ، والتستر ، وفسخ العزائم .

٦ — ضروب مختلفة من لطف التدبير .

إن الحكايات والأخبار التى رواها المؤلف فى الكتاب مستمدة من تاريخ العرب وأيامهم فى جاهليتهم ، ومن حوادث التاريخ الإسلامى ، ومن تاريخ الروم والفرس . ومعظم هذه الأخبار حقائق تاريخية صحيحة المعلومات ، أى أنها قد حدثت فعلاً ولعب أبطالها دورهم فى الحياة . عدا بعضها ، وهو قليل جداً ، مما يدخل فى قسم الأساطير والخرافات التى اعتدنا عليها فى المؤلفات القديمة .

إلا أنه مما يؤسف له ، أن مقدمة الكتاب جاءت مختصرة جداً ، ليس فيها مايبين سبب تأليفه ، كما أنها لا تتعرض للظروف التى أُملت على المؤلف تأليفه ، ولاتبين الغرض الذى استهدفه من وضعه . وكذلك خلت أبواب الكتاب المختلفة من الإشارة إلى ذلك . ولعله قد استهدف من حكاياته هذه وتبويبها بحسب الأغراض التى ذكرناها ، أن يضع أمام حكام عصره من الخلفاء والسلاطين والوزراء والولاة ، حلولاً عملية لمشاكل جابهت أمثالهم فى دول أو أمم أخرى عبر تاريخها ، لعلهم يعتبرون بها ويفيدون من نتائجها ، مما يساعدهم على النهوض بمسئوليات الحكم . وقد تخيرّ المؤلف من الحكايات والحوادث ما يلائم قصده فى كل باب ، ومن يطالع الكتاب بإمعان ، يجد أن المؤلف قد وُفِّق فى اختياره إلى حدٍّ بعيد .

ومما يلفت النظر حقاً ، أن المؤلف قد التزم فى سرد هذه الحكايات والأخبار ، فى الأبواب المختلفة ، منتهى الموضوعية . فلم يستطرد فى بحثه أو يتبسط فى روايته ، ولم يقحم فيها تجاربه وخبراته أو مشاهداته ، ولم ينتقد أو يعلق على أى قسم منها بما يمثل رأيه ووجهة نظره . كما أنه لم يذكر أى شىء عن نفسه سواء ما يتعلق بنشأته وماضيه وحاضره ، أو اتصالاته . فالكتاب على هذا نموذج ممتاز للأسلوب الموضوعى المجرد فى الكتابة والتأليف . ومما يزيد فى قيمة الكتاب ، أن معظم الأخبار التى تضمنتها أبوابه المختلفة ، رواها المؤلف بسندها ،

وأن من روى عنهم يعتبرون من ثقاة الرواة والواقع أن من روى عنهم ، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، يكادون أن يكونوا من الطبقة الأولى من حيث مركزهم العلمى ودرجة الاعتماد على روايتهم والثقة بها . وأقدم رواته عبد الله بن عباس وتابعه جابر بن زيد . وابن عباس ، كما سمى حبر الأمة ، حجة فى شعر العرب وأيامهم ، وأعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها . كما كان جابر بن زيد ، من أئمة الفقهاء وثقاة المحدثين .

أما رواته من رجال القرن الثانى للهجرة ، فأشهرهم الشعبى عامر بن شراحيل ، وهو أحد ثقاة رواة الحديث والأخبار ، ومحارب بن دثار القاضى الفقيه ، وقتادة ابن دعامة إمام العربية وأحفظ أهل البصرة فى زمانه للشعر والأخبار ، ومجالد ابن سعيد الهمدانى أحد الثقاة فى رواية الحديث والأخبار ، والوليد بن حصين الكلبى الملقب بشرقى ، الراوية الأديب الذى انتدبه المنصور العباسى ليدرس ابنه المهدى فنون الأدب ، وشعبة بن الحجاج العتكى أحد أئمة الحديث والأدب ، وإسماعيل بن عياش العنسى عالم الشام ومحدثها .

وأشهر رواته من رجال القرن الثالث الهجرى ، هشام بن محمد الكلبى المؤرخ والعالم بأنساب العرب وأخبارهم وصاحب المؤلفات العديدة فى ذلك . والأصمعى عبد الملك بن قريب الباهلى راوية العرب وأحد أئمة اللغة والشعر ، والمدائنى على بن محمد الراوية المؤرخ صاحب المؤلفات العديدة فى أخبار الجاهلية والسيرة النبوية والفتوحات الإسلامية وتاريخ الخلفاء .

أما من ناحية موضوع الكتاب ، فإنه يعتبر من أقدم المؤلفات فى موضوع السياسات الملكية . ولم نجد من سبق الخطيب الإسكافى من مؤلفى المسلمين ومؤرخيهم ، فى الكتابة فى هذا الموضوع ، سوى شهاب الدين أحمد بن أبى الربيع (المتوفى سنة ٢٧٢ هـ) الذى وضع للخليفة المعتصم العباسى كتاباً فى هذا الباب

سماه « سلوك المالك فى تدبير الممالك » . أما الكتب الأخرى الشهيرة فى هذا الموضوع ، فقد وضعت بعد الإسكافى . وقد وضع ابن أبى الربيع كتابه على أساس طريقة التشجير التى تقوم على عرض خلاصة البحث بنقاط أساسية تتفرع منها نقاط ثانوية ، توضع بشكل متسلسل متشعب . وقد احتوى الكتاب على فصول أربعة ، كتبت بشكل فلسفى مجرد خال من الحوادث التاريخية ، وهى تدل على غزارة علم المؤلف وسعة اطلاعه على معارف عصره ، وعلى قدرته فى تحليل المواضيع وتعليلها وبيان نتائجها . ولم نجد فى كتاب الخطيب الإسكافى مايدل على أنه قد اقتبس شيئاً مما احتواه كتاب ابن أبى الربيع ، إذ أن بحوث هذا الكتاب ، كما قلنا ، فلسفية مجردة ، بينما يقوم كتاب الخطيب الإسكافى على عرض صور مختلفة مستمدة من الحوادث التاريخية . وذلك مما يجعل لكتاب الإسكافى قيمة كبيرة باعتباره من أوائل ما ألف فى هذا الموضوع .

على أن أهمية كتاب الإسكافى لاتقتصر على أسبقيته وحسب ، بل تظهر فيما انطوى عليه من حقائق تاريخية ، تكشف عن كثير من جوانب الحياة السياسية للمجتمع الإسلامى فى عصر المؤلف ، وخلال القرون الأربعة الأولى من التاريخ الإسلامى ، وهى ولا شك منبع غزير قد ينفع دارسى التاريخ المذكور .

غير أنه مما يدعو إلى الاستغراب ، أننا لا نجد فى كتب التراجم التى أشرنا إليها شيئاً عن المؤلف ، عدا ماجاء عنه فى معجم الأدباء . إن ترجمته التى وردت فى هذا الكتاب ، جاءت مقتضبة جداً لاتشفى غليل الباحث ، ولا تتفق ومنزلة المؤلف العلامة الإسكافى . وهى لا تتعدى اسمه وكنيته وعمله وشهرته التى عُرف بها ، وتسمية بعض الكتب التى صنّفها . ولا نعرف لماذا أغفلت تلك المصادر ذكره فلم تترجم له ، وهل كان ذلك مقصوداً لعوامل نجهلها ؟ أم أن الخطيب الإسكافى لم يكن بتلك الدرجة من الشهرة والمنزلة فى عالم الأدب

والتأليف ، بحيث لا يستحق أن تنوه به الكتب وأن تترجم له ؟ إلا أن شهرته العلمية ، قد أشاد بها الصاحب بن عبّاد عند ما قال ، كما روى ياقوت الحموى فى معجمه : «فاز بالعلم من أهل أصبهان ثلاثة : حائك ، وحلاّج ، وإسكاف ». والإسكاف ، كما يقول ابن عبّاد ، هو أبو عبد الله الخطيب . وذلك ولا شك دليل واضح على سمو مكانته العلمية ومركزه الأدبى .

وقد يكون ابتعاده عن الخلفاء والولاة وعدم اتصاله بهم وتقربه إليهم ، سبباً فى هذا الإغفال . لأن كثيراً من الفلاسفة والعلماء والشعراء والأدباء ، لم ينبهوا ولم يشتهروا إلا بعد أن ارتبط اسمهم بخليفة قربهم إليه ، أو وال شملهم برعايته . ولا ندرى ما إذا كان الخطيب الإسكافى قد عاش بعيداً عن الخلفاء والولاة وغيرهم من ذوى السلطان ، فلم تتح له الفرصة للبروز والاشتهار . غير أن ياقوتاً الحموى يشير فى النبذة الموجزة التى كتبها عنه فى معجمه الأدبى ، إلى أنه كان أحد أصحاب ابن عبّاد الصاحب . وإذا كان ذلك صحيحاً ، فإنه يعنى أن مجال الشهرة كان مفتوحاً أمامه لو أراد ، لما نعرفه عن الصاحب ورعايته العلماء والأدباء . إلا أننا لم نلمس لهذه الصحبة أى تأثير على الخطيب الإسكافى . فإن من يدرس حياة الصاحب بن عبّاد، ويتعرف على من اتصل به من العلماء والأدباء والشعراء ، يجدهم كثيراً عددهم ، وبعضهم ممن ليسوا بمنزلة الإسكافى العلمية والأدبية ، قد اقترنت أسماؤهم باسم ابن عبّاد . وهذا يجعلنا نميل إلى القول بأن الخطيب الإسكافى كان يؤثر العزلة فى حياته . ولعله كان مرهقاً فى مهنته الخاصة التى اتخذها مصدراً لعيشه ، وقد آثرها على الكسب من تقربه إلى ذوى السلطان ، فلم يطرق أبوابهم أو يتردد على مجالسهم . فابتعد بذلك عن مجال الاشتهار .

وللخطيب الإسكافي كتب أخرى غير هذا الكتاب الذي نقدمه ، وقد ذكرها ياقوت في معجمه الأدبي وتناقلها عنه مَنْ ترجم للمؤلف بعد ذلك وهي : كتاب غلط كتاب العين ، ومبادئ اللغة ، ونقد الشعر ، والغُرّة ، وشواهد كتاب سيبويه ، ودرة التنزيل وغرّة التأويل في الآيات المتشابهة . وقد طُبع من هذه الكتب : كتاب مبادئ اللغة ، في مطبعة السعادة بمصر في سنة ١٣٢٥ هـ ـ وكتاب درة التنزيل وغرة التأويل ، في مطبعة السعادة كذلك في سنة ١٣٢٦

وعثرنا على مخطوطة في خزانة يعقوب سركيس ، التي أهـداها إلى جامعة الحكمة ببغداد ، فيها الكتب التالية للإسكافي : مبادئ اللغة ، وشرح أبيات مبادئ اللغة ، وخَلْق الإنسان . ويبدو أن الكتابين الأول والثاني هما نفس كتاب مبادئ اللغة المطبوع . أما الثالث منها ، فهو كتاب آخر من تصانيف الإسكافي مما لم يذكره ياقوت .

وبعد ، فإننا نرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فيما بذلناه من جهد لإخراج هذا الكتاب إلى عالم المطبوعات ، وأن ينال من اهتمام المعنيين بالتاريخ الإسلامي ما هو جدير به ، وذلك حسبنا .

كما نزجي خالص شكرنا للإخوان الذين كانوا عوناً لنا في ذلك .

والله ولي التوفيق ؟

أحمد عبد الباقي

بغداد في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤

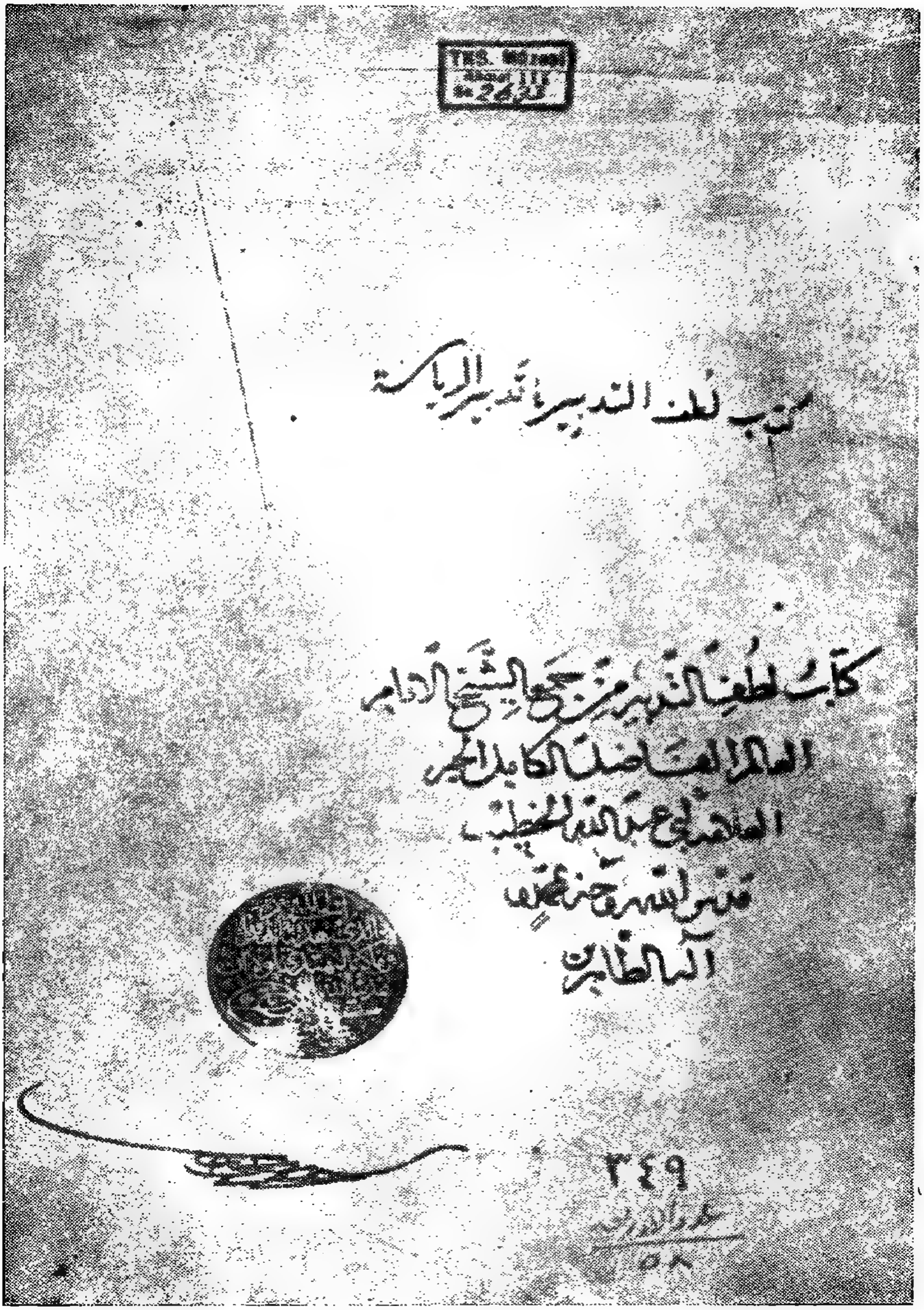
كتاب لطف التدبير في تدبير الرياسة

كتاب لطف التدبير من جمع الشيخ الإمام
العالم الفاضل الكامل الحبر
العلامة أبي عبد الله الخطيب
قدس الله روحه بمحمد
وآله الطاهرين

٣٤٩

صفحة العنوان من مخطوطة مكتبة أحمد الثالث باستانبول

بنت الصلوة لعيالك فكان ضحكنا للنبأ الوليد فلما صاح أخا الدهر أهل الحرة وكان له
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان وصل بنت نبيلة قال ومن يشهد لك فلك شهد
لكم وابن عباس قال العجل وحضرت نبيلة الأنصاري فادانا الدرهم عنه أن أخرجا
بنت نبيلة من سليم فان نبينا عليه الصلوة والسلام كان دفعها لرجل من الصحابة
قال لجمع أهل الحرة من ذلك فقالوا إن الرجل قد لوا عليه فما لو اخبرتنا بما لك
تحمل بأمك ذهبنا قال فلعلها نظرة قالوا إلى ذلك فاضربوا العجوز الكبيرة معا
رؤيا ما في حجابك كيف الحجاب فنظر إليها قال أنك لحي لك ثم قالوا يا الشعث
تغير الدهر إلى ما أرى قالوا أما حكم الأمر لك بعد ذلك قال أما أحكم عشر مائة قالوا
ذلك عشر مائة وبلغ المسلمين أنهم قد ذكروه فرجع إليهم عشر مائة قالوا وأين عشرة
من كيف صار منحرنا أنت شاب قال الحق واحق قالوا عشر مائة وفي الآخر
عدد ابنائه عشر مائة قالوا ثم عشرة الآف قال لعشرين وقيل كان يحل
بالنار ويقيها آمر في حج الحرم إذا ضرب على حاجبه فكان كل أتاه يكون
ضربه قال إذا ذاقه إياك أن تذكر الغرة إذا أمرت الملوك فأنك لو الحكم
ملك الرقبة فكان أحدهم أو إشارة الملوك أو لما يحضر على بالدكر الفرد
بما لمن لا يجعل النبي بقول كيف يقول بيت وحسنا يقول له
لما تذكرت الحرة بقول لم تقول من ثمة لما
تمت النسخة المباركة المسماة بالمطلب الكبير
وأدام الله صاحبنا المبارك

الصفحة الأخيرة من مخطوطة مكتبة أحمد الثالث باستانبول

مقـــدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدُ الله واجب قبل كل كلام ، ومنحةُ العقل فوق كل إنعام ، وما بعدَ كتب الله المنزلة على أنبيائه صلوات الله عليهم ، وبعد جوامع كَلِمِهم ، أشرف من ثمرات العقول التى يرثها الآخِرُ عن الأول ، ويُستند بها فى الدين إلى المعلوم الأفضل ، ويتسنم بها للدنيا صهوة الأمر (المعضِل)[1] ، عند سياسة العباد وعمارة البلاد .

فمدُّ الوادى من سيل التِلاعات[2] ، وفيض الأنهار من سَبَل[3] القطرات . وإن كان فى الناس مَنْ يؤيده الله من صواب الرأى بما يغنيه عن استمداد ، ويوفقه حتى لا يحتاج فى قراع الخطوب إلى استعداد . فتكاثُرُ الأنوار على المبهمات أنفع ، ولظلام الشُّبَه أدفع . والله يهدى قلوب أوليائه ويشحذ بصائرهم على أعدائه بمنّه .

وهذا المجموع اثنان وثلاثون باباً ، مختومة بباب فى ضروب مختلفة .

---

(١) الأمر العضيل : الأمر العسير . والكلمة فى الأصل مطموسة .

(٢) التلاعات : جمع تَلْعة وهى مجارى أعلى الأرض إلى بطون الأودية .

(٣) السَبَل : ما سال من المطر ، وفى الأصل « السيل » .

الباب الأول

فى

أوائل ما تحتاج الملوك[1] إلى معرفته

يُقال إن المأمون جمع يومًا ولدَه فقال : يا بَنِى ليعلم الكبير منكم أنه إنما عظم قدره بصغارٍ عظموه ، وقويت قوته بضعافٍ أطاعوه ، وشرفت منزلته بعوام اتَّضعوا له . فلا يدعوَنَّه تفخيم المفخَّم منهم إيَّاه إلى تصغيره ، وتعزيزه أمره إلى تذليله . ولا يستأثرن بفائدة ورفق[2] دونه . ولا يولعنَّ بتسميته عبداً كما سمَّت الأعاجم ، بل وليًّا وأخًا . فإن الشىء الذى قِوامه من أجزاء خسيسة ومعانٍ مذمومة ، فهو أيضاً خسيس مذموم . وكل امرئ من أولئك جزء من عدة أجزائه ، وعماد من أعمدة أمره . فإذا انحلت أجزاؤه وزالت دعائمه ، مال العماد وتهدم الكل . وقد قيل إن من ملك أحراراً طائعين كان أشرف ممن ملك عبيداً مستكرهين . واعلموا أن قلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعها فليعلم أنه فيها[3] .

وقال يومًا آخر لهم : ارجعوا فيما اشتبه عليكم من التدبير إلى رأى

---

(١) فى ب : « الكبار » .

(٢) الرفق : ما استعين به من مال أو متاع وجمعها مرافق .

(٣) العبارة فى عيون الأخبار ١ : ١٠ : « وفى كتب العجم : قلوب الرعية خزائن ملوكها فما أودعتها من شىء فلتعلم أنه فيها » .

الحَزَمة[١] المجربين والبررة المشفقين . فإنهم مَرائيكم[٢] يُرونكم ما لا ترون ، ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون . فقد صحبوا لكم الدهور ، ومارسوا الدول[٣] ، وكفوكم التجارب والعبَر . وعرفوا حوادث الأزمنة وأعراضها وإقبالها وإدبارها ، والعلل التى يسكن بها الهائج المضطرب ويهتاج لها الساكن المطمئن . فروِّضوا أنفسكم لهم ، وتجرَّعوا مرارتهم . فقد قيل إنَّ من جرَّعك مُرًّا لتبرأ أشفق عليك ممن أوجرك[٤] حلوًا لتسقم ، ومن خوَّفك لتأمن ، أبرُّ ممن أمَّنك حتى تخاف .

وقد قيل: إن نصف عقلك مع المستشار ، واعتبروا فى علو الهمة بمن ترون من وزرائى وخاصتى . إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم . إنه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير ، وكان قليل ما يفعل[٥] فى كبارها أكثر من كثير[٦] ما يَستدرك من الصغار . فترفَّعوا عن دناءة الهمة ، وتفرغوا لجلائل التدبير . واستكفوا[٧] الثقات فادنوها . وكونوا مثل كرام السباع ، لا تشتغل بغوامض الوحش[٨] والطير وحواشيها بل بجليلها[٩]

---

(١) الحَزَمَة : مفردها الحازم وهو الذى يضبط أموره ويحكمها ويأخذ فيها بالثقة

(٢) مرائى : جمع مرآة وتجمع على مرايا كذلك .

(٣) مارس الأمر : عالجه ، ومارسوا الدول تقلبوا فى عدد منها وخبروها .

(٤) أوجره : جعله فى فيه ، أى أطعمه . وفى ب : « أطعمك » .

(٥) فى ا : « ما يعقل » .

(٦) فى ب : « كبير » .

(٧) استكفى الرجلَ الشىءَ : طلب إليه أن يكفيه إياه .

(٨) غوامض الوحش : مفردها غامض وهو الخامل والذليل منها .

(٩) فى ب : « بجلتها » .

وكبارها . واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فأيديكم لا تمدُّ بكم . ولا يغنى الولى[١] عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه من الصيانة والمادة .

وقال بُزُرْجُمْهر[٢] : عاملوا أحرار الناس بمحض المودة ، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة ، وسوسوا السِفْلة بالمخافة صَراحًا .

وكان أرِسْطاليس[٣] أدّب الإسكندر ، فلما نشأ واستفحل أمره وكبر شأنه وعرّفه من الحكمة ما عرّفه ، كان شبه الوزير له ، يعتمد عليه فى الرأى والمشورة . فكتب إليه يخبره أنه قد كثر (فى) خواصه وعسكره قوم ليس يأمنهم على نفسه لِمَا يرى من بعد هممهم وشجاعتهم وشدة دالتهم[٤] ، وليس يرى لهم عقولًا تفى بهذه الفضائل (التى فيهم) بقدر هممهم . فكتب إليه أرِسْطاطاليس : فهمت ما وصفته عن القوم الذين ذكرت . فأما بُعد هممهم ، فمن الوفاء بُعد الهِمّة ، وأما ما ذكرته من شجاعتهم مع نقص عقولهم ، فمن كانت هذه حاله فرفِّهه فى المعيشة واخصصه بحسان النساء . فإن رفاهة العيش تُوهِى من العزم ، وإن حب النساء يحبب[٥] السلامة ويباعد من ركوب المخاطرة .

---

(١) الولى : مالك الأمر والقائم به .

(٢) بُزُرْجُمْهر : من حكماء الفرس وله كتاب فى النصائح نقل عنه كتّاب الفرس والعرب كثيراً . وكان وزيراً لأنوشروان الملقب بكسرى الأول .

(٣) أرِسْطاطاليس : هو الفيلسوف اليونانى المشهور ، وكان يقوم بتربية الاسكندر المقدونى وتثقيفه . وعنى العرب فى بدء حضارتهم بترجمة كتبه إلى العربية وأطلقوا عليه : المعلم الأول .

(٤) الدالة : الجراءة بسبب الوجاهه .

(٥) فى ا : « يجب » .

وليكن خلقك حسناً تستدع به صفوَ النيات وإخلاص المقامات[١] . ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوسط أصحابك مثله . فليس مع الاستئثار محبة ولا مع المؤاساة بِغْضة . واعلم أن المملوك إذا اشتُرى لم يسأل عن مال مولاه ، وإنما يسأل عن خُلَّته[٢] .

وكانت الفرس تقول : للوزير على الملك ، وللكاتب على الصاحب ، ثلاث[٣] : رفع الحجاب عنه ، واتهام الوشاة عليه ، وإفشاء السر إليه .

وحُــكِيَ أن سابور[٤] الملك، استشار وزيرين كانا له فى أمر من أموره ، فقال له أحدهما : لا ينبغى للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً به ، فإنه أموت للسر وأحزم فى الرأى ، وأدعى إلى السلامة ، وأعفى لبعضنا عن غائلة بعض[٥] . لأن الواحد رهن بما أفشى إليه وهو أحرى أن لا يظهره ، رهبةً للملك ورغبةً إليه . وإذا كان عند اثنين فظهر دخلت على الملك الشبهة واتسعت

---

(١) فى كتاب الوزراء والكتاب ص ٩ : « المقالات »

(٢) الُخلّة الصفة وفى ب : « خلقة » .

(٣) فى كتاب الوزراء والكتاب ص ١٠ : « ثلاث خصال » .

(٤) هو سابور ذو الأكتاف كما جاء فى كتاب الوزراء والكتاب (ص ١١) وكان من كبار الملوك الساسانيين . ولقب بذى الأكتاف لأنه كان شديداً فى حربه مع العرب ، يخلع أكتاف الأسرى منهم .

(٥) ورد هذا النص فى «عيون الأخبار ١ : ٢٧ » بعض الزيادة وهذه هى : فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين ، وإفشائه إلى ثلاثة كإفشائه إلى العامة . لأن الواحد رهن بما أفشى إليه ، والثانى يطلق عنه ذلك الرهن ، والثالث علاوة فيه . وإذا كان سر الرجل عند واحد كان أحرى ألاّ يظهره رهبةً منه ورغبة إليه» . وبمثل هذا ورد النص فى كتاب الوزراء والكتاب ، ص : ١١ .

على الرجلين المعاريض[١] . فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانة[٢] مجرم . وإن عفا عنهما عفا عن واحد ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة عليه[٣] .

وقال بعضهم : اجعل من انتخبته لديوان الخراج[٤] واحداً من ثلاثة : إما رجلا يُظهر الزهد فى المال والورع فى الدين ، فإن كان كذا عدل على الضعيف وأنصف من الشريف ووفَّر الخراج واجتهد فى العمارة . وإن هو لم يَدَع ولم يعف إبقاء على دينه ونظراً لأمانته ،كان حريًّا أن يخون قليلا ويوفر كثيراً ، استسراراً[٥] بالرياء واكتتامًا بالخيانة . فإن ظهرتَ على ذلك عاقبته على ما اختان[٦] ولم تحمده على ما وفَّر . وإن جَلَح[٧] فى الخيانة وبارز بالإساءة ، نكَّلت به فى العذاب واستنظفت[٨] ماله وأطلت مدة حبسه . (أو رجلا عالماً بالخراج ، غنيًّا فى المال ، مأموناً فى عقله فيدعوه علمه بالخراج إلى الاقتصاد فى الحَلْب والاجتهاد فى العمارة ، والرفق بالرعية . ويدعوه غناه إلى العفة ، وعقله إلى الرغبة فيما ينفعه والرهبة لما يضره) . أو رجلا عالماً بالخراج معروفاً بالأمانة

---

(١) المعاريض : الشبهات .

(٢) فى ب : « بجناية » .

(٣) فى « عيون الأخبار » : ولا حجة معه . وفى كتاب الوزراء والكتاب: والحجة عليه .

(٤) ديوان الخراج : هو الدائرة الخاصة بتنظيم مالية الدولة وحساباتها من إيرادات ومصروفات . ويقابل وزارة المالية فى عصرنا الحاضر .

(٥) الاستسرار : المبالغة فى التستر والإخفاء .

(٦) اختان : خان ، واختان المال سرقه .

(٧) جَلحَ فى الخيانة : جاهر بها . وفى ب : « خلج » .

(٨) استنظف ماله : أخذه واستوفاه ، صادره .

مُقْتِرًا من المـال ، فتوسع[١] عليه فى الرزق ، فيغتنم لحاجته الرزقَ ويستكثر لفاقته اليسير ويُرجى[٢] الأموال بعامه ، ويعف عن الخيانة بأمانته[٣] .

ورُفع إلى أنو شروان[٤] أن عامل الأهواز جبى فضل ثمانية آلاف (ألف) درهم مما لم يلزم الناس ، وإن ذلك فى بيت المـال . فوقّع[٥] برد المـال على القوم بأسره ، فإن الملك إذا عمر بيوت أمواله بما يأخذ من رعيته، كان كمن عمّر سطوح بيته بما اقتلع من قواعد بنيانه .

ويُقال إن أبا جعفر المنصور حضره ليلةً عبد الله بن على وصالح بن على فى نفر معهما[٦] . فقال عبد الله بن على : يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان

---

(١) فى ب : « فوُسّـع » .

(٢) يُرجى الأموال : لا يصيب منها شيئاً . ووردت فى « عيون الأخبار » « يزجى » وهى أصح فى معناها .

(٣) ورد نص هذه التوصية فى كتاب عيون الأخبار كاملاً وباختلاف بعض الالفاظ . الجزء(الأول ، ص ١٧) .

(٤) أنوشروان : ولقبه كسرى الأول ، ولى الحـكم بعد أبيه قباذ . ويعتبر عهده أزهى عهود الدولة الساسانية . فقد امتاز فى القضاء على اتباع مزدك ، وتنظيم المجتمع وإعادة بنـاء القرى التى خربت فى عهود الفوضى التى سبقته ، واصلاح نظام الضرائب وشؤون الجيش . وكان أنوشروان مثال الملك العادل .

(٥) التوقيع هو ما كان يكتبه ملوك الفرس القدامى من هوامش وتعليقات على ما يعرض عليهم من أمور الناس . وقد أخذ الخلفاء المسلمون ذلك وتبعهم الوزراء والولاة ، وهم يتخيرون للتوقيع ما قلّ ودل من الألفاظ . وقد يتضمن التوقيع آية قرآنية كريمة مناسبة أو بيت شعر أو قولاً مأثوراً .

(٦) إن حضور عبد الله بن على مجلس المنصور بعد توليه الخلافة أمر مُستبعد . لأن عبد الله كان على رأس جيش كبير لغزو الروم وجهه به أبو العباس =

ابن محمد[1] لمّا هرب إلى بلاد النوبة ، جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عنى حفظه ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يرسل إليه بحضرتنا ويسأله عما ذهب عنا ، وكان فى الحبس ، فأرسل إليه أبو جعفر ، فلما دخل قال له: ياعبد الله ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : إخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبة . قال : (نعم) يا أمير المؤمنين ، هربت ممن تبعنى بأثاث سلم لى إلى بلاد النوبة ، فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الأثاث . فجاء أهل النوبة ينظرون إليه متعجبين منه إلى أن بلغ ملك النوبة فجاء ومعه ثلاثة نفر ، فإذا رجل طُوال آدَم أغبر مسنون الوجه . فلما قرب قعد على الأرض وترك البساط ، قلت : ما يمنعك أن تجلس على أثاثنا هذا ؟ قال : إنى ملك وحق على كل ملك[2] أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله . قال : ثم نظر إلىّ فقال : لِمَ تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ؟ فقلت : عبيدنا

= السفاح . وكان قد وصل حرّان عند ما بلغه نبأ وفاة السفاح فدعا إلى نفسه . فوجه المنصور أبا مسلم الخرسانى لحربه فانتصر عليه ، فهرب والتجأ إلى أخيه سليمان ابن على والى البصرة . ثم أعطاه المنصور الأمان فصار إليه فأمر بحبسه ، وظل فى السجن حتى مات . إن المصادر الأخرى التى جاءت فيها هذه القصة ، لم تنص على حضور عبد الله بن على مجلس المنصور ، بل اقتصرت على صالح بن على عم المنصور ، أو أنها أشارت إلى حضور جماعة عند المنصور دون ذكر الأسماء .

راجع مثلاً : مروج الذهب ، ٢ : ٢٢٩ — ٢٣٠ ، فإنه لم يذكر حضور عبد الله ابن على ، وإن الذى قال ذلك للمنصور هو صالح بن على .

والعقد الفريد للملك السعيد ص ٦٥ ، لم يذكر حضور عبد الله بن على كذلك.

(١) مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى الشام ، كان له ابنان : عبد الله وعبيد الله . أما عبيد الله فلا عقب له ، وأما عبد الله فكان أبوه جعله ولى عهده ، وقد سجنه المنصور حتى مات ببغداد وله عقب . (المعارف ص ٣٧٣)

(٢) فى ا : « حق لكل ملك » .

وأتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم . قال : فَلِمَ تلبسون الديباج والحرير وتحلّون بالذهب وهو محرم عليكم ؟ فقلت : زال عنا الملك وانقطعت المادة ، واستنصرنا بقوم من الأعاجم كان هذا زيّهم فكرهنا الخلاف عليهم[(١)] . قال : فأطرق يقلب يده ويقول : عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا ، يكرر الكلام على نفسه ، ثم نظر إلىّ فقال : ليس ذاك كما تقول ، ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به أُمرتم وركنتم إلى ما عنه نُهيتم ، فسلبكم الله العزّ وألبسكم الذلّ بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد . وأنا أخاف أن تنزل بكم النقمة وأنت ببلدى فتصيبنى معك ، فارتحل عن جوارى . قال : فقام أبو جعفر وقيذاً[(٢)] مغموماً من كلامه فدخل حجرته[(٣)] .

وأراد عبد الملك بن مروان أن يغتال ملك الروم فى الضواحى بمكيدة من مكائده ، وكان من دهاة بنى أمية . قال يزيد بن عقال : فدخلت عليه وعنده[(٤)] رجال من صنائعه فيهم إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهرى والمثنى

---

(١) فى هذه الجملة تناقض ، إذ كيف يستنصرون بالأعاجم بعد زوال ملكهم ، ولعل صوابها كما جاء فى شرح نهج البلاغة : « قلت : استعنا فى أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتاب دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك اتباعاً لسنة سلفهم على كره منا » وكذلك جاءت هذه الجملة فى العقد الفريد بما يقرب من هذا النص . (شرح نهج البلاغة ، ٢ : ٢١٥ــ٢١٦ . والعقد الفريد للملك السعيد ص ٦٧) .

(٢) قام وقيذاً : قام محزون القلب ، وفى ا : « قام وئيداً » .

(٣) جاءت هذه القصة فى « عيون الأخبار » ١ : ٢٠٥ – ٢٠٦ ، بألفاظ تختلف عن هذه الرواية غير أن المعنى واحد . وجاءت فى « العقد الفريد للملك السعيد » ص ٦٥ – ٦٧ ، بشكل أكثر تفصيلاً . كما جاءت فى « مروج الذهب » ٢ : ٢٣٠ ، بشكل مفصل أيضاً .

(٤) فى ا : « وعدة » .

ابن خالد الأسدى ، والعباس بن زفر الهلالى ، وحرب بن قطن الهلالى ، ومحمد ابن مسلم البجلى . فشاورنا[١] فى ذلك فأشرنا عليه أن يشرف بنفسه على الروم (والثغور) ويمضى فيها أمره وإرادته . فقال لنا : إنّ من حزم الوالى[٢] الشهم أن لا يبتذل مهابة نفسه وجلالة قدره فيما إن استكفاه رجلًا من صنائعه كفاه إياه وقام به . وإنما اصطنعت (الولاةُ) الرجال ليصونوا بها مهجهم فى الحروب ومهابة أنفسهم وجلالة أقدارهم عن التبذل لرعيتهم . ولذلك يجب على الوالى اللبيب الأريب أن يتخير الرجال لصنيعته ، لأن صنيعة الوالى جُنّته فى الحرب ووجهه فى حفظه . وقد تعرف الرعية قلّة الوالى وكثرته بصنيعته . ثم تمثّل[٣] :

وبعثتَ من ولد الأغر معتبٍ[٤] صَقْرًا يلوذ حمامه بالعوسج
فإذا طبَخْتَ بناره أنضَجْتَه وإذا طبختَ بغيرها لم تُنضج
وهو الهمام إذا أراد فريسة لم يُنجها منه صريخُ الهجهج[٥]

وقيل للإسكندر : أى شئ أنت به أسرّ من مُلكك ؟ قال : اقتدارى على الإحسان .

ومن شدة التحرز ، ما حُكىَ فى كتاب من كتب الهند : إنه أُهدىَ إلى بعض ملوكهم حَلْىٌ وكسوة وبحضرته امرأتان من نسائه ووزير من وزرائه .

---

(١) فى ا : « فتشاورنا » .

(٢) فى ا : « الرأى » .

(٣) الأبيات لعمران بن عصام العنزى الذى قتله الحجاج لخروجه مع ابن الأشعث. وقد صححناها على النص الوارد فى العقد الفريد ٥ : ٥٤ لكثرة الخطأ فى النسختين .

(٤) الأغر : الشريف ، ومعتب اسم قبيلة .

(٥) الصريخ : الصياح الشديد والاستغاثة ، والهجهج الشديد الهدير .

نخيِّر إحدى امرأتيه[١] بين اللباس والحِلْية . فنظرت المرأة إلى الوزير كالمستشيرة له ، فغمزها بإحدى عينيه على أخذ الكسوة ، ولحظه الملك . فعدلت عما أشار به من الكسوة واختارت الحِلْية لئلا يفطن الملك للغمزة . ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادة له وخلقة فيه[٢] .

واستعار بعض الملوك من أنوشروان رأياً فى سياسة الرعية فوقّع فى كتابه : احسم عنهم الأسباب التى تبعث قلوبهم على معصيتك تكن قادة[٣] أبدانهم إلى طاعتك .

وكان الحجاج يستبطىء المهلب فى حرب الأزارقة[٤] وهو مجتهد ، فكتب

---

(١) فى عيون الأخبار ١ : ٢٢ : « وخيّر أحظاهما عنده » .

(٢) فى النص الوارد فى « عيون الأخبار ١ : ٢٢ » إختلاف فى بعض الألفاظ ولكن المعنى واحد . كما أن فيه إضافة على هذا النص هى : « فلما حضرت الملك الوفاة قال لولده : توصَّ بالوزير خيراً فإنه اعتذر من شىء يسير أربعين سنة » كما ورد هذا النص فى كتاب الوزراء والكتاب ص ١١ . بتغيير طفيف فى بعض الألفاظ .

(٣) فى ب : « مادة » .

(٤) الأزارقة : إحدى فرق الخوارج وكانت أشدهم وأشجعهم . وتنتسب إلى نافع ابن الأزرق وهو من غلاة الخوارج . كان من الموالين للإمام على ثم انقلب عليه بعد التحكيم وانضم مع أتباعه إلى جيش عبد الله بن الزبير فى مكة وقاتل إلى جانبه ضد الأمويين . ثم مالبث أن اختلف مع ابن الزبير فانفض وأتباعه عنه وعادوا إلى البصرة . وكان نافع شجاعاً فتاكاً ، وقتل قرب الأهواز فى إحدى المعارك التى خاضها ضد جيش الأمويين .

وقد نقم الأزارقة على كل من خالفهم من المسلمين ، وصاروا يقتلون كل من يقع بأيديهم منهم . استولوا على الأهوار وهاجموا جنوب العراق ، فحاربهم أهل البصرة بقيادة المهلب بن أبى صفرة ، وقد ساعده الحجاج وأمده فى حربهم ، فتغلب عليهم بعد أن قضى ما يقرب من عشرين سنة فى مناجزتهم ، وعرف المهلب بالشجاعة والكفاءة بشؤون الحرب .

إليه المهلب : إن من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يُبصره . فهذا أوجز جواب سُمع(١) .

وقال عيسى بن طلحة : سألت ابن عباس عن معاوية فقال : سما لشىء بأمر أسرَّه واستظهر عليه بشىء أعلنه . فحاول ما أسرَّ بما أعلن فناله . واستنفر إليه صاحبه فصعد وهبط وأبقى وترك ، وأتيح له من كفاه مؤونته ولم ينازعه أحد بعد ، وكان حلمه قاهراً لغضبه ، وجوده مستعلياً على مَنْعه . يصل ولا يقطع ويجمع ولا يفرِّق ، فاستقام أمره وجرى إلى مدته .

سأل رجل بعض حكماء بنى أمية : ما كان سبب زوال نعمتكم ؟ فقال : قد قلت فاسمع وإذا سمعت فافهم . إنا قد شُغلنا بلذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا ، وظُلمت رعيتنا ففسدت نياتهم لنا ، ويئسوا من إنصافنا فتمنوا الراحة لغيرنا ، وخربت معايشهم فخربت بيوت أموالنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم مخالفونا فتظاهروا على أمرنا . وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا .

وقال المنصور يومًا : ما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر

---

(١) إن ماذكر هنا من جواب المهلب إنما هو جزء منه . وقد ورد نص الجواب فى شرح نهج البلاغة ٤ : ١٩ وهو : « . . إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه لا لمن يعرفه ، فإن كنت نصبتنى لحرب هؤلاء القوم — على أن أديرها كما أرى فإذا أمكنتنى فرصة انتهزتها وإن لم تمكنى توقفت — فأنا أديرها بما يصلحه . وإن أردت أن أعمل برأيك وأنا حاضر وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلكَ وإن كان خطأ فعلىَّ ، فابعث مَنْ رأيت مكانى » . وكتب المهلب من فوره إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج : لاتعارض المهلب فيما يراه ، ولا تعجله ودعه يدبِّر أمره .

لايكون على بابى أعف منهم .قيل ياأمير المؤمنين : مَنْ هم ؟ قال : هم أركان المُلْك ، لايصلح المُلْك إلا بهم ، كما أن السرير لايصلح إلا بأربع قوائم ، إن نقصت قائمة واحـدة وَهَى ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة يُنصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى لى ولا يظلم الرعية ، فإنى غنى عن ظلمها . ثم عضَّ على إصبعه السبابة (ثلاث مرات)[١] يقول فى كل مرة : آه ، آه ، قيل مَنْ هو الرابع ياأمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة .

سأل المأمون بعض علماء العرب عن رجالات الأرض ، فقال بعضهم : أبو بكر وعمر ، وقال بعضٌ : علىٌّ ، وقال بعض : معاوية وعمرو فى الدهاء والإرْب[٢] والمكيدة . فقال المأمون : إنما أردت رجالا قاموا بنقل دولة ونهضوا بأمر يعجز الرجال عن النهوض بمثله . فقالوا أمير المؤمنين أعلم . فقال : رجالات الأرض خمسة : الإسكندر الرومى[٣] نهض من الروم حتى أباد مُلك

---

(١) سقطت فى الأصل وأكملناها نقلاً من النص الوارد فى « ابن الأثير » ٥ : ٤٦ .

(٢) الإرْب : المهارة والتبصر بالأمور .

(٣) الإسكندر : كان النزاع مستمراً بين الرومان والفرس حينما تولى الإسكندر عرش مكدونيا . فانصرف إلى توسيع حكمه بعد أن دانت له جميع بلاد اليونان . فقاد جيشه نحو الشرق فاستولى على الأناضول وطرد الفرس منها ، ثم انحدر إلى بلاد بابل وانتصر على جيوش دارا ملك الفرس فى عدة معارك ، آخرها معركة اربيل الحاسمة ، حيث انهزم دارا واستولى الإسكندر على بابل، ثم دخل بلاد فارس واحتل عاصمتها پرسيپوليس .

دارا ، وغلب على الأقاليم السبعة [١] . وأردشير [٢] أقبل بمثل همته حتى ردّ ما انتشر من مُلك إقليم بابل على غرّه . وبهرام جور [٣] فى فتكه وقتال خاقان ومن معه فى ثلاثمائة فارس . وأنو شروان مع حداثة سنه توثب على مَزْدَك [٤]

---

(١) الأقاليم السبعة : قسّم الجغرافيون المسلمون العالم القديم إلى سبعة أقسام دعوها بالأقاليم . وجعلوا لكل أقليم منها أحد الكواكب السبعة (وهى السيارات الخمس التى كانت معروفة حينذاك والشمس والقمر ، بالنسبة لتتابعها وتواليها فى الفلك . كما جعلوا لكل منها عدداً من الأبراج السماوية .

راجع : عجائب الأقاليم السبعة حتى نهاية العمارة ص ١٢ — ٤٥ .

(٢) أردشير : على إثر سقوط مملكة فارس على يد الإسكندر المكدونى تجزأت البلاد إلى إمارات ومقاطعات ما لبثت ، بعد الإسكندر ، أن أخذت تستعيد استقلالها ، وفى أوائل القرن الثالث للميلاد قويت أسرة ساسان ، واستطاع ملكها أردشير ، بعد حروب عديدة ، أن يخضع الإمارات الفارسية المتفرقة ويوحدها فى دولة واحدة عرفت بالدولة الساسانية ، واتخذ المدائن عاصمة له فى عام ٢٢٤ م . (إيران فى عهد الساسانيين ، ص ٧٢ — ٨٣) . ويقصد بإقليم بابل العراق .

(٣) بهرام جور : أو بهرام الخامس بن يزد جرد ، من مشـــاهير الملوك الساسانيين . وقد نشأ فى الحيرة برعاية ملوك المناذرة ، ولذلك ساعدوه على إعتلاء العرش عند وفاة أبيه عام ٤٢١ م . وقد اشتهر بهرام بحرب البرابرة شمالى إيران وقضائه على ثوراتهم . وهذا ما يشير إليه الكتاب بقوله : وقتال خاقان . . . فهو يقصد به ملك البرابرة الذى انتصر عليه بهرام (إيران فى عهد الساسانيين ، ص ٢٦١ — ٢٦٨ والطبرى ، الجزء الثانى ، ص ٧٥) .

(٤) مَزْدَك : فيلسوف ظهر فى فارس ودعا إلى الزندقة والاباحية وشيوعية المال ، ونهى عن الاختلاف والمباغضة والقتال . وقد انتشرت دعوته فى عهد قباذ الذى اعتنق مذهبه وساعده على نشره أول الأمر ، ثم ما لبث أن شعر بخطره وخاصة عندما عارض مزدك واتباعه ، جعل ولاية العهد لأنوشروان بن قباذ ، فانقلب عليه فى أواخر أيامه، فنصب قباذ لمزدك وكبار أتباعه كميناً وقد ساعده ابنه أنوشروان فى ذلك . فقتل مزدك ورؤساء أتباعه ، فضعف شأنهم بحيث استطاع أنو شروان ، عند ما تولى الحكم ، القضاء عليهم . (إيران فى عهد الساسانين ، ص ٣٠٢—٣٤٥) .

فى جمعه، وقد وافى دارا مملكة قباذ فأبادهم . وأبو مسلم[١] صاحب دعوتنا، نهض فى دولتنا وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

(١) أبومسلم الخراسانى ، عبد الرحمن بن مسلم ، يعتبر من مؤسسى الدولة العباسية . اتصل بإبراهيم الإمام، الذى توسم فيه قدرة وكفاية، فبعث به إلى خراسان، فاستمال أهلها واستولى على نيسابور ، وقاد الجيش الذى توجه لمقاتلة الجيوش الأموية بقيادة مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وانتصر عليه فى معركة الزاب الحاسمة ، التى قررت نهاية الدولة الأموية ، كما قضى على مقاومة عبد الله بن المنصور، عند ما امتنع عن مبايعة المنصور ودعا إلى نفسه، إذ هزمه فى معركة نصيبين . فحصل بذلك أبو مسلم على مقام خطير ، مما جعل أبا جعفر المنصور يخشاه ، فدبر له مكيدة كان فيها مصرعه ، فقتل وعمره سبع وثلاثون سنة .

راجع تفصيلات اغتياله فى وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٤–٣٣١ .

الباب الثانى
فى لطف التدبير فى الحروب

حُكىَ إن الإسكندر لما فرغ من مدن[1] فارس وأراد الشخوص عنها ، كتب إلى أرِسْطاطاليس يُعلمه أنه لمّا فتح بلاد فارس ، رأى رجالاً لم يرَ مثلهم جمالاً وكمالاً وشجاعة ، وإنه لا يأمن إن ظعَن عنهم أن يثبوا بمن يخلِّف ، ويرجعوا إلى معصيته . وأنه رأى قتل أمثالهم فساداً فى الأرض ، ولم يأمنهم أن يخرجوا فى عسكره على فساد العسكر . فكتب إليه أرِسْطاطاليس : فهمت كتابك فى رجال فارس ، فإما قتلهم فهو من الفساد فى الأرض ، ولو قتلتهم جميعاً لأبدت[2] البلد مثلهم ، وكانوا أعداءك وأعداء عَقِبك وبلدك بالطبع . وإخراجهم فى عسكرك مخاطرة بنفسك وأصحابك لا يؤمن ميلهم عليك ، لأن عدوّك صديق عدوّك . ولكن فرّق كلمتهم بأن تجعل لكل طائفة منهم ملكاً ، فلا يؤدى بعضهم إلى بعضٍ طاعةً ، ويلجأ كل فريق منهم إليك . فملّك الإسكندر ملوك الطوائف ، فمكثوا على ذلك حتى جمع كلمتهم[3] أردشير بن بابك .

وحُكىَ أن الإسكندر لما شخص عن أرض فارس إلى أرض الهند

---

(١) فى ب : « من مُملك » .

(٢) فى ب : « لأبنت » .

(٣) فى ب : « جمع ملكهم » .

تلقاه ملك الهند فى جمع عظيم ومعه ألف فيل مجففة[١] بالسلاح عليها الرجال وفى خراطيمها السيوف . فالتقوا فكانت الدَّبرة على الإسكندر ، ولم تقف دواب جنده للفيلة وولت منها هاربة . فرجع الإسكندر إلى مأمنه ثم أمر صُنَّاعه فاتخذوا له تماثيل للفيلة ، وجعل مرابط خيله فى تلك التماثيل حتى ألفتها الخيل . ثم أمر باتخاذ ألف تمثال رجل على ألف فرس من نحاس مجوفة ، ثم ألبسها الدروع وملأ أجوافها بالنفط والكبريت . وجُـرَّت على العجل فوقفت فى مواضع الوقعة ، وبين كل تمثالين منها جماعة من أصحابه . فلما نشبت الحرب واشتدت ، أمر بإشعال النار فى تلك التماثيل فحميت ، وانكشف أصحابه عنها . وغشيت الفيلة التماثيل فضربتها بخراطيمها ، فتشيَّطت خراطيمها واحترقت ، فولَّت الفيلة راجعة . وكانت الدَّبرة فى ذلك اليوم على ملك الهند .

وحُكِيَ أن ملكًا من ملوك العرب حارب عدوًّا له فهزم وخرج هاربًا والخيل تكُدُّه[٢] . فلما أرهقته نثر لها زجاجًا ملونًا شبيهًا بالجوهر الأحمر والأخضر والأصفر ، ودنانير صِفْرًا مطلية بالذهب . فتشاغل طالبوه بلقط ما طرح ، ولجأ إلى معقله .

وحُكِيَ أن أميرًا أمر بسبائك صِفْر فطليت بالذهب ، وكانت فى خزانته . وأن جنده شغبوا عليه لطلب أرزاقهم . وقد تأخر عنه بعض تدبيره فيهم ، وأبطأت عليه مواده . فلما خاف جندَه أخرج إليهم سبائك النحاس المموهة ، وقال لهم : إنا أردنا ضرب هذه السبائك دنانير لنقسمها فيكم فأنظرونا ، (فأَنظروه) حتى تهيأ له فيهم ما أراد .

---

(١) التجفاف : آلة للحرب تلبسه الفرس ، أو الإنسان لتقيه فى الحرب . وجفف الفرس ألبسها إياه . وفى الأصل « محننة » وهو خطأ فى النسخ .

(٢) تكدُّه الخيل : تلح فى طلبه .

وحُكِيَ أن الإسكندر سار فى مسيره فى الأرض ، إلى مدينة فى غاية المَنَعَة والحصانة ، فتحصن فيها أهلها ، فيئس منها لحصانتها . وتعرَّف خبرها فأُعلِم أن فيها من الميرة والعيون المتفجرة ما لا يُخاف عليه النفاد . فدسَّ تجارًا من قبله متنكرين وأمدَّهم بالمال وأمرهم بدخول المدينة على سبيل التجارة وبيع ما معهم من تجاراتهم ، وأمرهم بابتياع ما أمكنهم من الميرة والمغالاة بها . فدخل التجار المدينة بتجاراتهم وانكشف عنها الإسكندر راجعًا فأمنوه . فلم تزل تجاره يشترون منهم (الميرة ويغالون بها ، وهو يمدهم بالمال ، والقوم آمنون لبعد الإسكندر عنهم) حتى صار فى أيدى تجاره أكثر ميرة المدينة . فلما علم ذلك كتب إلى تجاره : احرقوا ما فى أيديكم من الميرة كلها ، واهربوا عن المدينة . وزحف الإسكندر إليها ولا ميرة بها إلَّا شىء يسير . فحاصرهم أيامًا قليلة فأعطوه الطاعة وفتحوا له المدينة على حكمه .

الباب الثالث

في فتح القلاع

حُكِيَ أن الإسكندر وقف على قلعة[(١)] كثيرة المِيرة ممتنعة الموضع . فانصرف عنها وشَرَّدَ مَنْ حولها من أهل الرساتيق[(٢)] ، وخرَّب قراهم ونهب أموالهم وتهددهم بالسِّباء[(٣)] . فخرجوا هاربين معتصمين بالقلعة . حتى دخلها أضعاف أهلها ، فأسرعوا فى الطعام ، ففَنِيت المِيرة فى مدة يسيرة . ثم رجع إليها لَمَّا خفت مِيرة أهلها فحاصرهم ففتحها .

وحُكِيَ أن بُغا الكبير[(٤)] ، فعل مثل ذلك بمدينة بأرمينية حتى فتحها .

ويُذكر أن عُجَيْفًا[(٥)] لما أناخ على حصن لؤلؤة[(٦)] من بلاد الروم ، والمأمون

---

(١) فى ب « مدينة » .

(٢) الرساتيق : القرى والضواحى ، ومفردها الرستاق .

(٣) السباء : السبى أى الأسر .

(٤) كان بغا من القواد الأتراك فى عهد المتوكل على الله الخليفة العباسى . وقد سيطر على شؤون الدولة فى عهد المنتصر بن المتوكل بحيث صار الخليفة ألعوبة بيد القواد الأتراك .

(٥) عُجَيْف بن عَنْبَسة : رئيس حرس المأمون وأحد قواده عندما غزا بلاد الروم غزوته الأخيرة التى توفى فيها بالقرب من مدينة طرسوس ، بعد أن استردت جيوشه حصن لؤلؤة . وبقى عجيف حتى زمن المعتصم ، فقتله لاشتراكه بمؤامرة مع العباس بن المأمون .

(٦) كان حصن لؤلؤة من القلاع المهمة على حدود الدولة البيزنطية .

إذ ذاك هناك ، دعا عُجَيْفًا أَهْلُ لؤلؤة للمناظرة ، على أن يصعد فى عشرة من أصحابه إلى نصف صُعُد[١] الحصن ، وينزل القوم إليه النصف فى عشرة ، فأجابهم عُجيف إلى ذلك ، فقيل له : إن القوم أرادوا بك سوءًا ، فنزول أصحابهم إليهم أسرع من صعود أصحابك ، فأبى وصعد إليهم . وقد كمَّنوا له فى غارٍ لهم مائة رجل . فلما أخذوا فى المناظرة ، خرج عليهم الرجال فأخذوه وأصعدوه إلى الحصن . فاستأذنهم عُجَيف فى غلامين صغيرين يحملان له طعامًا ، فأذنوا له . وعسكره مقيم على باب لؤلؤة ، وقد كتب إلى المأمون بخبره . وأمر الغلامين أن يحملا له سُمًّا كثيرًا فى دفعات ، حتى إذا اجتمع عنده ما أراد ، احتال لمصنعهم[٢] الذى يقتاتونه من مطر إلى مطر ، فطرح السُّمَّ فى الماء ، وكتب إلى المأمون يُعلمه ما صنع . فأقبل المأمون حتى أناخ بعسكره على لؤلؤة ، وشرب أهلها الماء ، فتهافتوا يموتون ، وسلموا لؤلؤة إلى المأمون .

وحُكِيَ (عن عُجَيف بن عَنْبسة) أنه قال : انتهينا إلى مدينة ممتنعة على السلطان ، عليها سور مُحكم . فأقمنا أيامًا نحارب أهلها فلم نطقهم . فقلت لصاحب جيشنا : هل لك فى رأى عندى ؟ قال : قل ، قلت : تُهادن القوم على أن يدخل قوم من أصحابك يَمتارون[٣] ، وتأذن لى فأدخل ومعى ثلاثون رجلًا ممن أختار من أهل العسكر كأنما نمتار ، فإذا قرب المساء أخذنا الباب ساعة وضاربنا عنه ، وزحفت بالعسكر فدخلت . فقال : اِفْعَلْ . فاخترت من أهل العسكر ثلاثين

---

(١) صُعُد الحصن : علوه وارتفاعه .

(٢) المصنع : حوض يُجمع فيه ماء المطر .

(٣) يمتارون : يكتالون ما يحتاجونه من الميرة .

رجالًا من أنجادهم[١] ، فكسرنا فضول أجفان سيوفنا عن نصولها ، وعلّق كل واحد منا سيفه تحت لُبّادته[٢] . ثم بعثنا إلى أهل المدينة نسألهم الإذن لنا فى الدخول للميرة ، وحلف لهم صاحب جيشنا أنه يرحل من ليلته . فأذنوا لنا فدخلنا وأمترنا ، وأبطأنا حتى دنا المغرب . وأمير جيشنا فى عسكره بالقرب منا ، وقد أظهر أنه يريد الرحيل ، وعبّى[٣] أصحابه . ثم صرنا إلى باب المدينة لنخرج ، فوثبنا على حَفَظَةِ الباب فقاتلناهم . ووافت خيلنا ورجّالتنا[٤] ، والباب مفتوح وبعضنا فى الدهليز ، وبعضنا فوقه ، فدخلوها فكان ذلك سبب فتحها .

وحُكِيَ أن قَحْطَبَة[٥] لمَّا أخذ الرى[٦] وأقبل نحو هَمَذان ، تحصن أهلها فى مدينة هَمَذان . وخرج الوالى الذى كان لبنى أمية منها وأمر صاحبَ المدينة (وأهلَها) أن لا يُفْتح الباب حتى يأتيهم أمره وخاتمه . فبلغ قحطبة ذلك ،

---

(١) أنجاد العسكر : شجعانهم ، ومفردها نَجْد وهو الشجاع السريع الإجابة إذا مادُعى .

(٢) اللُّبادة : قباء من الشعر أو الصوف يلبس وقايةً من البرد .

(٣) عبّى أصحابه : هيأهم للحرب .

(٤) فى أ « ورجالنا » .

(٥) هو قَحْطَبَة بن شبيب الطائى أحد القواد الشجعان ، وقد صحب أبا مسلم الخراسانى وناصره فى دعوته لبنى العباس فى خراسان ، وكان أحد النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم محمد بن على . وقد وجهه أبو مسلم إبان ثورته إلى حرب الأمويين فى العراق . فاشتبك قحطبة مع القائد الأموى ابن هبيرة فى معركة عند كربلا فقتل قحطبة إلا أن جيشه الذى تولى قيادته ابنه الحسن ، انتصر على ابن هبيرة ودخل الكوفة منتصراً ، فخرج أبو العباس السفاح وأعلن خلافته .

(٦) الرى : مدينة مشهورة فى التاريخ الإسلامى ، كانت تقع قرب طهران الحالية وإلى جانب جبل يشرف عليها .

فوجَّه على لسان قوم من أصحابه إلى صاحب بنى أمية ، يسألون الأمان ويذكرون مِنْ أَنَّ أمانه إن ورد عليهم صار أكثر أصحاب قَحْطَبَة إليه . وواطأ قَحْطَبة الثقات من أصحابه فشغبوا عليه وأظهروا التنكر له . فبلغ ذلك صاحب بنى أمية فأطمعه فيهم فأجابهم إلى ذلك . فقالوا : اعطنا خاتمك أماناً لنا ، فبعث بالخاتم إليهم . فزحف قحطبة إلى مدينة هَمَذان ، فأعلمهم أنه قد قتل صاحب بنى أمية وأنه قد أخذ خاتمه ووجَّه برأسه إلى خراسان . ورمى بخاتم الوالى إليهم على نشَّابة ، فلما رأوه فتحوا له المدينة .

وحُكِيَ أن عبد الملك بن صالح العباسى[١] لما غزا بلاد الروم على عهد الرشيد ، حاصر حصنًا فى بلاد الروم ، فامتنع الحصن عليه ، وانصرف يائسًا عنه . وكان فى أصحابه رجل يقال له عبيد الله المعروف بالأقطع . وكان قد مكث دهرًا فى بلاد الروم فعرف أكثرهم . وكان حاذقًا بالرومية شبيه الصورة واللِّبسة[٢] بالروم . فخرج الأقطع يسير منفردًا حتى قرب من الحصن . فرأى رجلًا من الروم على دابة له ومعه بازٌ ، فسأله الأقطع عن خبره ، فخبّره أنه القيِّم بأمر الحصن ، وأنه خرج متصيدًا عند انصراف عبد الملك ، فتساءلا ، فلم ينكره الرومى وظن أنه من بلاد الروم فأنس به .

---

(١) عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس ، أحد قواد هرون الرشيد وهو من البيت العباسى وأبوه أخو محمد بن على منظم الدعوة العباسية فى الحميمة . وقد قاد عدة حملات على الدولة البيزنطية ، وتولى قيادة الحدود (محافظة الثغور) فى حكم الرشيد ، إلا أن الرشيد أخذ يوجس منه الخروج عليه وخاصة بعد نكبة البرامكة ، فتحين الفرص عليه حتى استطاع أن يحبسه ، وبقى فى الحبس حتى توفى الرشيد . (الطبرى ٣ : ٦٧ ، والوزراء والكتاب : ٢٦٣)

(٢) اللِّبسة : حالة من حالات لبس الثياب . وفى ا : « الملبس » .

أما الأقطع فدخل على عبد الملك فقال : أصلح الله الأمير ، أرجو أن أكون قد ظفرت بالحصن ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : إذا كان فى ليلة كذا ، فوجِّه ألف فارس ليكونوا بقرب الحصن ، فإنى أرجو أن أفتحه لهم . قال عبد الملك : وكيف ذاك ؟ قال الأقطع : إن خبَّرتك الخبر ففشا لم آمن بطلانه . قال عبد الملك : فأنت وما تُدَبِّر .

فلما كان فى اليوم الذى وعد فيه صاحب الحصن للصيد ، حمل بازه وخرج للموعد ، فوافاه الرومى لموعده . فتصيَّدا وتحادثا نهارهما ، ثم سأله الرومى أن ينصرف معه إلى منزله ليبيت عنده ، فأجابه إلى ذلك . فمضيا حتى دخلا الحصن ممسيين . فقال الأقطع للرومى : إن العرب بقربك فينبغى أن تكون على حذر ، وأن تكون مفاتيح الحصن عندك . قال : هى عند بواب الحصن وهو ثقة ، قال له : فاخرج بنا حتى نطيف بالحرس[1] ويغلق الأبواب بحضرتنا . ففعل الرومى ذلك . فجعل الأقطع يقول للبواب بالرومية : احذر مكر العرب ، ويشتمهم وينتقصهم . وعرف موضع البواب ومبيته ثم انصرفا . فلما باتا ، انسلَّ الأقطع فى آخر الليل إلى بواب الحصن فحزَّ رأسه وأخذ المفاتيح ففتح الأبواب ، وتسمَّع ، فسمع خيل عبد الملك ، فخرج إليهم فأدخلهم الحصن ، فلم يعلم أهله إلَّا بالمسلمين معهم السيوف ، فأخذ الحصن واستبيح ما فيه .

---

(١) يطيف بالحرس : يدور به ليفتشه .

الباب الرابع

فى لطف التدبير فى فتح البلاد

حُكِىَ أن هَرْثَمة[1] لمّا نزل قرية يقال لها الجارية ، على فرسخين من الكوفة ، سدَّ الفرات وصرف ماءه إلى الآجام ، فانقطع ماؤه عن أهل الكوفة إلاَّ نزراً يسيراً يخرج من تحت السد . فأمر بنقل[2] أقذار العسكر وطرحها فى الماء المنسل من السد ، فامتنع على أهل الكوفة شربه . ثم جعل يركب فى أصحابه فى كل يوم (حتى يُشارف الكوفة فإذا تنادوا بالسلاح انصرف عنهم) حتى أنس أهل الكوفة بذلك . فلما علم أنه إذا أشرف عليهم لم يحفلوا به ، خرج يوماً فى أفضل عَدَده وعُدَّته وأوقع بهم . وتنادوا بالسلاح فلم يحفل به أكثرهم ، فقتل منهم قتلاً ذريعاً .

وحُكِىَ أن أهل إفريقية[3] عصَوْا فى أيام الرشيد ، فدعا جماعة من (جِلّة)

---

(١) هو هَرْثَمة بن أعْيَنْ من عظام قواد الدولة العباسية . قاد عدة حملات فى إفريقية وبلاد الروم حاز فيها انتصارات لامعة . وقد عمل فى توطيد حكم العباسيين فى إفريقية حينما عينه الرشيد والياً عليها وعند نشوب الخلاف بين الأمين والمأمون انحاز هرثمة إلى المأمون وتولى قيادة عدد من الحملات لإخضاع الخارجين عليه . إلا أن الوشاة أغروا عليه صدر المأمون وخاصة الفضل بن سهل الذى كان يبغضه . فاستدعاه المأمون إلى مَرْو فحبسه ، ثم قُتل فى الحبس سنة ٢٠٠ هـ .

(راجع عن مقتله : الوزراء والكتاب : ٣١٦ — ٣١٨) .

(٢) فى ب : « بحمل » .

(٣) إفريقية : قسَّم الجغرافيون المسلمون شمالى إفريقية إلى ثلاثة أقسام هى : =

قواده فيهم جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعى[1] ، فشاورهم . فأشار أكثرهم بالإمساك عن (أهل) إفريقية لبعد الشقة وعظيم المؤونة . وجعفر ممسك عنه . فقال الرشيد لجعفر : ما عندك فيما أشار به القوم ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن طبت نفساً بفراشك الذى تحتك فطب نفساً بافريقية ، فإن أهلها إن أُهملوا تتابع أهل الأمصار على المعصية ، حتى ينتهى ذلك إلى عصيان مَنْ فى دارك .

قال الرشيد : فما ترى ؟ قال : أرى أن توجه إليهم جيشاً كثيفاً ولا تستكثر النفقة عليه . قال (الرشيد) : فكن أنت الخارج إليها . قال جعفر : نعم ، على أن تُزاح علَّتى فيما احتاج إليه . قال الرشيد : وما تحتاج إليه ؟ قال : أحتاج إلى عشرة آلاف رجل من أهل خراسان يُعطون أرزاقهم لتمام سنة . فأمر (له)

---

١ ـ المغرب الأقصى ويشمل مراكش والريف .

٢ ـ المغرب الأوسط ويشمل الجزائر وأطرافها .

٣ ـ المغرب الأدنى ويسمونه إفريقية ، وهو القسم المحصور بين مصر والجزائر ويشمل تونس الحالية . وفى هذا القسم مدينة القيروان التى أسسها عقبة بن نافع .

ويقصدون بمدينة إفريقية مدينة القيروان . وقد ثارت إفريقية عدة مرات فى عهد الرشيد وأرسل إليها فى إحدى المرات حملة قوية بقيادة هرثمة بن أعين فوطد فيها الحكم العباسى . إلا أنها مالبثت أن ثارت بعده . وقد طلب إبراهيم بن الأغلب التميمى إلى الرشيد أن يجعله أميراً على إفريقية وأن تبقى الإمارة فى سلالته مقابل خضوعه للخليفة ودفع مبلغ من المال سنوياً ، فقبل الرشيد ذلك فظهرت إمارة الأغالبة

(١) كان جعفر بن محمد بن الأشعث من القواد المقربين للرشيد ، وقد أوكل إليه الإشراف على تربية ابنه محمد الأمين . وكان أبوه محمد بن الأشعث الخزاعى من كبار القواد فى عهد أبى جعفر المنصور ، وقد قاد حملة كبيرة إلى إفريقية وأعادها إلى حكم المنصور بعد أن خرجت عليه .

الرشيد بذلك . فخرج جعفر حتى وافى تخوم افريقية . وكان بين مدينتها وبين الماء برية تكون عشرة فراسخ لاماء فيها ، ودونها جبل فيه عين كثيرة الماء . فكان أهل افريقية كلما أتاهم جيش خلّوا له الطريق ، حتى إذا قطع هذه البرية ، خرجوا إليه وهم مستريحون ، والجيش تَعِبٌ ظمآن لاماء له فيهزمونه .

فلما وافى جعفر طرف هذه البرية ، أقام على العين التى فى طريقها وخندق على عسكره خندقاً وأدخل العين فى الخندق ، وجعل فيه المِيرة . وأمر أصحابه بإراحة دوابهم ، وإدرار أرزاقهم . وشنَّ بهم الغارات فى النواحى . وانتظر أهل افريقية أن يضجر فيقطع المفازة إليهم فتقع به المكيدة . حتى إذا جمَّ[1] أصحابه وكُراعه[2] جمع (مَنْ) فى عسكره من تجار افريقية وصُنَّاعهم وأوباشهم فقسَّمهم أقساماً ثلاثة . ثم رحل متوجهاً نحو مدينة افريقية ، وأرسل الثلث من أهلها إليها أول النهار ، فخرجوا فوافوا المدينة ليلاً ، فأعلموهم أنه قد رحل إليهم . فساروا جميعاً بالسلاح ، وخرجوا من غد ذلك اليوم . ثم أرسل الثلث الثانى ضحوة ، وقد بَعُد أهل المدينة عنها نحواً من ثلاثة فراسخ ، فأعلموهم أنه قد أقبل إليهم فتقدموا قليلاً . ثم أطلق الثلث الثالث مع الليل ، فوافوا أهل افريقية نصف النهار ، فأعلموهم أن جعفراً خلفهم ، فتقدم القوم أيضاً حتى قطعوا أكثر البرية ، ووافاهم جعفر فى جيشه وهو ريَّان مستريح ، وهم ظِماء مُتعَبون[3] ، لاماء خلفهم ولا معقل لهم . فأوقع بهم فقتل أكثرهم ، وصار إلى المدينة ولا امتناع بها ، فتلقى بالطاعة .

---

(١) جمَّ : استراح .

(٢) الكراع : اسم يطلق على الدواب من خيل وبغال وحمير .

(٣) فى ب : «متعبون مزحفون» ومزحفون : إعياء من السفر

وحُكِىَ أن ملكاً من ملوك الروم اليونانيين غزا (بلاد) افريقية ، فعبر البحر إليهم فحاصر مدينة لهم زماناً طويلاً ، فحاربوه على أبواب المدينة . وكان فى أصحاب ملك الروم رجل يقال له أرسلاوس لم يُدْرك مثله فى النجدة ، وكان قد عتب على الملك فى بعض أموره فاعتزل الحرب . وكان فى أهل مدينة افريقية رجل يقال له أقْطَر فى غاية النجدة ، وكان لايخرج إليه رجل من الروم إلاَّ قتله . فبلغ ذلك ملك الروم فاحتال على أرسلاوس بأن قال لأخ له : لو ركبت فرس أرسلاوس وخرجت إلى أقطر ، رجونا أن تقتله فتريحنا منه ، فاختدعوه . فلبس أخوه سلاحه وشُهرة[١] كان أرسلاوس يُعرف بها ، ثم خرج إلى أقطر فقتله . فقالت الروم لأرسلاوس : إن أقطر قتل أخاك . فغضب ودعا بسلاحه وفرسه ، ثم خرج إلى أقطر فبارزه فقتله أرسلاوس . ففتَّ ذلك فى عضد أهل افريقية . فقال أرسلاوس للملك : إنى لا يقنعنى من القوم بعد قتل أخى إلاَّ الاستباحة فقلدنى الرأى ، فقلده الملك ذلك . فأمر الصُنَّاع فعملوا مِثال فرس عظيم أجوف ، ثم نقشوه بالذهب وفصصوه بألوان الحجارة ، وجعلوا مقدار ما يسع جوفه مائة رجل ، وجعل له عَجَلاً يُجَرُّ عليها وباباً يدخل منه الرجال خَفِيًّا . ثم قال أرسلاوس للملك : ارسل إلى أهل المدينة بقول يطمئنون إليه ولا يوجب عليك عذراً ، ثم انكشف عنهم وأوهمهم أنك راجع إلى بلدك ، وتَنَحَّ بمراكبك حتى تغيب عنهم فى البحر ، فإذا جَنَّ الليل فارجع فى نفر من أشد أصحابك فى أسرع سير حتى توافى القوم فى السحر . وخَلِّف هذا الفرس فإنى أرجو أن أدخله فى مائة رجل من ثقاتك .

فراسل الملك أهل المدينة ، فأحبوا[٢] الصلح فأطمعهم فيه ، وقبل منهم شيئاً أهدوه له ، وقال لهم : إنى كنت معتزماً على أن لا أبرح حتى أخرب

(١) الشهرة : علامة يشتهر بها الفارس .

(٢) فى ب « فأجابوا للصلح » .

مدينتكم ، واتخذت هذا الفرس لأجعله مكان أصنامنا فى بلادنا ، وحمله معى لا يمكن ، فاحتفظوا به لنا . فدخل فى الفرس أرسلاوس ومعه مائة رجل من أنجاد الروم . فلما انكشف ملك الروم عن المدينة فغيَّب فى البحر ، خرج أهل المدينة يطيفون بالفرس ويتعجبون منه . ثم جروه على عجلة ليدخلوه المدينة فضاق الباب عنه . فوُسِّع الباب له حتى دخل الفرس على عجلة . ثم أطافوا به يشربون حوله الخمر ولا يرون فيه أثر مدخل ، حتى دجا عليهم الليل وأسرعت[1] فيهم الخمر .

فلما جاء السحر وتفرق القوم من بين سكران وآمن ، سرى نحوهم ملك الروم فى مراكب خفيفة وفيها أنجاد عسكره . فوافاهم فى السحر وباب المدينة مقلوع . وخرج عليهم أرسلاوس ومَنْ معه من جوف الفرس يضربون بالسيوف ، فشغلوهم عن حفظ الباب ، ودخل ملك الروم المدينة فاستباحها[2] .

(١) فى ا : « فأشرعت » .

(٢) فى هذه القصة شبه كبير من قصة فتح طروادة :

الباب الخامس

في لطف التدبير في عقد مُلك

يُروى أن أمير المؤمنين علياً رضوان الله عليه ، لما بويع بالخلافة ، دخل عليه المغيرة بن شعبة[1] فقال له : يا أمير المؤمنين : إنه ليس على الأرض أحد أخوف على الفساد من معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهل الشام ، وهم فى كثرتهم وكثرة خيلهم كما قد علمت ، فوجِّه إلى معاوية بكتاب تُقِرُّه فيه على عمله ، حتى يأخذ لك البيعة على نفسه ومَنْ قِبَلَه ، ثم تستزيره فى الموسم ، فإذا صار إليك حبسته قِبَلَك ووليت غيره . فقال رضى الله عنه : لا يسألنى الله عن إقرار معاوية يحكم فى دماء المسلمين وأموالهم « وما كنت مُتَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً »[2] . فخرج المغيرة من عند علىّ ، ثم رجع إليه من عشى يومه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت قد عزمت على عزل معاوية فبادره قبل أن يدبِّر ما يريد . فدخل عبد الله بن العباس على علىّ رضوان الله عليه ، فخبَّره بما قال المغيرة بالغداة وبالعشي . فقال : أما بالغداة فنصحك وأما بالعشي فغشَّك .

---

(١) المغيرة بن شعبة : صحابى من بنى ثقيف ، كان من دهاة قومه وقادتهم . وقد شهد المعارك الفاصلة فى الفتح الإسلامى كاليرموك والقادسية ، ولاه عمر بن الخطاب البصرة ثم الكوفة وأقره عثمان عليها . ثم استخدمه معاوية فى ولاية الكوفة بعد أن استماله إليه ، ولم يزل فيها حتى مات سنة (٥٠) للهجرة . وكان المغيرة ممن شجعوا معاوية على استخلافه ابنه يزيد (وفيات الأعيان ٥ : ٤٠٦ – ٤٠٩)

(٢) سورة الكهف ، الآية (٥٠) .

ووجّه عليه السلام عاملاً[١] إلى الشام ، وكتب إلى معاوية بعزله . فلما ورد العامل على معاوية وجد قميص عثمان رضى الله عنه مضمخاً بدمه على رمح ، ويد امرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة[٢] ، وكانت أرادت أن تستر عثمان فضُربت يدها فقُطعت . وتحت الرمح أكثر من ثلاثين ألف رجل من أهل الشام ، يبكون ويحلفون أن يطالبوا قَتَلَةَ عثمان حيث كانوا . فأخذ معاوية كتاب علىّ رضى الله عنه فمزقه ، وبعث إليه بكتاب مختوم لا شىء فيه ، فرجع الرسول بذلك . فأنشأ المغيرة يقول :

نصحت علياً فى ابن حرب نصيحة ... فردَّ فما مِنِّى له الدهر ثانيه
وقلت له ارسل إليه بعُهدةٍ ... على الشام حتى يستقر معاويه
ويعلم أهل الشام أن قد مَلَّكته ... وأم ابن حرب عند ذلك هاويه
فلم يقبل النصح الذى جئته به ... وكانت له تلك النصيحة كافيه
وقالوا له ما أرخصَ النصحَ عندنا ... فقلت لهم إن النصيحة غاليه

---

(١) بعث الإمام على جرير بن عبد الله البجلى ، وكان جرير والياً على همذان ، إلى معاوية يدعوه إلى الدخول فى طاعته ، فامتنع معاوية ، ورجع جرير إلى على فأعلمه بما رأى (راجع : الطبرى ٥ : ٢٣٥)

(٢) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبى ، كانت خطيبة شاعرة من ذوات الرأى والشجاعة وقد ألقت بنفسها على عثمان عندما ضربه أحد الثوار ، وأمسكت بالسيف لترد الضربة عنه فقطعت بعض أصابعها . ولما قتل عثمان خرجت إلى المسجد تستغيث وخطبت خطبة طويلة ، ثم كتبت إلى معاوية فى الشام تصف قتل عثمان ، وأرسلت إليه بقميصه المضرج بدمه وأصابعها المقطوعة ، تستنفره للأخذ بثأره (الأعلام ٨ : ٣٠٣ — ٣٠٤ . وبلاغات النساء : ٧٠ — ٧١) .

وحدَّث المدائنى[١] عن مسامة قال : لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد كتب إلى زياد[٢] يستشيره . فبعث زياد إلى عُبَيْد بن كعب النميرى ، فقال : إن لكل مستشار ثقة ، ولكل سرّ مستودعاً ، فإن الناس قد أبدعت بهم خصلتان : إضاعة[٣] السر، وإخداع[٤] النصيحة . وليس موضع السر إلاَّ أحد رجلين : رجل آخرة يرجو ثواب الله ، أو رجل دنيا شريف عاقل يصون حسبه وعقله[٥] وقد عجمتهما[٦] منك فأحمدت الذى قِبَلَك ، فدعوتك لأمر اتهمت[٧] عليه بطون الصحف . إنَّ أمير المؤمنين كتب إلىَّ يزعم أنه قد أجمع

(١) هو على بن محمد بن عبد الله ، راوية ومؤرخ بصرى ، سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد . وله تصانيف عديدة فى السيرة النبوية وأخبار النساء وتاريخ الخلفاء والفتوحات وأخبار الجاهليين . توفى فى سنة ٢٢٥ هـ .

(٢) هو زياد بن أبيه، ويعتبر من أدهى رجال عصره. وقد اشتهر بكفاءته فى الإدارة والسياسة وبمقدرته الخطابية . أمه جارية اسمها سُمَيَّة وأبوه غير معروف ويُشك فى أنه أبو سفيان . وكان زياد من أتباع الإمام علىّ وقد ولاه خراسان . وقد استطاع معاوية بعد قتل الإمام على ، أن يستميله إليه فألحقه بأبى سفيان ـ أى جعله أخاً له ـ فوجد زياد أن التحاقه بمعاوية يعود عليه بالنفع ، وخاصة بعد أن تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية . وقد لعب زياد دوراً خطيراً فى العراق حينما ولى حكم الكوفة والبصرة ، وقد تميزت إدارته بالصرامة والحزم .

(راجع عن استلحاق زياد بأبى سفيان : وفيات الأعيان ٥ : ٣٩٧ ـ ٤٠٦)

(٣) فى الطبرى « إذاعة » . وإضاعة السر إفشاؤه وعدم الحرص عليه ، وكذلك إذاعته .

(٤) إخداع النصيحة : إخفاؤها وعدم بذلها . وفى الطبرى « إخراج النصيحة إلى غير أهلها » .

(٥) فى الطبرى : « ورجل دنيا له شرف فى نفسه وعقل يصون حسبه » .

(٦) عجم الأمر : خبره وجرَّبه . وفى الطبرى « وقد خبرتهما عنك » .

(٧) اتهمت عليه بطون الصحف : لم آمنها عليه .

على بيعة يزيد ، وهو يتخوّف نفرة النـاس ويرجو مطابقتهم[١] . وقد كتب يستشيرنى ، وعِلاقة أمر الإسلام[٢] وضمانه شديد . ويزيد صاحب رَسْلَةٍ[٣] وتهاون مع ما أولع به من الصيـد . فالقَ أمير المؤمنين مؤدياً عنى ، فأخبِره عن فَعَلات يزيد ، وقل رويدك بالأمر يستتم لك ، فإنه قَمِن[٤] أن يتم لك ما تريد ، ولا تعجل فإن دَرْكاً[٥] فى تأخيرٍ خـيرٌ من تعجيلٍ عاقبته الفَوْت .

قال عُبَيد : فهلاَّ غير هذا ؟ قال : ما هو ؟ قال : لا تفسِدْ على معاوية رأيه ، ولا تمقت إليه ابنه . وألقَ يزيدَ سرًّا من معاوية ، فأخبره عنك إن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى بيعته وإنك تخوّفت خِلاف الناس لِهَناتٍ ينقمونها منه ، وانك ترى له ترْكَ ما يُنقَم عليه . فتستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ، ويسهل لك ما تريد[٦] . وتـكتب إلى أمير المؤمنين بما أجبت ممـا لا ينـكر الـكتاب به . فتـكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين ، وسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة .

قال زياد : رميت الأمر بحجره[٧] ، أشخِص على بركة الله ، فإن أصبت

---

(١) المطابقة : الموافقة . وفى الطبرى « يرجو طاعتهم » .

(٢) علاقة أمر الإسلام : شؤونه وارتباطاته .

(٣) صاحب رَسْلَةٍ : صاحب كسل ولين .

(٤) قَمِنٌ : لابد ، جدير .

(٥) الدَرْك : إدراك الحاجة أى بلوغها .

(٦) فى ب : وتسهل له مايريد .

(٧) رمى الأمر بحجره : مثل يقال لمن يصيب الهدف ـ وفى ا : « بجحوده » . وجاء فى مجمع الأمثال : ١ : ٢٨٧ : إنه يعنى بقرن الأمر بمثله فى الصلابة والصعوبة ، وجعل الحجرمثلاً للقرن ، لأن الحجر يختلف باختلاف المرمىّ .

فما لا ينكر ، وإن يكن خطأ فغير مستعثر[١] ، وأبعد بك إن شاء الله تعالى من الخطأ . قال : (نقول) بما نرى ويقضى الله بغيب ما يعلم ، فقدم على يزيد فذاكره ذلك . وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتؤدة وأن لا يعجل ، فقبل ذلك معاوية ، وكفَّ يزيد عن كثير مما كان يصنع . وقدم عُبيد على زياد فأقطعه « قطيعة »[٢] .

وحدَّث ابن عياش[٣] قال : أراد الوليد بن عبد الملك أن يبايع لابنه عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك ، فأبى ذلك سليمان وامتنع منه . فقيل للوليد يا أمير المؤمنين : لو أمرت راجزاً يُرَجِّز وهو معك لعله يُقِرُّ بشىء فنشهد به عليه . فدعا الأُقَيْبِل القَيْنى[٤] فقال له : رَجِّز بذلك شعراً يسمعه سليمان . قال : فدعا الوليد سليمان يوماً فسايره ، وسار الأُقَيْبِل خلف القوم ، ثم رفع صوته فقال :

إنَّ وَلِيَّ عهده ابْنُ أُمِّهِ ثم ابنه وَلِىُّ عهد عمه
قد رضى الناس به فسمه فهو يضم الملك فى مَضَمِّه[٥]
يا ليتها قد خرجت من فمه حتى يعود الملك فى إضطمه[٦]

---

(١) خطأ غير مستعثر ، أى غير مقصود .

(٢) اقطعه جعل له رزقاً . وتعنى هنا أنه أكرمه . وسقطت فى الأصل كلمة قطيعة وقد وردت فى الطبرى فأثبتناها . (الطبرى ٦ : ١٦٩ — ١٧٠) .

(٣) هو إسماعيل بن عياش بن سليم العنسى ، عالم الشام ومحدثها . رحل إلى العراق وعمل فى خدمة المنصور . توفى سنة ١٨٢ هـ .

(٤) الأقيبل القينى بن نبهان من بنى القين من قضاعة ، شاعر إسلامى اشتهر فى صدر الدولة الأموية . وقد هجا الحجاج مرة فطلبه ليقتله فهرب إلى عبد الملك ابن مروان واستجار به ، وكتب إلى الحجاج ألا يعرض له .

(٥) المضم : مايضم به شىء إلى شىء .

(٦) الإضطم : المضم . واضطمه : ضمه إليه واشتمل عليه .

قال : فالتفت إليه سليمان فقال : يا ابن الخبيثة ، من رضى بهذا ، لا أمَّ لك ؟.

وحدَّث المدائنى عن مبارك بن فضالة ، قال : دخل الأحنف بن قيس[1] على معاوية حين أراد البيعة ليزيد ، فتكلم الناس ؛ فبلغ الكلام رجلًا منهم ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لئن لم تعقد العهد لتلقَيَنَّ الله مضيعًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . وأقبل معاوية على الأحنف فسارَّه ، فقال مالك : لا تتكلم فى هذا الأمر يا أبا بحر ؟ فقال : نخافكم إن صدقناكم ونخاف الله إن كذبناكم . فقال معاوية : جزاك الله خيراً يا أبا بحر عن السمع والطاعة ، احملوا إلى منزله خمسين ألف درهم . فقام الناس لا يشكُّون أنَّه بايع .

وحدَّث الهيثم بن عدى[2] ، عن مجالد[3] ، عن الشعبى[4] ، قال : حدثنى

---

(١) الأحنف بن قيس : سيد تميم وأحد الفصحاء الشجعان . يضرب به المثل فى الحلم والدهاء ، كان يحتكم إليه فى الخلافات ويؤخذ بأحكامه. وفد على عمر بن الخطاب فى المدينة وساهم فى الفتوحات فى خراسان ، وشهد صفين مع الإمام على. وكان معاوية يخشاه ويحاول ترضيته . وقد التحق بمصعب بن الزبير لما دخل الكوفة، وتوفى فى سنة ٧٢ هـ . (وفيات الأعيان ١ : ١١٨٦ — ١٩٤) .

(٢) الهيثم بن عدى الطائى : مؤرخ عالم بالأنساب ، إلا أنه لم يكن ثقة فى رواية الحديث . أقام بالكوفة مدة طويلة وجالس من خلفاء بنى العباس المنصور والمهدى والهادى والرشيد . وله تآليف عديدة فى أنساب العرب وبيوتاتها ، وفى اللغة والأدب والتاريخ . وكان يتعرض لمعرفة أصول الناس ونقل أخبارهم وإظهار ما هو مستور من معايبهم . (وفيات الأعيان ٥ : ١٥٧-١٦٥) .

(٣) هو مجالد بن سعيد الهمدانى من رواة الحديث والأخبار . وهو من أهل الكوفة . توفى بواسط فى أواسط القرن الثانى للهجرة

(٤) الشعبى : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى . راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه . ولد وعاش فى الكوفة . كان نديماً لعبد الملك بن مروان . وعمل قاضياً لعمر بن عبد العزيز ، ويعتبر من رجال الحديث الثقات ، سمى الشعبى نسبة إلى شَعْب بطن من همدان . (وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٧ — ٢٢٩) .

الربيع بن هديم الخزاعى ، قال : كَتَبَ المغيرة بن شعبة إلى معاوية حيث كبر وخاف العزل . أما بعد ، فإنه كبرت سنى ورقَّ عظمى واقترب أجلى ، وسفهنى سفهاء قريش ، فرأىُ أمير المؤمنين موفق[١] . فكتب إليه معاوية : أَمَّا ما ذكرت من كبر سنك فأنت أكلت عمرك ، وأَمَّا ما ذكرت من اقتراب أجلك فإنى لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل (أبى) سفيان ، وأَمَّا ما ذكرت من سفهاء قريش فإن حلماء قريش أنزلوك هذا المنزل ، وأَمَّا ما ذكرت من العمل فَضَحِّ رُوَيدًا تُدْرِكْ[٢] . فاستأذن معاوية فى القدوم فأذن له .

قال الربيع : فخرج المغيرة وخرجنا معه إلى معاوية . فقال له معاوية : يامغيرة ، كبرت سنُّك واقترب أجلك ولم يبق منك شىء ، ولا أظننى إلا مستبدلًا بك ، قال : فانصرف إلينا ونحن نعرف الكآبة فى وجهه ، قال : قلنا : مالَكَ ؟ قال : (قال لى) كذا وكذا ، قلنا : فما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذاك . فأتى معاوية فقال : ياأمير المؤمنين ، إن الأنفس يُغدَى عليها ويُراح ، ولست فى زمن أبى بكر ولا عمر ، وقد احترج[٣] الناس ، فلو نصبت لنا علماً من بعدك نصير إليه ، مع أنى كنت دعوت أهل العراق إلى يزيد ، فقال : ياأبا محمد ، انصرف إلى عملك وَأَحْكِم هذا الأمر لابن أخيك . فأقبلنا

---

(١) فى ب : « فرأى أمير المؤمنين فى عمله موفق » .

(٢) مثل معناه لا تعجل الأمر وتأن به . وكان العرب يسيرون فى البادية فإذا مروا ببقعة فيها كلأ وعشب ، قال قائلهم : ألا ضحوا رويداً ، أى ارفقوا بالإبل حتى تتضحى ، أى تتناول غداءها فى الضحى .

وفى « مجمع الأمثال ١ : ٤١٩ » إنه أمره من التضحية ، أى لاتعجل فى ذبحها. ثم استعير فى النهى عن العجلة فى الأمر .

(٣) احترج الناس : وقعوا فى الحرج من جراء خلافاتهم .

على البريد[١] تركض ، فقال : يا ربيع ، وضعت والله رجله فى ركاب طويل الغىّ (على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينزعها عنــه إلى يوم القيامة) ، ووالله ما يلى الخلافة بعده إلَّا ابن أو أخ أو قريب . وبطلت الشورىٰ أبدًا ، قال : فذلك الذى دعا معاوية إلى البيعة ليزيد[٢] .

وحدَّث عمرو بن واقد الدمشقى قال : كان فى الزمن الأول ملك له سبعة وزراء ، وهم قوّاده وعمَّاله على جميع مملــكته . وكان يجلس لهم يومًا من السنة يأمرهم فيه بما أراد ، ويتغدون معه . وكان قد سنَّ عليهم أن يقترعوا فى ذلك اليوم ؛ فأيهم أصابته القرعة[٣] ذبح ولدًا من أولاده وشواه وقدَّمه على الخوان . فإذا رآه الملك قال : على مَنْ كانت النوبة ؟ فيقال : على فلان . فيأمر (به) فيرفع ، فمــكثوا بذلك دهرًا حتى أَضَرَّ بأولادهم . وكان فى السبعة رجل سديد العقل ، فأتى رجلًا منهم لم يكن له إلَّا ابن صغير ، فخلا به ثم قال : أخبرنى إن أصابتك القرعة غدًا ، أَليس تثكل واحدك ؟ قال : فما أصنع ؟ قال : فأنا رسول جميع أصحابك إليك ، وقد تعاهدوا جميعًا سواك ، على الامتناع من هذه السُّنَّة التى أثكلتنا أولادنا ونغَّصت علينا عيشنا ، وليس للملك فى ذلك منفعة ، قال : وقد أجمع رأيكم على هذا غيرى ؟ قال : نعم . قال : فأنا أسرعكم إليه وأحرصكم عليه لتخوفى على واحدى ؛ فاستحلفه حتى استوثق منه .

ثم دار[٤] إلى آخر ، فقال له : إنا قد اجتمعنا على الامتناع من هذه السُّنَّة التى قد أفنت أولادنا وأهلــكتنا ولم يبقَ غيرك ، قال : فإنى أُبايعكم ، فاستحلفه

---

(١) يقصد خيل البريد .

(٢) ورد نص هذه القصة مع بعض التغيير فى العقد الفريد ١ : ٩٧ .

(٣) فى ب : « وقعت عليه القرعة » .

(٤) فى ب : « أتى » .

حتى استوثق منه . ثم دار عليهم واحدًا فواحدًا ، حتى أجمعوا على رفض تلك السُّنَّة .

فلما كان ذلك اليوم ، حضروا عنـد[1] الملك وفرغوا من غدائهم ، ولم يأتوه بالصبي المشوى ، فقال الملك : عَلَى مَنْ كانت النوبة ؟ قالوا : دَعْ عنك هذا ؛ فإنا قد اجتمعنا على رفض هذه السُّنَّة التى لا تنفعك ، وقد أضَرَّت بنا وأثكلتنا أولادنا ، قال الملك : فعزمت عليكم ، أيكم البادىء بهذا ؟ فأخبروه . فأخذ التاج عن رأسه ووضعه على رأس ذلك الرجل ، وقال لهم : يا مجانين ، إنما كنت أمتحنكم ، هل فيكم أحد ينكر المنكر ؟ فلم يكن غير هذا ! وقد كبرت سنى ودنا أجلى ، ولست أرى أحدًا أولى بالملك منـــه ؛ فاسمعوا له وأطيعوا (فقد) ملَّكته عليكم .

(١) فى ب : « غداء » .

الباب السادس

في كسر العساكر بقوة الرأي لا بقوة المكاثرة

حُكِيَ أن كسرى أبرويز[1] ، وجّه رجلاً من جِلّة أصحابه فى جيش جرار إلى بلد الروم ، فنكى فيهم[2] وبلغ منهم ، وفتح الشامات وبلغ الدرب[3] فى آثارهم[4] . وعظم أمره وقوى سلطانه . فخافه أبرويز ولم يأمنه على ما بلغ وقاق من أجله . فكتب إليه كتابين ، أحدهما يأمره فيه أن يستخلف على جيشه من يثق به ويُقبل إليه ، والكتاب الثانى يأمره فيه بأن يقيم بموضعه فانه أدار الرأى فلم يجد لموضعه سادًّا غيره ، ولم يأمن الخلل بغيبته .

وأرسل بالكتابين رسولاً من ثقاته وقال له : اوصل الكتاب الأول بالأمر بالقدوم ، فان خفَّ[5] لذلك فهو ما أردت ، وإن كره الكتاب وتثاقل عن الطاعة فاسكت أياماً ، ثم أعلمه أن الثانى ورد عليك ، وأوصله إليه ليقيم بموضعه . فخرج رسول كسرى حتى ورد على صاحب الجيش ببلاد الشام ، فأوصل الكتاب إليه . فلما قرأه ، قال : إما أن يكون كسرى قد تغيّر لى وكره موضعى ، وإما أن يكون قد اختلط عقله ، يصرف مثلى وأنا فى بحر العدو ،

---

(١) هو كسرى الثانى ولقبه أبرويز ، أى « المظفر » .

(٢) نكى فيهم : قهرهم فى الحرب جرحاً وقتلا .

(٣) الدرب : مدخل بلاد الروم من جبال طوروس .

(٤) فى ب : « فى ديارهم » .

(٥) فى ا : « لف » .

فيوهي جيشه لأمر لا يقوم فيه غيرى مقامى ، ودعا أصحابه فقرأ الـكتاب عليهم فأنـكروه .

فلما كان بعد ثلاثة أيام ، أوصل الرسول إليه الـكتاب الثانى بالمقام، وأوهمه أن رسولاً ورد به عليه . فلما قرأه قال : هذا تخليط ، ولم يقع منه . ودسَّ إلى ملك الروم من ناظره فى إيقاع الصلح بينه وبينه ، على أن يخلِّى الطريق لملك الروم حتى يدخل بلاد العراق على غِرَّة من كسرى ، وعلى أن لملك الروم ما تغلب عليه من دون العراق ، وللفارسى ما وراء ذلك (إلى بلاد فارس) ، فأجابه ملك الروم إلى ما طلب . وتنحَّى الفارسى عنه فى ناحية من الجزيرة[١] وأخذ أفواه الطرق[٢] .

فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم عليـه من ناحية قرقيسياء[٣] ، وكسرى غير مُعِدٍّ وجنده متفرق فى أعماله . فوثب من سريره وقال : هذا وقت حيلة ، ليس هذا وقت شدة . وجعل ينـكت[٤] فى الأرض ملياً . ثم دعا برقٍّ فـكتب فيه كتاباً بخط دقيق إلى صاحبه بالجزيرة يقول فيه : قد علمت ما كنت أمرتك به من مواصلة صاحب الروم وإطماعه فى نفسك وتخلية الطريق له ، حتى إذا تولج فى بلادنا أخذتُه من أمامه وأخذتَه أنت من خلفه ، لما أملت فى ذلك من بواره . وقد تمَّ عليه ما دبرت ، وميعادك فى الإيقاع به يوم كذا وكذا . ثم دعا راهباً فى دير بجانب مدينته ، فقال : أَىُّ جار كنت لك ؟ قال الراهب : أكرم جار . قال : لى حاجة إليك . قال : الملك أَجَلُّ من أن تـكون

---

(١) الجزيرة : أرض مابين النهرين شمالى العراق .

(٢) أفواه الطرق : مداخلها .

(٣) قرقيسياء : مدينة كانت عند ملتقى الخابور بنهر الفرات على تخوم مابين العراق والشام .

(٤) ينكت فى الأرض : يحفر فيها بقضيب أو باصبعه عند التفكير .

له حاجة إلى مثلى ، ولكن عندى بذل نفسى فى الذى يأمر به الملك . قال كسرى : تحمل كتاباً إلى فلان صاحبى ؟ قال : نعم . قال كسرى : فاخفِه فإن الروم على طريقك . قال : نعم . فلما ولَّى عنه الراهب ، قال له كسرى : أَعلمت ما فى الكتاب ؟ قال : لا . قال : فلا تحمله حتى تعلم ما فيه . فلما قرأه عليه أدخله فى جيبه ومضى . فلما صار فى عسكر الروم ونظر إلى الصابان والقسيسين احترق لهم مما خاف أن يقع بهم ، وجعل يصيح : أنا لم يحملنى كسرى رسالة ولا معى له كتاب . فأُخذ فوُجد الكتاب معه .

وكان كسرى وجَّه رسولاً اختصر الطريق ، حتى مرَّ بعسكر الروم كأنه رسول إلى كسرى من صاحبه ، ومعه كتاب فيه : إن الملك كان قد أمرنى بمقاربة ملك الروم واختداعه وتخلية الطريق له ، ليأخذه من أمامه وآخذه من خلفه ، وقد فعلت ذلك . فرأى (الملك فى) إعلامى وقت خروجه إليه . وأخذ ملكُ الروم الرسولَ وقرأ الكتاب فقال : قد عجبت أن يكون هذا الفارسى أدهن[1] على كسرى . ووافاه أبرويز فيما أمكنه من جنده ، فوجد ملك الروم قد ولَّى هارباً ، فاتَّبعه يقتل ويأسر مَنْ أدرك . وبلغ صاحب كسرى هزيمة ملك الروم ، فأحب أن يخلِّى عن نفسه ويستر ذنبه ، لمَّا فاته ما دبَّر على كسرى . فخرج إلى الروم الهاربين فلم يسلم منهم إلاَّ القليل .

وحُكِىَ أن عَبْساً دخلت وهى فى معاورة[2] فَزارة فى حرب داحس

---

(١) أدهن عليه : أى غش وأظهر مالا يبطن .

(٢) المعاورة : المداولة والمطاولة .

والغـبراء[١] ، فى شِعْب[٢] لا منفذ له ، ونَذِرَت[٣] بهم فَزارة ، فأتت باب الشِعب فأخذته عليهم . فعطَّشت بنو عبس إبلهم ، حتى إذا بلغ العطش منها ، خرجت عبس فناشبت فَزارة الحرب ، ثم أرسلت عبس الإبل وصيَّحت بها من خلفها . فخرجت الإبل لشدة العطش وقد تذكرت مشاربها ، لا يردُّها شيء . ففرقت جمع فَزارة وكشفتهم وهدَّت جيشهم ، واتبعت عبس الإبل ، فـكانت الهزيمة على فَزارة[٤] .

وحُـكِىَ أن عبساً لمـا علمت يوم الهباءة[٥] أن الجيش قد سار إليهم ، وأنه لا قوة بهم عليه ، أتوا الربيع بن زياد العبسى[٦] فقالوا له : إنك تقول إنه لم يرد عليك أمر إلاَّ عرفت المخرج منه ، فما المخرج من جيش بنى بدر ؟ قال الربيع : إذا شارفـكم القوم فقدِّموا الحُرُم[٧] وانـكشفوا عن النَّعَم[٨] ، فإذا شغلهم

---

(١) حرب داحس والغبراء : من أيام العرب المشهورة فى الجاهلية ، قامت بين قبيلتى عبس وذبيان . وكانت الحرب سجالا بينهما ، انتهت بصلح بين الطرفين . وداحس والغبراء : اسما فرسين لقيس بن زهير سيد عبس قامت الحرب بسببهما .

(٢) الشعب : الطريق الضيق . وقد التجأت عبس إلى شعب جبلة ، ولهذا عرفت هذه الواقعة بيوم جبلة .

(٣) نذرت : علمت .

(٤) راجع تفصيلات هذه الحرب بين عبس وفزارة فى « أيام العرب فى الجاهلية ص ٣٤٩ — ٣٦٤ » .

(٥) اشتملت حرب داحس والغبراء على عدة أيام مشهورة ، منها يوم الهباءة .

(٦) الربيع بن زياد العبسى : أحد دهاة العرب وشجعانهم فى الجاهلية ، من رؤساء عبس ، وقد اشترك فى حروب داحس والغبراء ، وكان يسمى « الـكامل » لرجاحة عقله . اتصل بالنعمان بن المنذر فى الحيرة ونادمه ، توفى سنة ٣٠ قبل الهجرة

(٧) الحرم : النساء .

(٨) النعم : واحد الأنعام وهى المال الراعية وأكثر مايطلق هذا على الإبل .

النهب ، فـكرُّوا عليهم . ففعلت عبس ذلك . فتشاغلت بنو فَزارة بالنهب ، وكرَّت بنو عبس عليهم فهزمتهم ، ومضوا متفرقين . فلحقت بنو عبس بنى بدر بمـاء يقال له الهَباءة ، فقتلت « حذيفة وحَمَل » ابنى بدر . وفيه قيل[١] :

تَعَلَّم أنَّ خـيرَ النـاس مَيْتٌ   على جَفْر الهبـاءة لا يريم

وحُـكِىَ أن طاهر بن الحسين[٢] لمـا قرب جائياً من خراسان لمحاربة علىّ ابن عيسى بن ماهان[٣] ، وطاهر من قِبَل المأمون وعلىّ من قِبَل محمد الأمين . حبس طاهر جمالاً مقبلة من خراسان عليها التجارات ، فلما شارف طاهر عليًّا ، جعل الجمال وسواد عسكره على الروابى وأعطاهم الأعلام ، ودلف إلى علىّ بأصحابه . فلما نظر علىّ إلى تلك الجمال والأعلام ، ظن أنها عسكر متفوقة عليهم فانهزم ، وقتل علىّ بن عيسى .

---

(١) كان قائد بنى بدر فى يوم الهباءة حذيفة بن بدر وقد قتل فى ذلك اليوم هو وأخوه حمل . فرثاه قيس بن زهير سيد عبس بأبيات مطلعها هذا البيت . وقدسقطت كلمتا « حذيفة وحمل » فى النسخ .

راجع عن حروب داحس والغبراء ويوم الهباءة : (أيام العرب فى الجاهلية ص ٢٤٦ – ٢٧٧)

(٢) طاهر بن الحسين : من كبار قواد الدولة العباسية وأبوه الحسين من رجال الرشيد ،كان طاهر مع المأمون عندما ولى الأمين الخلافة ، فأرسله للزحف على بغداد ومحاربة الأمين ، فهاجمها وقتل الأمين وأخذ البيعة للمأمون . وتولى بعد ذلك ولاية خراسان ، وخرج فى أواخر أيامه على المأمون . (وفيات الأعيان ٢ : ٢٠١ – ٢٠٦) .

(٣) على بن عيسى بن ماهان ، القائد الذى سيره الأمين لحرب المأمون وانتزاع مابيده من بلاد فارس ، فما كاد جيشه يصل مدينة الرى حتى قابلته جيوش طاهر =

وحُكِىَ أن غزياً[١] من العرب ، أغزاه[٢] سعد بن أبى وقاص بعد فتح القادسية ، فخرج جماعة من العرب بنسائهم ، فلما رأوا عدوهم من العجم خلَّفوا النساء والسواد ودلفوا إلى عدوهم ، فاشتدت الحرب بينهم . فلما رأى النساء ذلك عقدن خُمُرَهن على العيدان وأقبلن نحو رجالهن فلما رآهن العجم من بعيد ، ظنوا أن جيشاً ثانياً قد أتى مدداً (للعرب) فانهزمت العجم .

وذُكر أن جيشاً من قبل السلطان خرج إلى ناحية طبرستان[٣] ، فلما دنا الجيش منها ، علم صاحب الناحية أنه لامنزل للجيش إلاَّ فى غيضة بقرب جبل وعر . فأمر الطبرى بشجر الغيضة فقُطع وأُقيم كما كان وسُند بالتراب ، وغطِّى موضع القطع حتى خفى على الجند . وجاء العسكر فنزل الغيضة ، واستخفى الطبرى وأصحابه فى الجبل ، وشدَّ الجند دوابهم فى الشجر . فلما كان الليل صيَّح الطبرى بالجند ، فنفرت الدواب وتساقطت الشجر ، فجرتها الدواب يقتل بعضها بعضاً ، وخرج الجند فزعين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وتبعهم الطبرى يقتل ويأسر .

وحُكِىَ أن ملكاً من ملوك الأعاجم ، وجَّه رجلاً من جِلِّة قواده فى جيش إلى ملك الروم نحاربه ، فأجلاه الفارسى عن أكثر بلاده حتى فتح أنطاكية وما جاورها . فأوغل فى بلاد الروم واحتوى على مملكتها ، فجمع ملك الروم رؤساءهم فشاورهم ، فأشاروا عليه بأمور مختلفة . حتى انفرد له رجل من

= ابن الحسين فنشبت بينهما معركة ضارية انتهت بقتل على بن عيسى واندحار جيشه . وكان انكسار جيش على بن عيسى إيذانا بزوال حكم الأمين وانتصار المأمون .

(١) الغزى : اسم الجمع للغازى

(٢) أغزاه : حمله على الغزو .

(٣) طبرستان : الأقليم المتدجنوب بحر قزوين الذى كان يعرف ببحر طبرستان .

أهل المملكة ، ولم يكن من أبناء الملوك . فقال : إن عندى رأياً أُشير به . فإن رزق الله الملكَ الظفر فمالى عنده ؟ فقال الملك : سل حاجتك . قال تجعلنى الملكَ بعدك ؟ قال : نعم . قال : فوثِّق لى بذلك . قال فوثَّق له به . قال الرومى للملك : إن الفرس قد طمعت فى ملكنا وبلدنا فلم يبق منهم نجدٌ إلاَّ وجهوه فى وجوهنا ، وقد ضعفنا عنهم . وقد حملوا ذراريهم إلى الشام والجزيرة . وإنى أرى أن تأذن لى ، فأنتخب من عسكرك خمسة آلاف رجل ، ثم أحملهم فى البحر ودوابهم وأموالهم . وأوكِّل بمضايق الطريق وصعب النقاب[1] ، رجالاً من أصحابى من أهل البأس والنجدة . فإنَّ خبرى إذا بلغهم فتَّ فى عَضُدِهم ونَخَب قلوبهم[2] . ورجعوا إلى عيالاتهم وأموالهم متقطعين . فلا يمر بالمضايق التى قد وكَّلت بها أحدٌ من الفرس إلاَّ قُتل ، ولا يسلم أحد فيصير إلى الشام إلاَّ أتيت عليهم وشردتهم أنت من خلفهم . فأجابه الملك إلى ما رأى وأنفذهم إلى الشام .

فلما بلغ الفرس أن الروم قد خلفتهم فى أهاليهم وأموالهم ، خرج أكثرهم متقطعين لا يلوون على شىء ، ومروا بمضايق الطرق فقتل أكثرهم ، وخرج ملك الروم إلى مَنْ بقى منهم فهزمهم ، فلم يسلم منهم إلاَّ القليل . فتحوَّل الملك بذلك السبب من أهل بيت المملكة إلى قوم ليسو من أهل المملكة ، بل هم من أهل أرمينياقس[3] . فبقى فيهم إلى هذه الغاية .

وحُكىَ أن الحجاج بن يوسف لمَّا حارب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

---

(١) النقاب : جمع نقب وهو الطريق فى الجبل .

(٢) نخب قلوبهم : نزعها من الخوف والهلع .

(٣) كذا فى الأصل والصحيح « أرمينيا » لأن أرمينياقس هو صاحب أرمينيا وتسميه العرب أرميناق . (راجع معجم البلدان ١ : ٢٠٤) .

ابن قيس[١] . اشتد عليه أمر عبد الرحمن ، فمنعه الحجاج ومنع أصحابه من دخول البصرة . وكان أكثر أصحاب عبد الرحمن من أهل البصرة ، فقال للحجاج كاتبٌ له من الدهاقين[٢] يُقال له الفرخان : خلِّ بين الناس وبين دخولهم البصرة ، وتنحَّ لهم عن الطريق ، وابذل الأمان لمن دخل منهم ، ومُرْ أن لا يُتَعَرَّض لهم . فإنهم إن دخلوا البصرة إلى عيالاتهم وأوطانهم ، لم يخرج منهم إلى عسكر عبد الرحمن أحد ، لأن القوم قد أشرفوا من حربك على أمر عظيم . فمنهم من يَرِقُّ لأولاده ، ومنهم من يمنعه أمه وأبوه ، ومنهم من يبقى على نفسه وماله .

ففعل الحجاج ما قال له الفرخان وتنحى عن طريق البصرة ، فتتابع الناس إلى البصرة ، فلم يبق فى عسكر عبد الرحمن إلاَّ القليل . ثم رجع الحجاج على الطريق ، فقتل كل من وقع فى يده ممن يريد عسكر عبد الرحمن ، وأمسك الناس عن الخروج من البصرة ، وزحف الحجاج إلى عبد الرحمن فقتله واستأسر أكثر أصحابه وأثخن فيهم القتل[٣] .

---

(١) من القادة الشجعان ، كان قائداً تحت إمرة الحجاج ، سيره على رأس جيش لغزو بلاد الترك ماوراء سجستان . وقد اختلف مع الحجاج فخرج عليه وأعلن خلع الخليفة عبد الملك بن مروان ، ودخل العراق لمحاربة الحجاج . فنشبت بينه وبين جيوش الأمويين معارك عديدة ، انتصر فيها عبد الرحمن أول الأمر . ثم قصده الحجاج بجيش كبير فانتصر عليه ، فتتابعت هزائمه حتى اضطر إلى الالتجاء إلى ملك الترك « رتبيل » الذى غدر به فقتله وبعث برأسه إلى الحجاج .

(٢) الدهاقين : جمع دهقان وهو الرئيس عند الفرس القدامى .

(٣) جاء فى الطبرى : أن عبد الرحمن هزم أمام جيوش الحجاج فى موقعتين ، الأولى فى « دير الجماجم » بظاهر الكوفة من جهة الصحراء للسالك إلى البصرة ، والثانية فى « مسكن » بالقرب من البصرة . ولعل المؤلف يقصد هنا هزيمة عبد الرحمن بهذه المعركة . إلا أنه يلاحظ أن ابن الأشعث لم يقتل فيها إذ هرب إلى كرمان فهراة ملتجأ إلى ملك الترك الذى اغتاله (الطبرى ٨ : ١٢ — ١٤) .

وحُكىَ أن قتيبة بن مسلم الباهلى[١] ، حارب أهل سمرقند والشاش[٢] ، وقد زحفوا إليه . فبعث إلى الرساتيق فحمل شراباً كثيراً إلى عسكره ، وأظهر أنه يولم على تزويج ابنه فى يوم كذا وليمة عظيمة ، وبعث قوماً من قِبَله مستأمنة[٣] إلى أهل سمرقند والشاش فقالوا لهم : إن قتيبة عزم على أن يولم على تزويج ابنه يوم كذا ، وقد بلغكم ما حُمل إليه من الشراب وأصحاب الملاهى ، وما هيأ من الطعام ، فقالوا : قد بلغنا ذلك . قالت المستأمنة لهم : فانتهزوا الفرصة فى ليلة كذا ببياته[٤] ، فإنه وأصحابه سيسكرون فى هذه الليلة فلا يكون بأكثرهم حراك .

فطمع أهل سمرقند والشاش وهم معسكرون منهم على مرحلة ، فى قتيبة وأصحابه . فلما علم أنهم قد طمعوا فيه ، عمل وليمة عظيمة ومنع أصحابه الشراب . حتى إذا أمسى ، خرج فى ألف فارس من أصحابه ، فكمنوا فى روابى على طريق عدوه للبيات . وجاء القوم لبيات قتيبة فلما مَرُّوا به ، خرج عليهم من ظهورهم فقطعهم وقتل أكثرهم . ثم رجع إلى عسكرهم ، فظن أهل العسكر أن قتيبة وأصحابَه أصحابُهم ، فلم يتحرزوا منهم ، فقتل أكثرهم .

---

(١) قتيبة بن مسلم بن عمر الباهلى : من قواد العرب الكبار فى صدر الإسلام . تولى الرى أيام عبد الملك بن مروان وخراسان أيام الوليد بن عبد الملك ، ومن هناك توغل فى بلاد ما وراء النهر وافتتح أكثر مدنها حتى وصل أطراف الصين . وقد وطد الحكم العربى فى البلدان التى افتتحها . وعند ما ولى سليمان ابن عبد الملك الخلافة ، وكان يكره قتيبة ، حاول قتيبة الاستقلال بما فى يده من من البلاد ، ولما جاهر بذلك ثار عليه بعض قادة جيشه ، فقتل سنة ٩٦ للهجرة .

(٢) راجع عن حروب قتيبة فى سمرقند والشاش وفتحهما (الطبرى ٨ : ٨٤ — ٩٢ . وفتوح البلدان ٤٠٩ — ٤١١) .

(٣) المستأمن : طالب الأمان .

(٤) البيات : الهجوم على العدو ليلا .

وحُـكِىَ أن بعض ملوك الجبل[١] ، علم بعسـكر يسير إليه . فأخذ شعيراً فطبخه بالماء مع قضبان الدفلى ، ثم جففه ، ثم جربه على دابة فلما أكلت الدابة (منه) نفقت من يومها . فخرج فعسكر بناحية من جبله[٢] ونثر الشـعير والميرة . فلما ظنَّ أن القوم يسيرون إليه ، ترك ما فى عسكره من الميرة وتنحَّى عنه ، وجاء مَنْ كان يطلبه ، فوجدوا ذلك الشعير فأطلقوا عليه دوابهم فنفقت كلها .

---

(١) الجبل : الاسم الذى كان يطلق فى العهد الإسلامى على المنطقة الغربية من من بلاد فارس المحادّة للعراق شمال خوزستان ، وتسمى الجبال أيضاً . وكان هذا هو الإقليم الثانى من أقاليم مملكة فارس التى وضعها أنوشروان (راجع غرر السير ص ٦٠٩) .

(٢) فى ا : « من خيله » .

الباب السابع

في كسر الجيوش بتفريق كلمتها

حُكِيَ أن قسطنطين ملك الروم ، مَلَكهم حتى كبرت سنه وساء خلقه ، وظهر به وضح[1] شان وجهه . فأرادت الروم خلعه ، وقالت : حسبك من الدنيا فاعتزل ملكنا ، فقد شبت[2] ولك من الأموال ما لا تفقد معه شيئاً كنت فيه من نعمتك ؛ فشاور نصحاءه في أمره ، فقالوا له : لا طاقة لك بقومك وقد اجتمعت كلمتهم على خلعك ، وهم على غير دين يفهمونه . هذا والروم لا تعرف النصرانية ، وهي تعبد الأوثان على جاهليتها ، قال : فما الحيلة ؟ قالوا له : تستأذن لتحج إلى بيت المقدس ، ثم تطلب دينًا من أديان الأنبياء فتدعوهم إليه وتحملهم عليه ، فإنهم يفترقون (فرقتين) فرقة تصير معك على دينك ، وأخرى تشذ عنك ، فتقاتل من عصاك بمن أطاعك ، فإنك تظهر عليهم ، لأن كل قوم قاتلوا على دين فهم غالبون .

قال قسطنطين للروم : أنظروني أحج إلى بيت المقدس (ثم أرجع فأعتزلكم . فأنظروه ، وخرج إلى بيت المقدس) ، فدعا باليهود والنصارى فتناظروا بين يديه . فاختار النصرانية وتنصَّر هو وجماعة ممن معه . ثم رجع إلى بلاد الروم ومعه الرهبان والشمامسة والأساقفة ، فدعا الروم إلى النصرانية فأجابه أكثرهم . فقاتل من عصى فظفر بهم ، وأحرق كتب حكمتهم وهتكها ،

---

(١) الوضح : البرص .

(٢) في ا : « شبينا » وهو خطأ في النسخ .

وبنى البِيَع[١] وحماهم على النصرانية بالسيف[٢] ، وبنى القسطنطينية[٣] لنفسه وخاصته ، وكانت دار ملكهم رومية . وغلبت النصرانية على الشام[٤] حتى ظهر الإسلام .

وحُكِيَ أن العرب لمّا غلبت الروم على بعض أرض الشام ، واشتد أمرها على الروم ، أتت الروم ملكها قيصر[٥] ، وهو عليل قد أشرف على الموت ، فقالت له : قد علمتَ مالنا بالعرب من طاقة ، وما نحن بعرضه منهم من ذهاب أمرنا ، وعلتك أشد علينا من ذلك فأوصِنا . قال قيصر : إن العرب قوم كانوا في بؤس شديد ، يعيشون في الفيافي من حَلَب الناقة والشاة ، ويحترشون

---

(١) البِيَع : مفردها البِيعَة وهي المعبد للنصارى .

(٢) اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية وفرضها على أهل القسطنطينية ومنع مزاولة الديانة الوثنية فيها . (راجع الامبراطورية البيزنطية ص ٩)

(٣) وضع قسطنطين أسس المدينة التي أنشأها في شبه الجزيرة البارز من أوربا والذي يكاد يلاقي الشاطىء الأسيوي ، في بقعة يحميها بحر مرمرة ، في سنة ٣٢٤ م وهي السنة التي توج فيها امبراطوراً . وكانت تسمى روما الجديدة . ثم احتفل بإكمالها سنة ٣٣٠ م وجعلها مدينة مسيحية ، بينما بقيت روما حصناً للديانة الوثنية إلى وقت طويل بعد ذلك (المصدر السابق ص ٧ — ٨) .

(٤) لأن بلاد الشام كان يحكمها الرومان قبل الإسلام .

(٥) « قيصر » لقب كل ملك من ملوك الروم والجمع قياصرة . وكان قيصر الروم عند ظهور الإسلام « هرَقْل » وقد امتد حكمه من سنة ٦٢١ حتى سنة ٦٤١ للميلاد . وقد استطاع أن يثأر لروما من فارس إذ شنّ حرباً على الامبراطورية الفارسية وتوغل في قلب فارس حتى وصل المدائن عاصمتها بعد أن كسر الجيوش الفارسية في معركة نينوى . إلا أن ظهور الإسلام واكتساح العرب بلاد الشام وفتحهم مصر ، على عهده ، أضعف من شأن الامبراطورية الرومانية . (الإمبراطورية البيزنطية ص ٣٣٤ و ٣٦٠ — ٣٦٢) .

الضِّباب[١] ، وقد رأوا ما أنتم فيه من رفاهية العيش بلين الملابس وطيب الطعام وحسن المناكح[٢] . وقد وعدهم نبيهم أنَّ لمن قتلنا منهم قصور الذهب والفضة وحياة الأبد . فهم كلما لقوكم حرصوا على الموت وكَلِبوا[٣] لما أنتم فيه من النِّعم. وأنتم تحرصون على الحياة لطيب ما ترجعون إليه ، فهم يهزمونكم . ثم أغمى على قيصر ، فظنت أنه مات ، فأعولت عليه وبكت عنده . فأفاق ، فقالت له : يا سيدهم ! إنا شاورناك فى أمر العرب فزدتنا منهم رعبًا ، قال : صدقتكم عنهم . قالوا : فما الرأى ؟ قال : خَلُّوا لهم عن بعض بلادكم وارفقوا بهم ، وادفعوهم بالحرب قليلًا حتى يموت منهم مَنْ شاهد نبيهم ، وينالوا من طيب العيش (مثل) ما نلتم ، فيكرهون الموت مثل كراهتكم . ثم ضعوا بينكم وبينهم حدًّا وقاتلوهم عليه ، فإنهم لا يجوزونه أبداً . ففعلت الروم ذلك ووضعت بينها وبين العرب جبل الدرب ، وقاتلت عليه ، فبقى الحد إلى هذه الغاية .

وحُكِىَ أن أمير المؤمنين عليًّا رضى الله عنه ومعاوية لما التقيا بصفين[٤] فدامت الحرب بينهما ثلاثة أيام ، ظهر أصحاب علىٍّ كرم الله وجهه على أصحاب معاوية ، وخاف معاوية على أصحابه ونفسه ، فهمَّ بالهرب . فدعا عمرو بن العاص فشاوره ، فقال له عمرو : ترفع المصاحف على الرماح وتدعو أصحاب علىّ إلى ما فى كتاب الله . قال معاوية : ويحك يا عمرو ، مثل علىّ تُرفع له المصاحف ويُناظَر فى الدين والكتاب ؟ قال له عمرو : إن أصحاب علىّ يقاتلون معه ديانةً ، وأصحابك يقاتلون

---

(١) يحترش الضباب : يصطادها ، والضباب جمع ضب .

(٢) المناكح : النساء .

(٣) كلبوا : حرصوا وطمعوا .

(٤) صفين: موقع على شاطىء الفرات قرب مدينة الرقَّة ، وقعت عندها الحرب الشهيرة بين الإمام على وجيش معاوية .

معك على الدنيا ، وإنك متى رفعت لأصحاب عليّ المصاحف تحرَّجوا من قتالك ، وانشعبت منهم التأويلات فى دياناتهم ، ولم يزدد أصحاب عليّ إلا افتراقاً ، ولم يزدد أصحابك إلَّا اجتماعًا .

فأمر معاوية بالمصاحف فرفعت على الرماح . ونادى أصحابُ معاوية أصحابَ عليّ صلوات الله عليه ، ندعوكم إلى ما فى كتاب الله (عز وجل ، فأمسك أصحاب عليّ عن القتال ، وقالوا لعلى : لا نقاتل قومًا دعونا إلى كتاب الله) قال عليّ : وَيْحَكم ! إن الجراح والقتل قد كثر فيهم ، وإنما احتجزوا منكم بهذا ، وليس لهم فى كتاب الله حجة . قالوا له : لا نقاتلهم حتى نناظرهم ، وأبوا عليه القتال .

وكان الأشتر[١] فى وجوه القوم فى ثلثمائة رجل من قومه ، يضربون بالسيوف حتى قربوا من مضرب معاوية ، فقال أصحاب عليّ : ابعث إلى الأشتر فَرُدَّه (حتى ينصرف ومَنْ معه) وأمسِك العسكر . فبعث إليه عليّ يأمره بالانصراف فأبَى وقال : قد قربت من مضرب معاوية ، فقال أصحاب على لعلى: إما أن ترد الأشتر وإلاَّ أسلمناك[٢] وصرنا إلى معاوية ، لأنه قد دعا إلى كتاب الله . فبعث عليٌّ الحسنَ ابنه رضى الله عنه إلى الأشتر فردَّه ، وأمسك العسكران عن الحرب .

---

(١) الأشتر : هو مالك بن الحارث النخعى ، من شجعان العرب المعدودين فى صدر الإسلام . وقد شهد معركة اليرموك ، كما شهد يوم الجمل ومعركة صفين إلى جانب الإمام على . وقد ولاه على مصر ، إلا أن المنية أدركته قبل وصوله إليها . وقد قال عنه الإمام على عندما سمع بموته : رحم الله مالكاً ، فقد كان لى كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أسلمه : خذله .

ووقعت المناظرة بين على وبين معاوية رضى الله عنهما . ثم إن المناظرة لَمَّا وقعت بينهما فى حديث طويل ، اتفقوا على أن يبعث على رضى الله عنه حكَمًا ، ومعاوية رضى الله عنه حكمًا . فحكَّم على أبا موسى الأشعرى[1] ، وحكَّم معاوية عمرو بن العاص . واجتمع الناس بدومة الجندل[2] ، فلما تشاهدوا على ذلك وكتبت به الكتب ، خلا أبو موسى وعمرو يتناظران . فمكثا عدة أيام يقدم عمرو أبا موسى فى الصلاة والمدخل والمخرج وجميع الأحوال . حتى جرى الأمر على تقديم أبى موسى على عمرو بن العاص . ثم تناظرا فاتفقا على أن يخلع كل واحد (منهما) صاحبه ، وتعاهدا وتعاقدا على ذلك .

فاجتمع الناس فى يوم اتَّعدوا له ليسمعوا من الحكمين ما اتفقا عليه . فلما دنا أبو موسى وعمرو بن العاص من المنبر ، قال لعمرو : اصعد فاخلع معاوية ، قال عمرو : أنت تعلم أنى لم أتقدمك فى شيء ، فتقدم أنت فاخلع صاحبك حتى أتلوَك فأخلع صاحبى ؛ فصعد أبو موسى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد خلعت عليًّا من هذا الأمر كما خلعت نعلى من رجلى ، وخلع نعله[3] ، ثم نزل . فصعد عمرو بن العاص ، فحمد الله وأثنى

---

(١) أبو موسى الأشعرى : هو عبد الله بن قيس من بنى الأشعر من قحطان . صحابى من الشجعان الفاتحين ومن أوائل المسلمين ومن المهاجرين إلى الحبشة . ولاه عمر بن الخطاب البصرة ، وولاه عثمان الكوفة وأقره علىّ عليها أول أمره . وهو أحد الحكمين اللذين رشحهما على ومعاوية للاتفاق على حل لانهاء الحرب بينهما .

(٢) دومة الجندل : قرية فيها حصن تقع عند وادى سرحان قرب جبلى طي (أجأ وسلمى) ويكاد يجمع المؤرخون على أن التحكيم بين على ومعاوية إنما كان فى «أذرح» وليس فى دومة الجندل . وأذرح قرية تقع فى بلاد الشام بالقرب من عمان . (راجع مثلا : مروج الذهب : ٢ : ٣٢ . وتاريخ ابن الأثير ٣ : ١٤٠) .

(٣) إن منزلة المؤلف العلمية والأدبية تربأ به عن استعمال مثل هذا التعبير . =

عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : إنى قد أقررت معاوية فى هذا الأمر كما أقررت خاتمى فى إصبعى ، وأدخل إصبعه فى خاتمه .

فافترق أصحاب علىّ على ثلاث فرق ، ففرقة أقامت على طاعته وهم الشيعة ، وفرقة مالت إلى معاوية ورغبت فى الدنيا ، وفرقه شذَّت وقالت : لا حكم إلا الله ولو كره المشركون ، ولا تحكيم فى أمر الله ، وهم الخوارج . وأول من حكم أبو بلال مرداس بن أديَّة التميمى [١] . فتكرهت الخوارج عليًّا ومعاوية رضى الله عنهما جميعًا . وإنما سُمِّيت الحرورية لأنهم اعتزلوا عسكر علىّ بالكوفة ونزلوا بقرية يقال لها حروراء .

وحُكى أن الطالبى ، المعروف بالكوكبى ، لمَّا طابق ابن حسان صاحب

= ولعله أضيف من قبل أحد النساخين . والمعروف أن الحكمين اتفقا على أن يخلع كل منهما صاحبه وأن يتركا الأمر للناس ليقرروا ما يريدون . وعندما تقدما لإعلان القرار . أقره أبو موسى فخلع علياً ومعاوية ، أما ابن العاص فقد خلع علياً وثبَّت معاوية .

(راجع الطبرى ٦ : ٣٩ – ٤٠ ، وابن الأثير ٣ : ١٤٢ – ١٤٤ و ١٦٨ . ومروج الذهب ٢ : ٣٢ – ٣٣) .

(١) المعروف فى المصادر الأخرى أن الخوارج بعد انفصالهم عن جيش الإمام على ولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى الذى هيأ أتباعه لمحاربة الإمام على فى معركة النهروان التى انتصر فيها الإمام علىّ على الخوارج ، وقُتل فيها ابن وهب (الطبرى ٦ : ٤٠ – ٥٣) .

إلا أن أول سيف سُلَّ من سيوف الخوارج ، هو سيف عروة بن أدية ، وهو أخو أبى بلال المذكور (الطبرى ٦ : ٣١ . والشهرستانى ١ : ١١٧ – ١١٨) .

أما أبو بلال مرداس الذى كان من شيوخ الخوارج . فقد خرج بالأهواز فى ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة ، حين اشتد ابن زياد على الخوارج وقتل منهم عدداً كبيراً ، من بينهم عروة أخو أبى بلال (الطبرى ٦ : ١٧٥) .

الديلم ، أقبلا إلى الريّ فأناخا بها وحاصرا أهلها ، وكان عند أهل الريّ امرأة الكوكبي ومعها صبيان له منها . فلما اشتدت الحرب بينهم أيامًا ، خرج رجل من أهل الريّ إلى الديلمى بأمان فاستخلاه[١] ، فلما خلوا ، قال له الرازى : إن الكوكبي قد كاتب أهل المدينة أن يطلقوا له امرأته وولده ويمالئهم عليك ، وأهله وولده يخرجون إليه فى هذه الليلة ، فخذ حذرك . فخاف الديلمى مما قال له الرازى ، وجعل يدور المدينة بنفسه .

وانصرف الرازى إلى قومه فأخبرهم بما قال للديلمى . فأخذوا امرأة تشبه امرأة الكوكبي ومعها صبيان ، فأُخرجوا من باب المدينة ، فوقعوا فى يد ابن حسّان ، فظن أن الرازى نصحه . ووجد مع المرأة كتاباً من أهل الريّ إلى الكوكبي : إنا قد وفيناك بما حالفناك وعاهدناك عليه ، فِفِ لنا بما وعدتنا من الغارة على ابن حسّان .

وجاء الرجل الذى نصح لأبن حسّان إلى امرأة الكوكبي فقال لها : إن ابن حسّان قد كاتب أهل الرى على أن يثبوا بزوجك فيجتاحوه[٢] فى هذه الليلة المقبلة ، فاكتبي إليه بخطك كتاباً أعلميه ذلك . قالت : ومَنْ يوصله إليه ؟ قال الرجل : أنا أخرج جاريتك من سور المدينة حتى تمضى إليه . فكتبت المرأة إلى زوجها تُعلمه أنّ فلاناً خبّرها بكذا ، وأنّ القوم على بياته . فوصل الكتاب إليه فبات على حذر . فلما وقعت المرأة على ابن حسّان قال لها : مَنْ أنتِ ؟ قالت : فلانة امرأة الكوكبي . فخرج نحو الكوكبي ليعاتبه ، فلما شعر به الكوكبي تصايح أصحابه بالسلاح ، ونشبت الحرب بينهم بالليل . وصَحَّ عند كل واحد منهما ما قيل له . فهرب الكوكبي بالليل ، ومضى ابن حسان أيضاً هارباً لوجهه .

---

(١) استخلاه : طلب أن يخلو به .   (٢) يجتاحه : يهلكه .

الباب الثامن

في التدبير على مفسد أو متعنت

حُكيَ أن أبرويز كسرى ، لمّا هزم ملك الروم ، كتب إلى قائده الذى كان أدهن عليه ، يجزيه خيراً ومَنْ معه من الجند ، ويعدهم البرّ والزيادة فى أرزاقهم . فعلم القائد أنّ الذى فعل من تخلية الطريق لملك الروم لم يخفَ على أبرويز ، وأن كتابه إليه إنما هو استدراج منه له . فكتب على لسان كسرى إلى الجند بغير ما كتب له كسرى ، من الشتم لهم والوعيد والتهدد . وكتب إلى أبرويز عنهم كتاباً غليظاً . فأفسد قلوب الجند على أبرويز ، وأفسد قلب أبرويز على الجند الذين كانوا معه فى وجوه الروم .

وكان أبرويز قد تغيّر لرعيته وساء خاتمه فأبغضوه جميعاً . وكان قد عتب على ابنه شيرويه فحبسه فى حصن بابل من المدائن مستقر كسرى على خمسة عشر فرسخاً . وكتب كسرى إلى صاحبه الذى فى وجوه الروم وإلى جميع من معه من الجند بالقفول حذراً من مفاسدهم ، وأحبَّ مشاهدتهم ليصلح قلوبهم وفسادهم . ووجّه فى موضع هذا القائد رجلاً من جِلّة الفرس ووجه معه أكثر الجند . فخلا بابه منهم إلاّ اليسير من الجند . فقدم القائد الأول ومن معه من الجند وقلوبهم فاسدة ، فمالوا إلى شيرويه بن أبرويز ، فأخرجوه من حبسه وبايعوه على الفتك بأبيه . ثم ساروا نحوه ، وكان ذلك سبب قتل أبرويز[١] .

---

(١) راجع عن مقتل أبرويز : إيران فى عهد الساسانيين ص ٤٧٥ – ٤٧٧ . وغرر السير ص ٧٢٤ – ٧٢٧ .

وكان أبرويز كتب إلى عامله على اليمن فى إشخاص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوجَّه عامله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رُسُلاً وهو بالمدينة . فلما وردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : إن ربَّنا ، يعنون كسرى، أمرنا بأن نشخصك إليه . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ربى أعلمنى أنَّ ابن كسرى وثب على أبيه فقتله البارحة ، فارجعوا إلى صاحبكم . فرجعوا إلى صاحب اليمن فأعلموه الخبر . فحفظوا تاريخه ، فأتاهم الخبر بأن شيرويه قتل أباه أبرويز فى تلك الليلة التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] .

وحُكِىَ أن بقية المحَمّرة[٢] لما انهزمت من الجبل مرَّت بأرمينية ، ثم انحازت إلى ملك الروم فأكرمهم واصطنعهم ، فغلظ ذلك على أهل الثغور . وكانت المحمرة الذين وصلوا إلى ملك الروم نحواً من عشرة آلاف رجل أكثرهم فرسان . وكان على الثغور محمد بن يوسف المعروف بأبى سعيد

---

(١) انظر تفصيل الخبر فى الطبرى ٢ : ٦٥٥ — ٦٥٨ (طبعة — م) .

(٢) المحمرة : هم اتباع بابك الُخرَّمى . وكان بابك قد ظهر فى عهد المأمون فى بلاد فارس ، ودعا إلى إباحة المحرمات وإشاعة الأموال بين أتباعه . واستفحل أمره إذ دخل فى دعوته كثير من أهل الجبال من همذان وأصفهان . واستطاع أن يصمد بوجه جيوش الدولة العباسية طيلة حكم المأمون . حتى إن المأمون عندما أدركته الوفاة أوصى خلفه أخاه المعتصم بالاستمرار فى تجريد الجيوش لمحاربة بابك وأتباعه للقضاء عليه وعلى دعوته . فبذل المعتصم جهده فى ذلك . وقد تم لقائده الأفشين أن ينتصر على بابك ، بعد أن قاوم الدولة قرابة عشرين سنة . فأتى به وبأفراد عائلته إلى سامراء حيث صلب . وقد هرب من نجا من القتل من أتباعه ملتجئاً إلى بلاد الروم.

ذى العلمين[1] . فدسَّ رجلاً من قبله من أهل الجبل بكتاب على لسان المحمرة إلى أبى سعيد يسألونه الأمان ، على أن يثبوا بملك الروم فى وقت الحرب من خلفه . وعَرَّضه لأن يقع فى يد ملك الروم . فلما وقع الكتاب فى يد ملك الروم ، حذِرَ المحَمِّرة وتنكَّر لهم ، فحذروه . وكتب إليهم أبو سعيد كتاباً بالأمان ، فوقع الكتاب أيضاً فى يد الملك فزاده وحشةً منهم ، ولم يبدِ لهم ما فى نفسه ، تخوفاً من أن يحسبوا أنه قد خافهم . ثم طلب عليهم عثرةً وتجنى عليهم فحاربهم فقتلهم أجمعين .

وحُكِىَ أن رجلاً من مدينة السلام يُقال له سَهل بن سَلاَمة[2] خرج فى جماعة من غوغاء أهل مدينة السلام ، فأغواهم بأن وسم نفسه بالآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، فعظم شأنه . والمأمون بمرو ، فبلغه خبر سهل فدعا ثُمامة ابن أشرس[3] فقال له : إن رجلاً خرج بمدينة السلام فى نحوٍ من خمسمائة

---

(١) المعروف بالثغرى الطائى ، من قواد حميد الطوسى فى حربه مع بابك الخرمى ، وتولى قيادة جيوش المعتصم بعد مصرع حميد ، وكانت أول هزيمة لأتباع بابك على يده . سمى الثغرى لأنه قضى معظم حياته فى العمل فى الثغور الإسلامية . توفى فى عهد المتوكل وهو وال على أرمينية وأذربيجان ، فولى المتوكل ابنه يوسف ما كان لأبيه من شؤون الحرب . ولأبى تمام والبحترى فى أبى سعيد الثغرى مدائح كثيرة .

(٢) سهل بن سلامة : يقول الطبرى فى حوادث سنة ٢٠١ للهجرة : « وفى هذه السنة تجردت المتطوعة للنكير على الفساق ببغداد . . . ثم قام رجل يقال له سهل ابن سلامة الأنصارى من أهل خراسان يكنى أبا حاتم ، قد دعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفاً فى عنقه . . . » الطبرى ١٠ : ٢٤١ — ٢٤٣ .

(٣) ثمامة بن أشرس : من كبار المعتزلة وكان فصيحاً بليغاً . كان مقرباً من الرشيد ثم من المأمون الذى تأثر بآرائه فى الاعتزال وبلغ من تقدير المأمون له أنه أراد أن يستوزره فاستعفاه . ويسمى أتباعه من المعتزلة « الثمامية » نسبة إليه . راجع : الشهرستانى ١ : ٧٠ — ٧١ .

رجل ، يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فما ترى ؟ قال ثمامة : يا أمير المؤمنين هذا خطب جليل ينبغى أن يُتلافىٰ . ثم دعاه المأمون بعد مدة ، فقال : يا ثمامة ، إن الرجل قد صار فى ألفٍ . قال : وهذا خطب جليل (أيضاً) هائل مخوف . ثم دعاه بعد مدة وقال : يا ثمامة إن الرجل فى مدينة السلام قد صار فى خمسة آلاف رجل . قال ثمامة : هذا أمر قد ضعف فلا تحفل به . فقال له المأمون : كيف استعظمت حاله فى خمسمائة وفى ألف وقد استضعفتها فى خمسة آلاف ؟ قال ثمامة : لأنى ظننت أنَّ مخرجه ومن معه لقصد الدين فراعنى ، فلما كثر أصحابه علمت أن خمسة آلاف رجل لا يجتمعون على نصرة الدين فى مثل هذه السرعة ، وأن أصحابه غوغاء .

فلمَّا دخل المأمون مدينة السلام أمر بسهل ، وكره أن يقدم عليه بعقوبة فيفسد قلوب أهل الديانة والرعية . ثم أمر أن يستعمل سهل على صدقات الجبل . فلما وليها سقطت حالته عند أهل الديانة والعامة . ثم وجَّه خلفه لمَّا خرج إلى الجبل مَنْ حاسبه وتتبع عمله فأظهر خيانته . وأمر المأمون بتقييد سهل ، وحبسه بالجبل حتى مات فى حبسه .

وحُكِىَ أن قتيبة بن مُسلم الباهلى ، ولىَ خراسان وعزل يزيد بن المهلب[١]

---

(١) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى : من القادة الشجعان وقد ولى خراسان بعد وفاة أبيه ثم عزله الحجاج لأنه خشى طموحه . ولما ولى سليمان ابن عبد الملك الخلافة ولاه العراق ثم خراسان ، فافتتح جرجان وطبرستان . وعزله عمر بن عبد العزيز وحبسه . وعندما مات عمر استطاع يزيد أن يهرب إلى البصرة ويتغلب عليها ويعلن الخروج على يزيد بن عبد الملك . فوجه إليه أخاه مسلمة بن عبد الملك والى العراق ، فنشبت الحرب بينهما وقتل فيها يزيد فى سنة ١٠٢ هـ (راجع وفيات الأعيان ٥ : ٣٢٢ — ٣٥٢) .

عمَّا كان فى يده . فشخص يزيد بن المهلب إلى الشام ، إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو على ملك قومه ، فقال له : كيف خلَّفته ؟ فأفسد يزيد بن المهلب قلب سليمان على قتيبة بن مسلم . فكتب سليمان إلى قتيبة كتباً أنكرها ، وارتفعت حال يزيد عند سليمان ، فعلم قتيبة أن يزيد أفسد حاله عند سليمان بن عبد الملك ، فكتب إليه كتباً يتنصل فيها ، فلم يزد عليه سليمان إلا غلظةً . فوجَّه قتيبة إلى سليمان رسولاً فطناً لبيباً ، ودفع إليه ثلاثة كتب ، وأمره أن يوصل الأول منها إلى سليمان . وقال : إنك ستدخل عليه ويزيد بن المهلب جالس عن يمينه ، فإذا دفعت إليه كتابى الأول فأقرأه يزيد ، فادفع إليه كتابى الثانى . فإذا دفعته إليه فشتمنى وتنقَّصنى ، فادفع إليه الكتاب الثالث . فإنه إذا قرأه أمر بإكرامك وبِرِّك وصلتك ، وأجابنى على كتبى بما أُحبُّ[1] .

فخرج رسول قتيبة حتى ورد الشام ، فلما أُذن له على سليمان ، إذا يزيد ابن المهلب على يمينه . فقال الرسول : ياأمير المؤمنين ، إن معى كتباً أَفأُوصلها على ما أُمرت ؟ قال : فهاتها . فناوله الكتاب الأول وفيه : ياأمير المؤمنين أنا أمسّ بك رحمًا ، وأقدم بك حرمةً ، وأوجب عليك حقا ، فلا تشمت بى يزيد بن المهلب . فلما قرأ الكتاب دفعه إلى يزيد كالهازىء بقتيبة . فدفع رسول قتيبة الكتاب الثانى إلى سليمان ، وفيه : ياأمير المؤمنين يكتب إليك مثلى ، ولىّ من أوليائك كتاباً فتتضاحك به وتدفعه إلى يزيد بن المهلب الفاسق الكذاب المعروف بكذا ، لا يألو قتيبة ماأفحش على يزيد بن المهلب فى كتابه . فقال سليمان : (ومَنْ قتيبة) بن مسلم حتى يجترىء بمثل هذا الكتاب ؟ لا يألو

---

(١) راجع عن المكاتبة هذه بين سليمان بن عبد الملك وقتيبة : الطبرى ٨ : ١٠٣ — ١٠٤ . والعقد الفريد ٤ : ٤٢٦ — ٤٢٧ ، ووفيات الأعيان ٥ : ٣٣٨ — ٣٣٩ .

سليمان ما أفحش فى شتم قتيبة ، ولم يدفع الكتاب الثانى إلى يزيد . فدفع الرسول الكتاب الثالث كما أمره قتيبة بن مسلم ، إلى سليمان بن عبد الملك وفيه : من عبد الله قتيبة أمير المؤمنين إلى سليمان بن عبد الملك ، أما بعد فأنتم أئمة الضلال وبنو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] ، لم تستحقوا هذا الأمر بسابقة ولا قرابة ، فادخل فى السلام أو ائذن بحرب والسلام . فلما قرأ سليمان هذا (الكتاب) وضعه تحت وسادته وقال لحاجبه[٢] : خذ الرسول إليك فأكرم مثواه وارفع إلينا حوائجه لتقضى . (وكتب سليمان إلى قتيبة يزيد فى عماله) ويحسن صلته . ثم دسَّ سليمان رجالًا فصارُوا فى عسكر قتيبة فسعوا فى الفساد فى أصحابه حتى شغبوا على قتيبة بن مسلم فقتلوه[٣] .

وحُكِىَ أن بِشْر بن داود المُهَلّبى[٤] كان من شأنه أنه عظم بالسند ،

---

(١) طريد رسول الله : هو الحكم بن أبى العاص بن أمية ، عم عثمان بن عفان . أسلم يوم فتح مكة ، وقد طرده الرسول من المدينة فنزل الطائف ومعه ابنه مروان . ولم يزل الحكم فى الطائف إلى أن ولى عثمان الخلافة فأذن له بالعودة إلى المدينة . وكان سبب طرده من المدينة أنه كان يتسمع مايسره النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فيفشيه إلى المشركين من قريش . كما كان يقلد النبى صلى الله عليه وسلم فى مشيته وبعض حركاته بشكل ينطوى على التهكم .

(٢) فى ا : « لجليسه » .

(٣) راجع عن مقتل قتيبة : الطبرى ٨ : ١٠٦ — ١٠٧ . وفتوح البلدان ص ٤١٢ — ٤١٤ .

(٤) بشر بن داود المهلبى : والى السند على عهد المأمون ، عصى عليه ولم يرسل إليه خراجها ، وكان اتفق معه على أن يحمل إليه كل سنة ألف ألف درهم .

فوجّه المأمون إليه غسَّان بن عبَّاد[١] فى اثنى عشر ألف رجل من الجند ، وأمره إذا قرب منه أن يهوِّل عليه ويكاتبه ، ويعرض عليه الأمان . فإن أذعن له أعطاه أماناً بخط أمير المؤمنين ، وإن أبى ولَّاه السند وخلع عليه وضمَّنه خراجها وانصرف . فشخص غسَّان بن عباد حتى إذا قارب السند ، كاتب رؤساء السند يُعلِم كل واحد منهم أن ولاية السند له إن انصرف عنها بِشْر ، ويأمرهم بالتنكر لبِشر وإظهار معاندته . فلما أجابوه إلى ماأراد ، كتب إلى بشر : أما بعد ، فقد جرى أسلافك وجريت بعدهم فى الطاعة إلى غاية وجبت بها حقوقكم ، وشُهر بها صفاء نيتكم ، وفضلت بها منزلتكم . ولم يعرَ من الخطأ الأنبياء المنتخبون ولا الأصفياء المقربون ، بل وصفهم جلَّ ثناؤه فى كتابه وأخبر عن محبته إياهم ، فقال : ﴿ إن الله يُحبُّ التوابين ويحب المتطهرين[٢] ﴾ وقد وجَّهنى أَمير المؤمنين فى جيوش لا يُرىٰ طرفها كثرةً ، وأمرنى بعرض الأمان عليك لنفسك ومن اتصل بك من أهلك وحاشيتك على أنفسهم ، وجميع ماحوته أيديكم ، وكتب بذلك كتاباً بخطه . فإن قبلته أصبت رشدك وربئت[٣] مامضى عليه أوائلك . وإلاَّ فتعرف نواصى الخيل سائلة عنك ومحيطة بعقوبتك ، واطئة عقر حريمك . وأَيَّة حال عند ذلك حالك إلَّا حال العاضّ على أنامله غيظاً والقارع لسنِّه ندماً ؟ . وكأنى بك وقد واثبك الموتور وصاف[٤] عنك

(١) غسان بن عباد : من رجال المأمون وهو ابن عم الفضل بن سهل . وقد ولاه الحسن بن سهل خراسان. ثم ولاه المأمون السند بعد بشر بن داود المهلبى، فأقام هناك مدة أصلح خلالها شؤونها .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٣) ربئت : حفظت وأصلحت .

(٤) صاف : مال . وفى ا : «ضاق بك المقهور» ولعل الصحيح أنها « وحاف عليك المقهور » أى جار وتعدى .

المقهور ، وشمت بك المكاشح[١] وأسلمك الناصح ، وأنا أعيذك بالله من الحال التى أصبحت بعرضها إن لم تنتهز الفرصة وتتوقَّ العثرة .

فلما وصل الكتاب إلى بِشر توقف عن الإجابة ، فتنكر له الرؤساء من أهل عمله ، وبلغه عنهم مالا يحبه . وجعل أصحابه يحبون الرجوع إلى أوطانهم بالعراق . فاضطربت عليه أموره ، فقبل الأمان ورجع فمات بمدينة السلام .

وحُكِيَ أن نجاح بن سَلَمة[٢] ، قد كان وعد أمير المؤمنين المتوكل على الله أن يُظهر خيانات الكُتَّاب ، وضمن له بذلك مالًا جليلًا . وكان فيمن ضمنه نجاح أحمد بن الخطيب كاتب المنتصر بالله[٣] ، وأبو نوح كاتب الفتح ، وموسى ابن عبد الملك صاحب ديوان الخراج ، والحسن بن مخلّد صاحب ديوان الضياع[٤] . وكتب رقعة بخطه يتضمَّنهم للمتوكل على الله وهم على شرابهم . وانصرف نجاح على أن يبكر فيسلم القوم إليه يستخرجهم ويكشفهم . فشقَّ ذلك على الفتح[٥] وعلى عبيد الله بن يحيى[٦] ، فأعملا الحيلة .

---

(١) المكاشح : العدو الباطن العداوة .

(٢) كان نجاح بن سلمة صاحب ديوان التوقيع للمتوكل على الله ، أى الذى يتولى ختم الرسائل وتسجيلها . وكان من واجباته كذلك تتبع أعمال الموظفين والعمال .

(٣) المنتصر بالله : محمد بن جعفر المتوكل على الله وولى عهده ، وقد اشترك فى مؤامرة اغتيال أبيه ، وبويع له بالخلافة بعده ، إلا أنه لم تطل مدته بها .

(٤) ديوان الضياع : الديوان الذى يتولى إدارة ضياع الخليفة أى المزارع وقراها (التمدن الإسلامى ٢ : ١٢٤ — ١٢٥) .

(٥) هو الفتح بن خاقان بن أحمد ، أديب وشاعر فصيح. فارسى الأصل اعتمد عليه المتوكل على الله واستوزره وقتل معه . كان يشجع الأدباء والكتاب على التأليف حتى اجتمعت له مكتبة حافلة .

(٦) عبيد الله بن يحيي بن خاقان : انتخبه المتوكل لوزارته ، وبقى فى منصبه حتى مقتل المتوكل . وقد عرف بالحزم وأصالة الرأى .

فلما حضر نجاح من الغد دار السلطان ، خلا به عبيد الله فقال : إنك تقلدت أمراً عظيماً استفسدت به المنتصر بالله وهو ولى العهد الأكبر ، والفتح وهو أغلب الناس على أمير المؤمنين ، وإن هما كاداك لم تكن لك بهما طاقة . فقال نجاح : فما أصنع وقد رهنت لسانى عند أمير المؤمنين ؟ قال عبيد الله : فاكتب إليه رقعة تخبر فيها بأنك ضمنت هؤلاء القوم على النبيذ تهويلاً عليهم ، ليكفوا عن الخيانة ويعلموا أن لهم من يكشفهم . وتعتذر إلى أمير المؤمنين وتسأله إقالتك مما دخلت فيه . وأنا أتولى إيصال الرقعة وأقوم بعذرك . فخدعه حتى كتب رقعةً بخطه بذلك .

ثم أمر الفتح صاحب الدار أن يحجب نجاحاً قدر ساعة ، فجاء نجاح ليدخل فحُجب . ودخل عبيد الله مع الفتح فقالا للمتوكل : إن نجاحاً قد رجع عن جميع ماضمن لك ، وهذه رقعته (بخطه) يعتذر مما ضمن ، ويسأل الإقالة ، ويخبر أن ذلك كان منه على نبيذ . فلما قرأ المتوكل الرقعة اشتد على نجاح غضباً ، ودعا بموسى بن عبد الملك والحسن بن مخلّد ، فضمنا نجاحاً بمال جليل ، فدُفع نجاح إلى موسى فقتله[1] .

وحُكِىَ أن أبا الحسن على بن هشام . لما ولّاه المأمون أذربيجان ، شخص إليها علىّ وشخص المأمون إلى بلاد الروم، دبّ[2] أبو إسحاق المعتصم بالله عند المأمون . وكان قد غلب عليه فى إفساد حال أبى الحسن على بن هشام ، لِمَا تخوّف من ميل أبى الحسن على بن هشام إلى العباس[3] . فكتب المأمون إلى

---

(١) راجع مفصل القصة فى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ٣ : ٢٨٧ — ٢٨٨ . وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على فساد موظفى الخليفة وحاشيته ووقيعتهم بعضهم ببعض ، وعلى انتشار الرشوة والخيانة بين العمال والموظفين . (٢) دب : نمّ .

(٣) العباس بن المأمون ، وكان والياً لأبيه على الجزيرة والثغور .

عليّ كتباً غليظة أنكرها عليّ فتنكر للسلطان ، دالَّةً عليه[١] بموضعه منه . فلم تزل الغلظة تنمو بينهما حتى فَشَت فى الناس ولم يمكن المأمون عزل على بن هشام لأنه كان فى بلاد الروم ، وعليّ فى ناحية بابك ، فلم يأمنه إن بادهه[٢] بالعزل . وبلغه أنَّ عليًّا قد أفسد قلوب أصحابه وأهل عسكره بقطع أرزاقهم والسفه عليهم والكبر . فوجَّه المأمون عُجَيْفًا ، وأمره أن يصير إلى عليّ كالمعاتب له المستصلح لقلبه ، وأن يدبَّ بالفساد عليه فى عسكره ، وجعل عطاء الجند وعرضهم إلى عُجَيف .

(فدخل عُجيف) عسكر عليّ ، فأظهر لعلى غاية التعظيم واستعتبه لأمير المؤمنين ، فاعتذر على وقال لعجيف : أحسب الذى جئت له غير هذا ، فاحذر على نفسك ، فإنى إن لدغتك بالمراغة[٣] لدغةً أبطأت رقيتك من بلاد الروم[٤] . فتذلل عُجيف لعليّ وتلقَّى قوله بالتواضع حتى سكن . ثم دبَّ فى أصحابه بالفساد ، حتى إذا أحكم عليهم الأيمان بالطاعة مع العطاء ، وعلم سوء نياتهم لعليّ ، وأعَدَّ رؤساءهم للفرصة ، فخرج عليّ إلى بعض متنزهاته ، وجمع[٥] عُجيف الجند فقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين بعزل على . فقوبل بالسمع والطاعة لعُجيف . فبلغ الخبر عليًّا فرجع مبادراً . فوثب الجند عليه وعلى أخيه الحسين بن هشام فدفعوهما إلى عُجيف ، فأوثقهما بالحديد وحملهما إلى المأمون ، فقتلهما بإذنه .

---

(١) دالة عليه : جرأة عليه بسبب وجاهته عنده .

(٢) بادهه : بادره .

(٣) مراغة : بلدة كانت من أشهر وأكبر مدن اذربيجان .

(٤) يعنى أنه إذا ما أراد به سوءاً ، فإن نجدة المأمون له ، وهو فى بلاد الروم ، تبطىء فى الوصول إليه لبعد المسافة .

(٥) هكذا فى الأصل ، والواو زائدة .

الباب التاسع

في تسكين شغب وإصلاح نفار أو ذات بين

حُكِيَ أن أبا جعفر المنصور ، لما أعدَّ ما أراد باتخاذ مدينته ببغداد (ونزلها) فرّق جنده من أهل خراسان في الكور[1] والثغور[2] إلا القليل منهم . وخلَّف على بابه من قبائل العرب . فلما قلّ أهل خراسان ببابه وكثرت العرب ، شغبت على المنصور وطلبت من الأرزاق ما يستكثر لها . واجتمعت كلمتها من نزار واليمن على الوثوب بالمنصور ، واجتمعت ببابه المعروف بباب الذهب ، وهي متنكرة متذمرة . وقد جلست نزار عن يمين الباب واليمن عن يساره . فأتى محمد بن جعفر بن عبيد الله بن العباس[3] باب المنصور فدخل عليه . وكان شيخاً جليلاً معروفاً بجودة الرأى ، وقد علم[4] ما يفيض فيه الجند من العرب من توعد المنصور ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت جندك من العرب متنكرين لك ، وسمعت منهم ما لا أحبه . فقال المنصور : وما عندى في ذلك إلاّ مداراتهم حتى توافينا خيلنا ممن نناهضهم . فقال العباسى : لاوجه لقتال جندك ، لأنك إن ظفرت بهم أفسدت عُدَّتك وفتت في عضدك ، وإن ظفروا بك فهو البوار الذى لا إقالة منه . فقال المنصور : فما الحيلة

---

(١) الكور : جمع كورة وهى مجمع القرى .

(٢) الثغور : المدن والحصون التى على حدود الأعداء .

(٣) فى الكامل لابن الأثير ٥ : ٢٤٣ : أن الذى دخل على المنصور هو قثم ابن العباس بن عبيد الله بن العباس ، وهو ابن عم محمد المذكور .

(٤) فى ب : « سمع » .

فيهم ؟ قال العباسى : عندى فيهم حيلة ورأى لا يجوز أن أُخبر به حتى أمضيه . قال المنصور : وما هو ؟ قال : إن خبَّرتك به فسد . قال المنصور : فشأنك .

فخرج العباسى إلى دهليز المنصور ، فدعا رجلاً من مواليه فقال له : إذا ركبتُ فسرتُ بين صفىّ العرب فقل لى بصوت يُسمع ، (يا سيدى) أىّ القبيلتين أشرف ، نزار أم اليمن ؟ فإن زبرتك[1] وزجرتك ، فأعِد علىّ القول واستحلفنى بحق الله عز وجل وبحق رسوله صلى الله عليه وسلم . فلما ركب العباسى دابته ومشى ومعه مولاه (سأله عمَّا أمره به فزجره ، فاستحلفه مولاه) وهما بين صفىّ نزار واليمن ، فاشرأبت أنفس العرب من الفريقين لِمَا يقول الشيخ . فقال : وَمَنْ اليمن ، بنو كذا وكذا ، لا يقصِّر عن الإخاش ، نزار سادة الناس . فأمرت اليمن شاباً منها أن يقوم إلى الشيخ يعنفه وينكِّسه عن دابته . وسمعت نزار بقول الشيخ . قال : فوثب بعضهم على اليمنى فضربه بالسيف فخلىَّ عن العباسى ، فرجع مسرعاً إلى دهليز المنصور . وتهايج الحيَّان من نزار واليمن بالسيوف[2] .

---

(١) زبر السائل : نهره .

(٢) كانت الخلافات القبلية من أهم الأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة الأموية ، وكانت القبائل قد كونت جهتين منذ عهد معاوية ، الأولى وتمثلها القبائل العدنانيه أو القيسية ، والثانية وتمثلها القبائل اليمانية أو القحطانية . وكانت هذه الخلافات تشتد وتضعف حسب سياسة الخلفاء تجاه القبائل المذكورة . فاذا ما قرَّب أحدهم القيسيين ، علا شأن هذه القبائل وضعف شأن القبائل اليمانية ، وبالعكس إذا انتصر الخليفة لليمانيين ، فان ذلك يؤدى إلى إضعاف القبائل القيسية . ولم يقتصر أثر هذه الخلافات القبلية على بلاد الشام وحدها ، بل انتقل إلى الأقطار الأخرى ، فظهر بوضوح فى العراق وفارس وما وراء النهر ، وكان له أثر عميق فى إضعاف الدولة الأموية وسقوطها . ومع تلك النتائج السيئة لهذه الخلافات ، فإنها استمرت مدة طويلة فى العهد العباسى حتى أضعفت فى النتيجة كلمة العرب فى الدولة العباسية .

ودخل العباسى على أمير المؤمنين المنصور فقال : قد كفيتك القوم وأغريت بينهم ، فكل فرقة منهم محتاجة إلى حسن رأيك لئلا تميل مع الفرقة الأخرى عليها ، فلا يكون لهم بك وبعدوهم طاقة . والرأى أن تبنى داراً فى شرقى دجلة وتحوِّل ابنك المهدى إليها ، وتُصَيِّر جندك من أهل خراسان معه . فيكون (هو) ومن معه مسرعاً لك[1] واخرج إلى القوم وانههم عن الحرب . ففعل المنصور ذلك ، وبنى الرصافة[2] .

وحُكِىَ أن مُصعب بن الزبير[3] ، لمَّا قدِم البصرة لحرب عبد الملك ابن مروان ندب الناس للقتال معه . وكان فيمن ساعده الأحنف بن قيس ، فأخرج مضربه فضربه فى عسكر مصعب ، فخرجت معه بنو تميم . فجاءت زبراء جارية الأحنف وكانت إحدى الدهاة ، فبكت بين يديه ، وكانت حظيَّةً عنده . فقال : مايبكيكِ ؟ قالت : يقول الناس إن الأحنف قد ارتكس[4] فى الفتنة ، وخرج فى الطمع لشىء يأخذه . فقال لها : فإنى راجع . فبعث فردَّ مضربه . فبلغ مصعباً فغمّه ذلك وقال : من أين أُتيت فى الأحنف ؟ قيل له : جاريته زبراء ردَّته . فبعث إليها بعشرة آلاف درهم ، فضمنت له ردَّ

---

(١) فى ب « مفرغاً لك » .

(٢) راجع عن بناء الرصافة : الكامل لابن الأثير ٥ : ٢٤٣ .

(٣) مصعب بن الزبير : هو أخو عبد الله بن الزبير وعضده القوى فى تثبيت ملكه . ولاه أخوه البصرة فأخضعها وقتل المختار الثقفى وجمع إليه ولاية الكوفة : ولما استفحل أمره فى العراق وأصبح خطراً رئيسياً يهدد الدولة الأموية فى الشام ، سيّر إليه عبد الملك بن مروان الجيوش فدحرها مصعب ، فخرج إليه عبد الملك بنفسه على رأس جيش كبير . وحاول أن يستميله إليه فأبى وحارب حتى قتل ، فدخل عبد الملك الكوفة . وبمقتل مصعب ثبت حكم الأمويين فى العراق .

(٤) ارتكس : وقع وانتكس .

الأحنف . فأتته تبكي ، فقال : مايبكيكِ ؟ قالت : عيَّرتني النساء وقلن : كبر مولاكِ (وجَبُن) ولا قوة به على الحرب ، ولا علم له بها . فحمى من قولها فردّ مضربه . فقيل : هاجت زبراء[١] . وكانت إحدى سقطات الأحنف .

وحُـكِيَ أنه لما ولى محمد بن موسىٰ العباسي[٢] اليمامة والبحرين وطريق مكة ، نزل بجنده في ظهر البصرة . وفرّق الخيل في جباية الصدقات وبذرقة السابلة[٣] إلَّا أقل خيله . وبقي على بابه ألف رجل من غوغاء بغداد ، ومن الأنبار رجَّالة معهم رماح طوال وتراس حصينة . فشغبوا وطمعوا في الغارة عليه وعلى من بقي معه من جنده . فلمَّا انتهى إليه مايفيضون فيه ، وعلم أن لاطاقة له بهم ، أمر محمد بن موسىٰ بعض ثقاته ، فأخرج من البصرة باعةً معهم الأطعمة وغيرها . وأسلفهم مالًا وأمرهم أن لا يعطوا مَنْ جاءهم من الرجَّالة مايريدون ، إلَّا برهن سنان أو سيف أو ترس ، وأن يرخِّصُوا عليهم السعر ، ويحملوا مايرهنون (من أسلحتهم) يوماً يوماً إلى البصرة . فأقبل الرجَّالة على أولئك الباعة للإمكان[٤] ورخص السعر ، يرهنون أسلحتهم وهم لاهون في أكلهم وسكرهم . حتى ارتهن جميع أسلحتهم إلا اليسير منها . فلما استنظف السلاح[٥]

---

(١) كانت زبراء جارية الأحنف سليطة اللسان ، وكانت إذا غضبت ، قال الأحنف : قد هاجت زبراء . فذهبت مثلا في الناس حتى ليقال لكل إنسان إذا هاج غضبه : قد هاج زبراؤه ، والأزبر الأسد الضخم ، واللبؤة زبراء . (مجمع الأمثال ٢ : ٣٨٤) .

(٢) محمد بن موسى العباسي بن يعقوب بن المأمون بن هارون الرشيد ، من علماء بني العباس في الحديث وكان ثقة . ولد بمكة وتوفي في مصر سنة ٣٤٢ هـ .

(٣) بذرقة السابلة : خفارتها وحراستها .

(٤) الإمكان : السهولة واليسر .

(٥) استنظف السلاح من أيديهم : أخذه من أيديهم .

من أيديهم ، تنحّى الباعة عنهم ، فانتبهوا من سكرتهم ولا سلاح معهم ، وفقدوا ما كانوا يجدون . فهاجوا فى الشغب طمعاً فى النهب . فخرج إليهم من بقى معه من جنده فى غايةٍ من العُدَّة والعتاد والسلاح ، ولا سلاح مع الرجّالة إلا الحجارة فشرَّدهم كل مُشرَّد .

وحُكِىَ أن معاوية بن أبى سفيان ، لمّا ولّى زياد المدعى إلى أبى سفيان العراق وفارس والأهواز ، ساس زياد أهل عمله أشدَّ سياسة . وكان أحد الدهاة . فلما عظم شأنه واستوثقت أموره تنكّر لمعاوية . فكتب إليه معاوية كتباً غليظة . فبعث إليه زياد : تكتب إلىَّ بمثل هذه الكتب وخلفى مال فارس والأهواز ، ومعى رجال العراق وعجم الدهاقين . فدعا معاوية جماعة فشاورهم ، فكلهم يشير عليه بعزله ومناهضته .

ثم بعث معاوية إلى المغيرة بن شعبة ، فشاوره ، فقال له المغيرة : شاورت الناس حتى إذا لم يبق أحد بعثت إلىَّ . قال معاوية : إنى لم أؤخرك لتقصيرك ولكنى أردت أن آخذ آراء الناس ، ثم اجعل لرأيك عياراً عليها[(١)] . إن زياداً قد تنكر لنا ، وبعث إلىَّ يذكر أن خلفه مال فارس والأهواز ورجال العراق والعجم ، فما ترى ؟ قال المغيرة : إنى أرى أن ترفق بزياد ، فقد علمت دهاءه وسياسته ، وفى قلوب أهل العراق منك ما علمت ، وأكثرهم يتمنى عليك الكبوة . قال معاوية : لمثلى يُقال هذا ، وقد حاربت عليًّا مع فضله وسابقته وقرابته فظفرت بما أردت ؟ قال المغيرة : فإذا غلبت من هو أفضل منك فتأمن أن يغلبك من أنت أفضل منه ؟ فأطرق معاوية طويلًا . قال المغيرة : فعلمت أن معاوية قد عرف الفضل فيما أشرت به عليه ، ثم قال لى : إن صَلُح هذا الأمر بأحدٍ فبك .

---

(١) يجعل لرأيه عياراً على آراء الآخرين : يفضل رأيه ويرجحه على آرائهم .

قلت له : مُر بأمرك ياأمير المؤمنين . قال : تمضى حتى تصير إلى زياد بالبصرة فتشاهده وتنفث فى عقله[١] ، وتنظر من أين غِرَّته[٢] ، وتغمزه من حيث يلين عليك وتأتيه من جهته ، وتتأمل كيف تؤمِّل صرعته[٣] ، فإن لكل امرىء وإن كمل عقله واشتدت فطنته ، عيباً منه يُتسلق على غلبته ، وبه يُطمع فى خديعته ، وتجتهد فى أن تخرجه من البصرة . وقل عنى ماشئت وعجِّل علىَّ بخبرك وخبره يوماً فيوماً لأكون منه على علم .

قال المغيرة : فمضيت حتى دخلت البصرة فى الليل . فأتيت المسجد فى السحر ، فلم أعلم حتى أصابت المقصورة وجهى ولم أعرفها قبل ذلك ، فقلت : هذه إحدى سياسات زياد وحزمه . فجلست حتى خرج فصلّى الغداة ، ثم سلمت عليه فأكرم وتحفَّى[٤] ، ثم دخل منزله ودخلت معه ، فقال : ماأقدمك يامغيرة ؟ قلت : إن أمير المؤمنين وجهنى إليك مطالعاً (لك) ومتعرفاً خبرك فى نفسك وعملك[٥] . قال : كأنى وقد شاور الناس فأشاروا عليه بعزلى ، ثم شاورك فأشرت عليه بغير ذلك ، فقال : قاتلت عليًّا رضى الله عنه مع فضله وسابقته فغلبته ، فقلتَ له : أفيأمن معاوية أن يغلبه مَنْ هو دونه كما غلب هو مَنْ فوقه ، فرأيت رجلًا لا مطمع فيه ولا فى خديعته إلا من جهة ماقد دخله من الكِبْر وما يحب من بُعد الذكر . فقلت له : ذهبت فى غير مذهب ، (إن) أمير المؤمنين ليس لك على ماظننت ، ولا لهذا أو غيره مما تكره وجَّهنى ، ولكنه أرسلنى

---

(١) ينفث فى عقله : يلقى فيه ويلهمه .

(٢) الغرة : الغفلة .

(٣) الصرعة : المرة من صرع ، وصرعه غلبه .

(٤) تحفى : بالغ فى الإكرام .

(٥) فى ا : « وعلمك » .

لما تحب ، وستعلم هذا بما يرد عليك من كتبه . قال : فأين الكتب ؟ قلت : تأتيك بما يزيل عنك الشك .

ثم انصرفت فكتبت بما شاهدت إلى معاوية ، وأعلمته أن الرأى له أن يزوِّج عبيد الله بن زياد إحدى بنات معاوية ، وأن يزوِّج يزيد إحدى بنات زياد . فكتب معاوية بما أردت . ثم أوصلت الكتب إلى زياد فقرأها (وسُرَّ بها) وأظهرها لأصحابه ، وقال : هذا أمر صدر الرأى فيه عنك ؟ قلت : لم تغب عما حضرت من شأنك . وقلت له : لو شخصت إلى الكوفة فعقدت بها (هذا) العقد (الذى) يقرب منك يزيد بن أمير المؤمنين ، كان أحسن وأولى . فخرج يريد الكوفة ، وكأنه اتهمنى وخاننى ، فقال لى : تخلَّف بالبصرة فى موضعى إلى حين رجوعى إليك . فوجدت الفرصة فتخلفت ، وأصلحت قلوب أهل البصرة لمعاوية ، وأردت الوثوب على زياد من خلفه فسبقت به المنيَّة[1] .

قال : وخرج أبو سفيان[2] فى جماعة من قريش وثقيف يريدون بلاد

---

(١) توفى المغيرة قبل زياد ، وكان المغيرة والياً على الكوفة ، فضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جمع له ولاية العراقين : البصرة والكوفة . وقد توهم المؤلف بقوله هذا . (راجع مروج الذهب ٢ : ٦٨) .

(٢) أبو سفيان : هو صخر بن حرب بن أمية ، من سادات قريش وقوادهم فى الجاهلية ، وكان من رؤساء المشركين عند ظهور الإسلام ، وقد قاد جيوشهم فى معركة أحد وفى غزوة الخندق . إلا أنه أسلم يوم فتح مكة ، ودعا أهلها إلى الدخول فى الإسلام . وقد رحب الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلامه وسُرَّ به ، فاعتبر داره بمثابة الحرم ، كل من يدخله فهو آمن . وشهد بعض المعارك بعد ذلك إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم . كما اشترك فى معارك الفتح الإسلامى ، فعمى فى معركة اليرموك حيث كان يحارب تحت راية ابنه يزيد . وهو أبو معاوية مؤسس الدولة الأموية فى الشام .

كسرى بتجارة لهم . فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال : إنا من مسيرنا هذا لعلىٰ خطر ، إنما قدومنا على ملك لم يأذن لنا فى القدوم عليه ، وليست بلاده لنا بمتجر . ولكن أيّكم يذهب بالعِير ، فإن أصيب فنحن براء من دمه ، وإن يغنم فله نصف الربح ؟ فقال غَيْلان بن سَلَمة الثقفى[١] : دعونى إذن ، فدخل الوادى يضرب فروع الشجر وهو يقول :

فلو رآنى أبو غَيْلان إذ حسرت   عنى الأمور إلى أمر له طبق
لقال رعب ورهب يَجمعان معًا   حب الحياة وهول الفضل والشفق
إما تَشَفٌّ على مجدٍ ومكرمةٍ   أو أسوة لك فيمن يُهلك الورق[٢]

ثم قال : أنا صاحبكم . فخرج بالعِير . فلما قَدِم بلاد كسرى ، وكان أبيض طويلًا جعداً ، فتحاق ولبس ثوبين أصفرين وشهر أَمره . وقعد بباب كسرى حتى أُذن له فدخل ، وبينهما شباك من ذهب . فقال له الترجمان : يقول لك الملك ما آدخلك بلادى بغير إذنى ؟ قال : لست من أهل عداوة لك ، ولم آتك جاسوسًا ، وإنما حملت تجارةً ، فإن أردتها فلَكَ ، وإن كرهتها رددتها . قال : فإنه لَيتكلم إذ سمع صوت كسرى فخرّ ساجداً . فقال الترجمان : يقول لك الملك : ما أسجدك ؟ قال : سمعت صوتاً مرتفعاً حيث لا ترتفع الأصوات فظننته صوت الملك فسجدت . قال : فشكر له ذلك وأمر له بمرفقة[٣] توضع تحته ، فرأى عليها صورة فوضعها على رأسه . قال: فاستخفّه عند نفسه وقال : إنما بعثنا

---

(١) غيلان بن سلمه الثقفى ، حكيم وشاعر جاهلى ، أدرك الإسلام وأسلم . وكان من وجوه بنى ثقيف وممن وفد على كسرى . كان عنده عشر نسوة فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختار أربعاً منهن ، فصار ذلك سنة .

(٢) الورق : الحى من كل حيوان .

(٣) المرفقة : المخدة .

بها إليك لتقعد عليها . قال : قد علمت ، ولكنى رأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم أعضائى . قال : ما طعامك فى بلادك ؟ قال : الخبز . قال : هذا عقل الخبز . ثم اشترى منه التجارة بأضعاف أثمانها ، وبعث له من بنى له أطمًا[1] بالطائف ، فكان أول أطم بالطائف .

وعن ابن عيّاش قال : كانت عاتكة[2] بنت يزيد بن معاوية — وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر — تحت عبد الملك بن مروان . فغضبت عليه ، فطلب رضاها بكل شىء فأبت . وكانت من أحب الناس إليه . فشكى ذلك إلى خاصته . فقال عمر بن بلال — رجل من بنى أسد — : مالى إن رضِيَت ؟ قال : حكمك . قال : فخرج فجلس فى[3] بابها يبكى ، فقالت له حاضنتها : مالك أبا حفص ؟ قال : العجب ، فزعت إلى ابنة عمى ، فاستأذنى لى عليها ، فأذنت له وبينها وبينه ستر . فقال : قد عرفتِ حالى عند أمير المؤمنين معاوية ، وأمير المؤمنين يزيد ، وأمير المؤمنين مروان (وعند) أمير المؤمنين عبد الملك ، ولم يكن لى غير ابنين ، فعدا أحدهما على صاحبه فقتله ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل الآخر ، قلت : أنا ولى الدم وقد عفوت . فقال : ما أحب أن أعوِّد رعيتى هذا ، وهو قاتله بالغداة . فأنشدك الله (أن تشفعى لى) . قالت : ما أكلمه . قال : ما أظنك تكسبين شيئاً أفضل من إحياء نفس . فلم يزل بها خدمها وحواضنها وحاشيتها حتى قالت : علىَّ بثيابى ، فلبست . وكان بينها وبين عبد الملك باب ، وكانت قد ردمته ، فأمرت بفتحه ، ثم أقبلت فدخلت . فأقبل خُديج الخصىّ يشتد[4]

---

(١) الأطم : الحصن وجمعها آطام .

(٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، أم يزيد بن عبد الملك . تزوجها عبد الملك وأحبها حباً عظيما . عرفت بالدهاء كجدها معاوية . وكانت ممن حدّث بالشام .

(٣) فى ب : « على » .

(٤) أقبل يشتد : أقبل مسرعاً فى مشيه .

فقال : ياأمير المؤمنين ، هذه عاتكة . قال : ويلك ، أرأيتها ؟ قال : نعم . قال : فبينا هما فى حديثهما إذ طلعت وعبد الملك على سريره ، فسلَّمت فسكت . فقالت : أما والله لولا مكان عمر بن بلال ما فعلت ولا أتيتك ، اللهَ لئن عدا أحد بنيه على الآخر فقتله ، وهو الولى وقد عفا لتقتلنه ؟ قال : أى والله وهو راغم . قالت : أنشدك الله أن لا تفعل . فسكت ، فدنت منه فأخذت بيده فأعرض ، فأخذت برجله فقبلتها . فقال : هو لكِ ، فتراضيا ، قال : فراح عبد الملك فجلس مجلسه للخاصة ، فدخل عمر بن بلال فقال : أبا حفص ، الحكم ؟ قال : ياأمير المؤمنين ألف دينار ومزرعة بما فيها من الرقيق والآلة . قال : هى لك . قال : وفرائض لولدى وأهل بيتى ؟ قال : هى لك ، فأنفذ ذلك كله .

حكى أن مُصعب بن الزبير قدم الكوفة ومعه الأحنف ، فقال الناس : قدم الأحنف بأهل البصرة . قال : فجئنا ننظر وهو فى المسجد الأعظم وقد احتبى بسيفه ، ووضع مرفقه على ركبتيه ويده على خده ، وقد أطاف به بنو تميم . فكلمهم الأحنف بشىء فقالوا : لا ، فأطرق الأحنف ساعة ثم رفع رأسه إلى الناس وقال : إن بنى تميم خيل ضعاف تأبى الشىء ثم ترجع بعده ، فقالوا : نعم نعم .

وحُكِىَ عن الأصمعى[(١)] أنه قال : قال هِشام بن عُقْبة[(٢)] شهدتُ الأحنف

---

(١) الأصمعى : عبد الملك بن قريب الباهلى ، من أهل البصرة . راوية العرب وأحد أئمة اللغة والشعر . كان كثير التطواف فى البوادى يقتبس أخبار العرب ونوادرهم ويحفظ أشعارهم وكلامهم . وله عدة مؤلفات فى اللغة والنوادر . توفى سنة ٢١٦ هـ (وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٤ — ٣٤٩) .

(٢) هشام بن عقبه العدوى : شاعر من أخوة ذى الرمة وكان أكبر منه ، وهو الذى رباه .

وقد جاء إلى مقبرة بنى تميم فى دمٍ ، فقال : احتكموا ، قالوا : ديتين ، قال : ذاك لكم . فلما سكتوا ، قال : إنى قائل قولًا لا أقوله راجعًا عما جعلت لكم ، ولكن الله فضَّل دينه ، والسلطان يأخذ دِيَةً ، والعرب بينها تتعاطى دِيَةً ، وأنتم اليوم طالبون ، وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين ، فلا ترضى منكم العرب إلَّا بمثل ما سننتم ، قالوا : فقد رددناها إلى دِيَةٍ . فحمد الله تعالى وقام . قال : وما جاء معه بأحد . فلما قام رأيت رداءه مشمراً عن قميصه ، وقميصه مشمراً عن إزاره ، وإزاره مشمراً عن كعبه .

وحَكَى الهيثم عن ابن عيَّاش : أن معاوية لما بايع ليزيد وأتى إلى المدينة يريد الحج ، بلغه عن الحسين بن على وابن الزبير وابن عمر وابن أبى بكر ما يكره(١) فدعاهم معاوية فقال : يا هؤلاء ، إن الناس قد بايعوا لهذا الرجل ، وقد بلغنى عنكم ما أكره ، وما أردت بهذا الأمر إلاَّ الذى هو خير . وقد كان ابن الزبير قال لأصحابه : ولّونى كلامه ، فولوه إياه . فقال ابن الزبير : يا هذا ، إن ابنك لبس بخير ممن مضىٰ ، فإن أحببت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستخلفوا خيرهم ، وإن أحببت أن تختار لها كما اختار لها أبو بكر رضى الله عنه ، فإنه قدَّم أفضل مَنْ يعلم ، وإلّا فاجعلها شورىٰ كما جعلها عمر رضى الله عنه ، حتى يأتمر المسلمون فى أمرهم . فقال معاوية : يا هؤلاء ، إنى أكره معرَّة أهل الشام ، ولكنى متكلم وذاكر البيعة فاسكتوا وأنتم على ما أردتم من أمركم .

فخرج معاوية وألزم كل واحد منهم حرساً ، وقال : إن تكلم واحد منهم فاضربوا عنقه . ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : إن هؤلاء

---

(١) ابن الزبير هو عبد الله ، وابن عمر هو عبد الله ، وابن أبى بكر هو عبد الرحمن . وكان هؤلاء الأربعة من أبناء الصحابة من المعارضين لتولية يزيد الخلافة بعد معاوية وامتنعوا عن مبايعته .

قد تكلموا ، وبلغنى عنهم أمر ثم بايعوا ، فقوموا فجددوا بيعتكم . وسكت القوم . وكان نافع مولى ابن عمر يقول : قال ابن عمر يومئذٍ : خدع والله القوم وقلّدهم إياها فى أعناقهم . ثم وصلَ القومَ وأحسن إليهم . ثم أتى مكة فوجّه إلى وجوه الآفاق فبايعوا . ثم انصرف إلى الشام ، فلم يزل يتخوّف هؤلاء القوم على يزيد بعده[1] .

حكى الهيثم عن ابن عياش قال : كان بين طلحة بن عبيد الله[2] والزبير ابن العوام[3] مدرة[4] فى وادٍ بالمدينة يقال له قناة . وهو موضع قبور الشهداء ، أعلاه لآل الزبير وأسفله لآل طلحة . فقالا : نجعل بيننا مَنْ ينظر فى هذا الأمر ، فجعلا عمرو بن العاص ، أتياه فقالا له : إنا جعلناك بيننا حَكَمًا فى أمرٍ شَجَر ، فاسمع واقضِ فيه برأيك . فقال : مرحباً بكما وأهلاً ، وأنتما فى فضلكما وقديم سابقتكما ونِعَمَ الله عليكما ، وقد سمعتما من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ماسمعت ، وحضرتما مثل ماحضرت ، مَنْ اقتطع من أخيه شبراً من

---

(١) راجع نص هذا الخبر فى البدء والتاريخ ٦ : ٦ — ٧ .

(٢) طلحة بن عبيد الله القرشى ، صحابى وأحد العشرة المبشرة بالجنة . ومن السابقين فى الإسلام . كان من الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة بعده : وكان من دهاة قريش ومن علمائها . شهد أكثر الحروب مع الرسول صلى الله عليه وسلم . واشتهر بالجود والتسامح . قتل يوم الجمل وكان يحارب علياً إلى جانب عائشة .

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى القرشى صحابى وأحد العشرة المبشرة بالجنة . وهو ابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهد أكثر الحروب إلى جانبه . كان من الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة بعده . وكان تاجراً غنياً . قتل يوم الجمل وكان يحارب مع عائشة .

(٤) المدرة : القرية .

الأرض بغير حقه طوّقه الله من سبع أرضين[١] . والحَكَمُ أحوج إلى العدل من المحكوم عليه ، وذلك أن الحَكَمَ إذا جارَ زرى دينه[٢] ، والمحكوم عليه إذا جِير عليه زرى عَرَضَ الدنيا . فأدليا حجتكما وإن شئتما فأصلحا أمركما . فاصطلحا وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضى .

حَكى المدائنى قال : تنافر[٣] عامر بن الطفيل[٤] وعَلْقَمة[٥] إلى هَرِم

---

(١) ورد هذا الحديث فى كتب الحديث الرئيسية بنصوص متباينة ولو ان معانيها واحدة . وأقربها إلى هذا النص ماورد فى «نيل الأوطار ٥ : ٣١٧» وهو : « من اقتطع شيئاً من الأرض بغير حقه طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين » . وجاء فى : « الفتح الربانى ١٥ : ١٤٥ » ما يلى : « ... عن طلحة بن عبد الله بن عوف قال : أتتنى أروى بنت أويس فى نفر من قريش فيهم عبد الرحمن بن عمرو بن سهل ، فقالت : إن سعيد بن زيد انتقص من أرضى إلى أرضه ما ليس له ، وقد أحببت أن تأتوه فتكلموه . قال : فركبنا إليه وهو فى أرضه بالعقيق ، فلما رآنا قال : قد عرفت الذى جاء بكم وسأحدثكم ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : من أخذ من الأرض ما ليس له طوّقه إلى السابعة من الأرض يوم القيامة » .

(٢) زرى بالأمر : عابه ووضع من شأنه .

(٣) تنافر : المنافرة فى الجاهلية ، أن يحتكم المتفاخرون إلى من يفاضل بينهم ويحكم لأفضلهم .

(٤) عامر بن الطفيل بن جعفر العامرى ، كان فارس قومه وأحد فتاك العرب فى الجاهلية ، وكان شاعراً كريماً وفارساً جريئاً ، وهو ابن عم لبيد الشاعر . أدرك الإسلام ووفد إلى المدينة ولكنه لم يسلم .

(٥) علقمة بن عُلاثه بن عوف من الصحابة من بنى عامر ، كان من أشراف قومه فى الجاهلية وقد وفد على قيصر ، أسلم ثم ارتد فى زمن أبى بكر ، ثم عاد إلى الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب فولاه حوران . كان جواداً كريماً .

ابن قُطْبَه الفَزارى[١] . فضرب لهما القباب ونحر لهما الجُزُر . فلما أمسى أتى عامراً فقال : ياعامر ، أَرجوتَ أن أنفِّرك على علقمة وهو أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة ، وجدّه الأحوص سيد بنى عامر ؟ وعدَّ مناقبه ، ثم دخل على علقمة فقال : ياعاقمة ، أرجوتَ أن أنفِّرك على عامر وهو أفرس العرب وأشهرها ؟ وعَدَّ مناقبه . فلما أصبح دعا بهما فقال : أنتما عندى كركبتى البعير[٢] ، قالا : فأيهما اليمنى ؟ قال : كلتاهما يمنى . فلما قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ياهَرِمُ ، لو كنت منفِّراً مَنْ كنت تنفِّر ؟ قال : ياأمير المؤمنين إلىَّ تخطب عقلى ، ولو قلت ذاك اليوم دخلت عليهما قبورهما . قال عمر : مثلك فليستودع القوم أحسابهم .

(١) هرم بن قطبة بن سيّار الفزارى ، من قضاة العرب فى الجاهلية كان يحتكم إليه المتنافرون . وكان خطيباً بليغاً ، أدرك الإسلام وأسلم وعاش حتى أيام عمر بن الخطاب .

(٢) يقال هما كركبتى البعير ، مثل يضرب للاثنين يستبقان فيستويان ، ومثله قولهم : هما كفرسى رهان . (مجمع الأمثال ٢ : ٣٩١ — ٣٩٢) .

الباب العاشر

في التضريب والإغراء [1]

حُكِىَ أن بنى قُرَيْظَة كان لهم حصن بقرب المدينة ، وكانوا يهوداً . فلما غزت الأحزاب [2] ، وهم قريش وكنانة وغَطَفان ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خندق النبى صلى الله عليه وسلم خندقاً على المدينة . وأرسلت الأحزاب إلى بنى قريظة على أن يعينوهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال نُعَيْم ابن مسعود الثقفى [3] : كانت قريظة أهل شرف وأموال ، وكنا عرباً لا نخل لنا ولا حرم [4] وإنما نحن أهل شاء وبعير . فكنت أقدم على كعب بن أسد

---

(١) التضريب : الاستفزاز والتهييج .

(٢) غزوة الأحزاب : تحالف يهود المدينة من بنى النضير مع قريش وغطفان على محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونقضت بنو قريظة عهدها مع الرسول وانضمت إلى أعدائه . وكان قائد قريش أبو سفيان بن حرب . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بحفر خندق حول المدينة بإشارة من سلمان الفارسى ، فحاصرت جيوش المشركين المدينة . واستمر الحصار قرابة الشهر ، اقتصرت الحرب فيه على المناوشات البسيطة وبعض المبارزات . وانتهت الحملة بفشل المشركين وانصرافهم خائبين لم ينالوا شيئاً .
راجع : تاريخ الأمم الإسلامية ١ : ١٧٧ — ١٨٥ .

(٣) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى . كان من دهاة العرب ، أسلم وكتم إسلامه عن قومه . ولعب دوراً مهما فى تفريق كلمة الأحزاب المجتمعة لحرب المسلمين .

(٤) كذا فى الأصل ، ولعل الصحيح « لا نخـــل لنا ولا جُرْم » والجرم قطف ثمر النخل .

من بني قريظة ، وأقيم عندهم الأيام وأشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ، ويحملوننى تمراً على ركابى ما كانت ، فأرجع إلى أهلى . فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثرب ، سرت مع قومى وأنا على دينى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بى عارفاً . فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب وهلك الخف والكراع . وأدخل[١] الله سبحانه وتعالى فى قلبى الإسلام ، وكتمت عن قومى إسلامى . فأخرج حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء فأجده يصلى ، فلما رأنى جلس ثم قال : ما جاء بك يا نُعيم ؟ قلت : إنى جئت أصدقك ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن ما جئت به حق ، فمُرْنى بما شئت يارسول الله ، فوالله لاتأمرنى بأمرٍ إلاَّ مضيت له . وقومى لا يعلمون بإسلامى ولا غيرهم .

قال عليه السلام : ما استطعت أن تُخَذِّل فافعل[٢] . قال ، قلت : افعل ولكن يا رسول الله أقول ؟ فأذن لى ، قال : قل ما بدا لك وأنت فى حلٍّ . قال : فذهبت حتى أتيت بنى قريظة ، فلما رأونى حيوا وأكرموا وعرضوا علىَّ الطعام والشراب . قلت : إنى لم آت لشىء من هذا إنما جئتكم نصباً[٣] بأمركم وتخوفاً عليكم ، لأشير عليكم برأى . وقد عرفتم ودّى إياكم وخاصية ما بينى وبينكم . قالوا : قد عرفنا ذلك ، وأنت عندنا على ما تحب من الصدق والبر . قلت : فاكتموا علىَّ . قالوا : نعم . قلت : أمر هذا الرجل بلاء ، أعنى النبى صلى الله عليه وسلم ، صنع ما قد رأيتم ، ببنى قينقاع وبنى النضير قوم

---

(١) فى ب : « وقذف » .

(٢) روى ابن ماجه عن عائشة قالت : إن نعيم بن مسعود قال : يا نبى الله إنى قد أسلمت ولم أُعلم قومى بإسلامى ، فمرنى بما شئت . فقال: إنما أنت فينا كرجل واحد، فخادع إن شئت ، فإنما الحرب خدعة . فتح القدير : ٢ : ٤١١ .

(٣) كذا فى الأصل ، ولعلها « سعياً بأمركم » أى اهتماماً به .

من اليهود ، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال . وكان ابن أبى الحقيق[١] ، يعنى رجلاً من اليهود ، قد ساد فينا واجتمعنا معه لنصركم . وأرى الأمر قد تطاول كما ترون ، وإنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان سواء . أولئك قوم جاءوا سيَّارة حتى نزلوا حيث رأيتم ، إن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كانت الحرب أو أصابهم ما يكرهون ، مرُّوا إلى بلادهم ، وأنتم قوم لا تقدرون على ذلك . البلد بلدكم وفيه أبناؤكم ونساؤكم وأموالكم . وقد غلظ عليهم جانب محمد صلى الله عليه وسلم ، أجلبوا[٢] عليهم أمسِ إلى الليل فقُتل رأسهم عمرو ابن ودّ وهربوا هرباً . وهم لاغنًى بهم عنكم لِمَا يعرفون عندكم . فلا تقاتلوا مع قريش ولا غطفان حتى (تأخذوا منهم رهناً من ساداتهم تستوثقون به منهم ، لا يبرحون) حتى يناجزوا محمداً . قالوا : أشرت بالرأى علينا والنصح . ودعوا لى وشكروا ، وقالوا : نحن فاعلون (ذلك) ، قال : ولكن اكتموا علىَّ ، قالوا : نفعل .

ثم أخرج حتى آتى أبا سفيان بن حرب فى رجال من قريش ، فقلت : يا أبا سفيان قد جئتك بنصيحة فاكتم علىَّ ، قال : أفعل ، قلت : تعلم أن بنى قريظة قد أقدموا على ما فعلوا بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أرادوا استصلاحه ومراجعته . فأرسلوا إليه وأنا عندهم : إنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلًا نسلمهم إليك تضرب أعناقهم ، وتردّ جناحنا الذى كسرته إلى ديارهم ، يعنون بنى النضير ، وتكون معك على

---

(١) هو سلام بن أبى الحقيق من يهود بنى النضير وأحد ساداتهم .
(٢) أجلب القوم : ضجوا واختلطت أصواتهم ، وأجلبوا عليهم : هجموا عليهم .

قريش حتى نردهم عنك . فإن بعثوا إليكم يسألونــكم رهناً فلا تدفعوا إليهم ، واحذروا على أشرافكم . ولــكن اكتموا علىَّ ولا تذكروا من هذا حرفاً ، قالوا : لا نذكره .

ثم خرجت حتى صرت إلى غطفان ، فقلت : يا معشر غطفان ، قد عرفتم أنى رجل منكم فاكتموا علىَّ ، واعلموا أن بنى قريظة بعثوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقلت لهم مثل ما قلت لقريش ، فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم . وأرسلت يهود قريظة رجلًا منهم يقال له عِراك بن سِماك إلى أبى سفيان بن حرب وأشراف قريش : إن ثواكم[1] قد طال ولم تصنعوا شيئاً ، وليس الذى تصنعون برأى . إنكم لو وعدتمونا يومًا تزحفون إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فتأتون من وجه وتأتى غطفان من وجه ، ونخرج نحن من وجه آخر لم يفلت من بعضنا . ولــكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا برهائن من أشرافكم يكونون عندنا ، فإنا نخاف إن مسّتكم الحرب أو أصابكم ما تــكرهون تشمرتم[2] وتركتمونا فى عقر دارنا ، وقد نابذنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالعداوة . وانصرف الرسول إلى بنى قريظة ولم يرجعوا إليهم شيئاً . وقال أبو سفيان : هذا ما قال نُعيم .

فخرجتُ إلى بنى قريظة فقلت : يا معشر بنى قريظة ، أَنا عند أبى سفيان حين جاء رسولكم إليه يطلب منه الرهائن فلم يرد عليه شيئاً . فلما ولّى قال : لو طلبوا منى عقالًا[3] ما أرهنته إياهم ، فأنا أرهنهم سراة أصحابى يدفعونهم

---

(١) الثوى : المقام .

(٢) أى أسرعتم فى الهرب .

(٣) العقال : الحبل الذى تربط به الإبل .

إلى محمد صلى الله عليه وسلم يقتلهم . قرّوا رأيكم ولا تقاتلوا مع أبي سفيان وأصحابه ، حتى تأخذوا منه الرهن ، فإنكم إن لم تقاتلوا محمداً صلى الله عليه وسلم وانصرف أبو سفيان بن حرب ، تكونوا مع محمد صلى الله عليه وسلم على موادعتكم الأولى ، قالوا : نرجو ذلك يا نُعيم ، قلت : نعم . قال كعب : فإنا لا نقاتله والله أبداً ، والله لقد كنت لهذا كارهًا ، ولكن حُيَي بن أخطب رجل مشؤوم . قال الزبير بن باطا : إن انكشفت قريش وغطفان عن محمد صلى الله عليه وسلم لم يقبل منهم إلا السيف ، قال نُعيم : قلت : لا تخشين ذلك يا أبا عبد الرحمن . قال الزبير : بلىٰ ورب التوراة ، ولو أصابت اليهود رأيها وقد لحم الأمر لتخرجن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا تطلبوا من قريش رهناً فإنها لا تعطينا رهناً أبداً ، وعلامَ تعطينا رهناً وعددهم أكثر من عددنا ، ومعهم كراع ولا كراع معنا ، وهم يقدرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه . وهذه غطفان تطلب إلى محمد صلى الله عليه وسلم (أن يعطيها بعض تمر الأوس والخزرج وتنصرف ، فأبَى محمد صلى الله عليه وسلم) إلّا السيف(1) ، وهم ينصرفون بغير شيء .

فلما كانت ليلة السبت ، كان مما صنع الله عز وجل لنبيه عليه السلام أن قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إن الجناب قد أجدب وهلك الكراع والخف ، وغدرت يهود وكذبت ، وليس هذا بخير مقام ، فانصرفوا . قالت قريش : فاعلم يهود واستكشف خبرهم . فبعثوا عكرمة بن أبي جهل حتى أتى بني قريظة

---

(١) عندما اشتد الحصار على المدينة حاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفرق كلمة الأحزاب . فبعث إلى زعيمي غطفان ، عيينة بن حصين والحارث بن عوف يفاوضهما على ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما عن حرب المسلمين ، فوافقا على ذلك . إلا أن بعض أصحاب الرسول رفضوا ذلك وقالوا : ليس لهم عندنا إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فأخذ برأيهم . (الطبرى طبعة م ، ٢ : ٥٧٢-٥٧٣).

عند غروب الشمس مساء ليلة السبت ، فقال : يا معشر بنى قريظة ، قد طال اللبث وجهد الخف والكراع وأجدب الجناب ، ولسنا بدار مقام . اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نناجزه بالغداة . قالت اليهود : إنَّ غداً يوم السبت ونحن لا نعمل فيه شيئاً ، وإنا مع ذلك لا نقاتل معكم أبدا إذا انقضى سبتنا حتى تعطونا الرهائن من رجالكم يكونون معنا بأن لا تبرحوا حتى نناجز محمداً صلى الله عليه وسلم . فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب أن تتشمروا إلى بلادكم وتَدَعونا وإيَّاه ولا طاقة لنا به .

فرجع عكرمة إلى أبى سفيان فأخبره بما ردَّت يهود . فقال أبو سفيان : أحلف بالله إنَّ الخبر هو الذى جاء به نُعيم . فكرر أبو سفيان وغطفان الرسل إلى يهود ، فردَّت عليهم يهود كالمرَّة الأولى . وقالت لمَّا كثر ترداد الرسل إلى يهود : نحلف بالله إن الخبر كما قال نُعيم . فانصرفت الأحزاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وغزا يهود بنى قريظة(١) . وكان نُعيم يقول : أنا أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرِّه ، وأنا فرَّقت الأحزاب عنه(٢) .

وحُكِىَ أنه كان للمتوكل على الله ولأحمد أخيه معلم يُقال له إسماعيل ابن غيث . فلما ولى المتوكل الخلافة انضم إسماعيل المؤدب إلى أحمد بن المعتصم ، فغلب على قهرمته وأمر قصره ، فخانه خيانة فاحشة . فأسند أحمد أمره إلى يعقوب بن إسحاق الكندى المنجم(٣) ، فنصحه وكشف عن خيانات

---

(١) على إثر انسحاب قريش وحلفائها ، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه بالمسير إلى بنى قريظة ، فحاصرهم حتى فتح حصنهم وشتتهم فأمن جانبهم .

(٢) راجع عن دور نعيم بن مسعود فى غزوة الأحزاب : الطبرى طبعة : م ٢ : ٥٧٨ — ٥٧٩ .

(٣) أبو يوسف ، فيلسوف العرب والإسلام فى عصره . نشأ فى البصرة وانتقل إلى بغداد وبها تعلم . واشتهر بالطب والفلسفة والفلك والهندسة والموسيقى . =

إسماعيل . فكتب إسماعيل المؤدب إلى المتوكل رقعة يخبره فيها ، أن يعقوب ابن إسحاق الكندى يقول لأحمد بن المعتصم ، إنه يرى له فى النجوم أنه يملك الأمر بعد أخيه ، وأن بيعة ولاة العهود لا تتم . ثم جاء إسماعيل بالرقعة إلى محمد بن موسى المنجم[1] فدفعها إليه ، وكان بينه وبين الكندى مباعدة . فأوصل الرقعة محمد بن موسى إلى المتوكل على الله . فغضب على أخيه أحمد ، ووكّل بمنزله قصر الجص ، وأمر بالكندى أن يُحبس فى أضيق المحبوس ، ووكّل بضياع أحمد .

ولم يعلم أحمد من أين أُتىَ . وكان المتوكل وأحمد ولدا فى سنة سبع ومائتين ، وكانت أم المتوكل[2] ترأف على أحمد لأنها أرضعته . وكلمت المتوكل فى أحمد وقالت له : غضبت على أخيك لشبهة لم تصح عندك . قال لها : إن الرافع عليه مؤدّبنا إسماعيل بن غيث ، وهو ثقة عندى . فوجهت أم المتوكل إلى أحمد

= وألف وترجم وشرح كتباً كثيرة . وقد أصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة وإكراماً بالغاً . إلا أنه لقى بعض المتاعب فى زمن المتوكل ، إذ ضرب وأخذت كتبه بتأثير الوشاة ثم ما لبث أن نال العفو ، فردت إليه كتبه . توفى سنة ٢٦٠ هـ .

(١) هو أحد الأخوة الثلاثة الذين اشتهروا باسم « بنى موسى » وإليهم تنسب حيل الميكانيك ، وكان عالماً بالهندسة والموسيقى والفلك ، وكان مقرباً من المأمون والخلفاء من بعده ، يرجعون إليه فيما يستعصى عليهم من آراء الحكماء المتقدمين . وقد استعان المأمون بالأخوة الثلاثة فى التثبت من مقدار محيط الكرة الأرضية ، فقام الأخوة بقياس ذلك وتحقق لهم صحة قول القدماء من أن محيط الأرض أربعة وعشرون ألف ميل ، وذلك بعد أن ثبت لهم أن كل درجة من درجات الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلا وثلثا الميل . راجع عن الطريقة التى اتبعوها : وفيات الأعيان ٤ : ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٢) وهى أم ولد خوارزمية ، يقال لها شجاع .

تعْلمه ذلك ، وتأمره أن يدعو إسماعيل فيردَّه إلى ما كان عليه من أمره ويصله ويرفع قدره . ثم يقول له بلغنى أنك رفعت رقعةً علىَّ إلى السلطان ، فإنه سيجحد ذلك . فخذ رقعة بخطه أنه لم يرفع عليك شيئاً ، وأن كل ما قيل عنه فى رقعته فباطل ، وليجعل فى رقعته يميناً بالله وبحياة أمير المؤمنين ، ثم انفذ الرقعة إلىَّ .

فتعطَّف أحمد بن المعتصم لاسماعيل بن غيث حتى أخذ رقعته بذلك ، وأنفذها إلى أم أمير المؤمنين ، فدفعتها إلى ابنها وقالت له : هذا خط إسماعيل ينكر ما رفع على أخيك ، وإنما كان سببه أنه استكفاه فخانه فكشف خيانته . فلما قرأ المتوكل رقعة إسماعيل استشاط غضباً عليه ، ثم قال : يرفع إلىَّ على أخى ما يوجب قتله ، ثم يكتب رقعة يجحد ذلك وأنا أعرف خطه . فرضى عن أحمد أخيه وأقطعه غلة عشرة آلاف دينار ، وأخرج الكندى من حبسه . وأمر بإسماعيل فصُيِّر فى ذلك الحبس ، فمكث فيه حتى هلك .

وحُكِىَ أن كلثوم بن مرة العجيلى ، كان يحارب ابن أخيه دُلف بن عياض ابن عاصم ، فبقى كلثوم مشرداً عن الدِّينَوَر[١] زماناً طويلاً . فشاور بعض نصحائه ، فقال له ناصحه : دُلَف رجل مستقر فى مدينته الدينور ، وأموالها تُجْبى إليه ، وأنت مُشرَّد فى صعاليك يصحبونك على الغارة على الناس ولا يناصحونك فى حرب . وعندى لك ولدُلَف مثلٌ . قال كلثوم : وما هو ؟ قال : ذُكر فى كتاب كليلة ودمنة ، أن غراباً كان يُفرِّخ فى شجرة وكان تحتها جحر لحيَّة عظيمة ، وكان الغراب كلما أفرخ فشوَّكت فراخه ، طلبت

---

(١) الدينور : مدينة فى منطقة الجبال فى بلاد فارس قرب مدينة همذان .

الحية غِرَّةً منه ثم انسابت إلى فراخه فأكلتها ، فشقَّ ذلك عليه ، وهمَّ بمحاربتها . فقال له غراب كان يوده : إن الذى عزمت عليه من محاربة الحيَّة خطأ ، لأنها أعظمُ منك جسماً وأحدُّ ناباً ، وأنهـا إن التفَّت عليك قتلتك . قال : فما الحيلة ؟ قال : إنَّ بقربك جحراً لدلق(١) عظيم وطبعه عداوة الحيَّة . وقد كان يقال عدوُّ عدوِّك صديقُك . فاحتمل قطعاً من لحم وخبز ، فانظمها من جحر الدلق إلى جحر الحيَّة ، فإن الدلق يأكل ما نظمت له أولاً فأولاً حتى يقف على باب جحر الحيَّة . فيتردد يطلب ما عوَّدته ، ولا تقطعه عنه . فإنه متى ما ظفر بالحيَّة قاتلها وأكلها فاستغنيت وسلمت . ففعل الغراب ذلك بالدلق . فأكل الدلق ما نظم له الغراب حتى بلغ جحر الحيَّة فلم يزل يتردد إلى جحرها حتى صارت الحيَّة خارج جحرها ، فنشبت الحرب بينهما والغراب ينظر ، حتى قتلها الدلق وأكلها(٢) .

---

(١) الدلق : حيوان وحشى يقرب من السنور فى حجمه ، أصفر اللون وفى بطنه وعنقه بياض .

(٢) لم ترد هذه الحكاية بهذا الشكل فى كتاب كليلة ودمنة . فقد راجعنا طبعة دار المعارف من الكتاب المذكور ، وهى أصح وأكمل طبعة بالعربية على ما نعلم ، فلم نجد هذه الحكاية بنصها الوارد هنا . وفى الطبعة المشار إليها حكايتان تشبهان هذه ، إحداهما « حكاية الغراب والأسوَد » ص : ٦٣ — ٦٦ ، والأخرى « حكاية العلجوم والأسود وابن عرس » ص : ٩٢ — ٩٣ . على أن عدم وجود هذه الحكاية بنصها هذا فى الطبعة المشار إليها من كتاب كليلة ودمنة ، لاتدل على أنها لم ترد فى هذا الكتاب المذكور . إذ ربما كان مؤلف كتابنا هذا قد اطلع عليها فى إحدى النسخ المتيسرة من الكتاب فى عهده ، ولم يُعثر عليها بعد .

لـكنى أرى لك أن تصير إلى يعقوب بن الليث الصفّار[١] فتغريه بالجبل ، وتجتهد أن تقع بين أصحابه وبين أصحاب دلف حرب ، فيكفيك يعقوب مؤونته . ففعل كلثوم ذلك . فوجّه يعقوب بن الليث (أحمد بن عبد العزيز) وعزيز بن عبد الله إلى الجبل ، فهرب منهما دلف بن عياض . ثم لم يطل ذلك حتى عاد الأمر إلى دلف بتشريد أحمد بن عبد العزيز وعزيز بن عبد الله عن الجبل[٢] .

وحُـكِيَ أن حُجراً أبا امرىء القيس الـكندى ، لمـا حارب بنى أسد وحاربت معهم تميم والرباب ، قتلت بنو أسد حُجراً . فشخص امرىء القيس بن حُجر إلى ملك الروم يستجيشه[٣] على بنى أسد . وخرج معه الطماح القيسى[٤] . فلما ورد امرؤ القيس على ملك الروم أكرمه وعظّمه وأجابه إلى ما سأل من النجدة . فـكره ذلك الطمّاح لِمـا خاف على بنى أسد من البوار ، وتعصب للمضرية ، وخاف أن تعلو كندة على مضر ثانية . وكان امرؤ القيس رجلاً جميلاً بهيًّا ، فدسّ الطمّاح على لسان امرىء القيس إلى بنت ملك الروم

(١) هو مؤسس الدولة الصفارية . كان فى صغره صفاراً ، وقد تطوع لقتال الخوارج ، وما لبث أن جمع بعض المغامرين حوله فاشتدت شوكته فتغلب على سجستان وهراة ثم أوغل فى تركستان ، واستولى على فارس . وقد توجه على رأس جيشه إلى بغداد للاستيلاء عليها وإخضاع الخليفة المعتمد على الله ، فقاتله الجيش العباسى ورده ، فعاد إلى فارس ومات فى جنديسابور سنة ٢٦٥ هـ . (وفيات الأعيان ، ٥ : ٤٤٤ – ٤٧٦) .

(٢) الجملة فى الأصل مرتبكة وقد صححناها بهذا الشكل استناداً إلى القسم الأول من الفقرة .

(٣) يستجيشه : يحرضه على المعاونة ، ويستجيش الجيش يجمعه .

(٤) الطماح القيسى : من وجوه بنى أسد وكان امرؤ القيس قد قتل خاله

يراسلها ويغازلها . فنظرت ابنة ملك الروم إلى امرىء القيس (فأعجبها جماله وهيبته ولبسته فعشقته ، وكانت تبعث إليه) بألطاف[١] من طيب وجوهر وغير ذلك . فيحبسها الطمّاح ويجيب عنه . ويوهمها أن امرأ القيس لا يحب أن يظهر نفسه وأن الطمّاح واسطة بينهما . حتى إذا شخص امرؤ القيس عن ملك الروم بكتبه إلى جنده بالشام فى إنجاد امرىء القيس ، تخلّف الطمّاح عن امرىء القيس متمارضاً .

ثم دخل إلى ملك الروم فقال له : إن هذا العربى قد فعل فعلاً يجب به قتله . فإن أمننى الملك خبّرته بغشه له ، فأمّنه الملك على نفسه ، فأخرج إليه ما كانت ابنة الملك تهدى إلى امرىء القيس . فلما رأى ذلك الملك صدّق الخبر وقرر ابنته فقتلها . ووجّه خلف امرىء القيس بخلع مسمومة ، وأمر رسوله أن يلبسها امرأ القيس . فلحقه الرسول بأنقرة فألبسه الخِلَع على جلده ، وسقاه الخمر حتى سكر فبات فى الخِلَع ، ثم أفاق وقد دبّ السم فى بدنه[٢] فقرّح جلده وتساقط لحمه ، فمات هناك . وهو الذى يقول فى مرضه :

لقد طمح الطمّاح من بُعدِ أرضه ليلبسنى من دائه ما تلبسا[٣]
فلو انها نفس تموت سويّةً ولكنها نفس تساقط أنفسا

وكانت كندة ملوك اليمن[٤] ، فلم يقم لها بعد موت امرئ القيس قائمة

---

(١) الألطاف : مفردها لطفة وهى الهدية .

(٢) فى ا و ب : « يديه » والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) وفى بعض الروايات : « ليلبسنى مما يلبّس أبؤسا » .

(٤) يقصد القبائل اليمانية .

بنجد ، حتى لحقت بأرض اليمن[١] .

وحُـكِيَ أن الأفشين[٢] لمّا انصرف مع أمير المؤمنين المعتصم بالله بعد غزوة عمورية[٣] إلى سُرَّ من رأى ، تقدمت حال الأفشين عنـد المعتصم

---

(١) لم يعرف تاريخاً أن قبائل كندة عادت ثانية إلى اليمن .

راجع لزيادة التفصيلات : أيام العرب فى الجاهلية ص : ١١٢ — ١٢٣ .

(٢) هو حيدر بن كاوس ، تركى الأصل من بلاد ما وراء النهر ، والأفشين لقب يطلق على ملوكهم . عمل فى حاشية المعتصم عند ما كان هذا والياً لأخيه المأمون على مصر والشام . ولما استخلف المعتصم جعل الأفشين فى مقدمة قواده . وقد وجهه لحرب بابك الخُـرَّمى فحاربه مدة طويلة حتى ظفر به . كما أبلى بلاء حسناً فى حرب الروم عندما غزا المعتصم عمورية ، مما جعل له مركزاً خطيراً فى الجيش . وما ذكره المؤلف هنا لم يكن نتيجة الوشاية والحسد وحدهما ، إذ لا يستبعد أن يكون المركز الذى وصله الأفشين حفزه على الوثوب بالدولة العباسية . وقد ثبت للمعتصم أن الأفشين قد كاتب بعض الرؤساء والدهاقين فى بلاد فارس مثل « مازيار » دهقان طبرستان ، ولذا أمر بمحاكمته . وقد تولى المحاكمة القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، فأمر بحبسه حتى مات .

راجع التفصيلات فى : الطبرى ١٠ : ٣٦٢ — ٣٦٧ ، وخلاصتها فى تاريخ الأمم الإسلامية ٣ : ٢٦٥ — ٢٦٨ .

(٣) عمورية من أمنع مدن الروم وأكثرها حصانة وقد غزاها المعتصم بجيش كبير وافتتحها عنوة وغنم منها مغانم كثيرة . وكان سبب غزوها أن الروم أخذوا يهاجمون الثغور الإسلامية مغتنمين فرصة انشغال الجيوش العباسية فى حرب بابك ، واستولوا على قسم منها ، فقتلوا رجالها وسبوا نساءها فثقل ذلك على المعتصم فغزا غزوته المظفرة هذه .

وأكرمه غاية الإكرام لحمده ما كان من بلائه وحسن أثره فى بابك وفى ملوك الروم . فاستخفَّ بأحمد بن أبى دؤاد[٢] ومحمد بن عبد الملك[٣] . فأعملا الفكر

---

(٢) أحمد بن أبى دؤاد بن جرير بن مالك الإيادى ، أحد القضاة المشهورين ومن رؤساء المعتزلة ، وكان على رأس المحنة بالقول بخلق القرآن فى عهد المأمون ، وهو الذى امتحن الإمام أحمد بن حنبل بذلك . وقد عرف بالفصاحة وقوة الحجة والدهاء . وأعجب به المأمون كثيراً فقربه إليه واتخذه مستشاراً له ، ولما دنت وفاته قال لأخيه المعتصم فى وصيته له : « أما أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقك واشركه فى المشورة فى كل أمرك فإنه موضع لذلك » . فاختص به المعتصم وجعله قاضى قضاته ومستشاره الخاص ، حتى كان لا يفعل فعلا باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه . وعاش حتى عهد المتوكل فأصيب بالفالج .

(٣) المعروف بابن الزيات ، نشأ ببغداد ونال حظاً وافراً من العلم والأدب ، وعمل أول أمره كاتباً فى الديوان . وكان أديباً شاعراً . استوزره المعتصم لما رأى من علمه وأدبه فقام بالوزارة خير قيام . ولاستيزاره قصة لها دلالتها . يقال إن كتاباً ورد على المعتصم من أحد ولاته ، فقرأه وزيره أحمد بن عمار الخراسانى عليه ، وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فقال المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لا أدرى . قال المعتصم : خليفة أمىّ ووزير عامىّ ، وكان المعتصم ضعيف القراءة والكتابه ، ثم قال : ابصروا من فى الباب من الكتاب . فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه . فقال له : ما الكلأ ؟ قال : الكلأ العشب على الإطلاق ، فإن كان رطباً فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش . وشرع فى تقسيم أنواع النبات . فعرف المعتصم فضله واستوزره .

وكان ابن الزيات شديداً فى معاملة العمال ومحاسبتهم . واستوزره من بعد المعتصم ابنه الواثق . ونقم عليه المتوكل لأنه اجتهد فى تولية الواثق بعد المعتصم بدلا منه ، فنكل به وسجنه ومات فى سجنه سنة ٢٣٣ هـ . ويقال إنه أحرقه فى التنور الحديدى الذى كان ابن الزيات اتخذه لتعذيب المصادرين والمطلوبين بالأموال (وفيات الأعيان ٤ : ١٨٧) .

فى أمره ، فلم يريا شيئاً فى كيده أبلغ من إيحاشه من المعتصم بالله . وكان (محمد ابن إبراهيم ، أخو إسحاق بن إبراهيم الطاهرى ، صديقاً ونديماً للأفشين ، وكانت بينه وبين) محمد بن عبد الملك مؤانسة . فاستمال محمد بن عبد الملك ، محمد ابن إبراهيم ووعده أن يوليه فارس والأهواز ، ويرفع عند السلطان قدره ، على أن يلطف لإيحاش الأفشين من المعتصم بالله . وقال له : أوحش الأفشين من صاحبه فإنا نوحش صاحبه منه . فدخل محمد بن إبراهيم على الأفشين يوماً فرآه الأفشين كئيباً (متغيراً) فسأله عن شأنه ، فكتمه ، فعزم عليه الأفشين . فقال محمد بن إبراهيم : أنا فى حال ضيقة ، إن بحت بما فى نفسى خنت سلطانى ، وإن أمسكت خنت صديقى .

فلم يزل الأفشين يُنقِّر[1] محمداً حتى قال له محمد : فاحلف أنك لا تبدى شيئاً مما ألقيه إليك . فحلف له بأوكد الأيمان . فقال محمد بن إبراهيم : إن أمير المؤمنين قد تغيَّر لك وأخذ فى التدبير عليك . قال الأفشين : هذا باطل لأنى على عظيم البركة قد فتحت له الفتوح الجليلة ، ولم يظهر له منى سوء . قال محمد بن إبراهيم : قد بحت بما فى نفسى وستعلم ذلك عن قليل ، وحلف له على ما قال . فاغتم الأفشين وكثر نكده وساء ظنه . فدخل بعد ذلك على المعتصم بالله فوافق من المعتصم ضجراً ببعض أموره ، وغيظاً على أحد خدمه ، ورآه متغيِّر البِشْر عابس الوجه ، فظنَّ الأفشين أن الذى رأى من المعتصم هو ما قال محمد ابن إبراهيم ، وتحقق قوله . فحذر على نفسه ، فتحرز فى منزله واحتفظ بأبوابه . فبلغ المعتصم بالله فعله فأنكره . فقال له ابن أبى دؤاد : يا أمير المؤمنين ، أنت

---

(١) ينقره : يراجعه فى الكلام ، أى يؤكد عليه .

منا بمنزلة الروح من البدن ، وهذه الأعاجم تدخل عليك وأنت متفضل[١] فى ثوبك ، وفى أيديها العُمدُ ومعها السيوف والخناجر . فقال المعتصم : لا تخف فأنا أهيب للخلافة مما تظن ، ولا تُعد فى هذا شيئاً .

ونفر قلب المعتصم من الأفشين ، فلم تزل الوحشة تنشأ بينهما حتى تفاقمت . فكتب الأفشين إلى منكجور[٢] خليفته بأذربيجان كتباً فى التدبير على السلطان . فوقعت الكتب إلى المعتصم . فقتل المعتصم الأفشين . وذُكر أنه لم يختتن ولم يكن على الإسلام .

قيل لما خرج من خرج من الأوس[٣] إلى مكة ليحالفوا قريشاً على الخروج ، فحالفتهم قريش ، ولبثوا فيهم أياماً . ثم قدم أبو جهل بن هشام المخزومى من سفر فبلغه شأنهم . فقال لقريش : ما أصبتم حين حالفتموهم لأنهم أهل عدة وجلد ، وقلَّما نزل قوم على قوم إلا أخرجوهم من بلادهم

---

(١) تفضل : لبس الفضال وهو الثوب الذى يلبس فى البيت .

(٢) المعروف أن الأفشين كاتب المازيار دهقان طبرستان وشجعه على إظهار الخلاف على عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، فتحصن بالجبال غير أن جيوش ابن طاهر استطاعت إخماد ثورته والقبض عليه . إلا أن الخليفة المعتصم كان يتهم الأفشين بأمر منكجور عند ما خرج فى أذربيجان ، لأنه من أقارب الأفشين وكان الأفشين عينه عاملا على أذربيجان . وقد جرد المعتصم حملة أعادت أذربيجان وأسرت منكجور فجىء به إلى سامراء فأمر الخليفة بحبسه.

(٣) الأوس : إحدى القبيلتين الكبيرتين فى يثرب اللتين بادرتا إلى اعتناق الإسلام ونصرة النبي صلى الله عليه وسلم وتشجيعه على الهجرة . والقبيلة الثانية هى الخزرج .

وغابوهم عليها . قالوا : فما المخرج من حلفهم ؟ قال : أنا أكفيكموهم ، إنهم من أشد العرب غيرةً ومرارةً ، فلعلِّي آتيهم من قِبَل ذلك .

ثم خرج حتى جاءهم فقال : إنكم حالفتم قومي وأنا غائب ، فقدمت فجئتكم لأحالفكم ، وأذكر لكم من أمرنا أمراً تكونون منه على رؤوس أموركم . إنا قوم تخرج نساؤنا إلى أسواقنا يبعن بها ، ولا يزال الرجل منا يدنو من المرأة منهن إذا أعجبته فيضرب عجيزتها . فإن كنتم طيبي الأنفس أن يُفعل بنسائكم حالفناكم ، وإن كرهتم ذلك فردوا حلفنا . فقالوا : لا نقر ذلك أبداً ، وقد رددنا إليكم حلفكم .

الباب الحادي عشر

في تدبير المنهزم

حُكِيَ أن ملك الفرس لمّا هرب من بهرام جوبين[1] إلى ملك الروم ، وجّه بهرام فى طلبه رجلاً يُقال له بسطام فى جيش كثيف على سَرَعان الخيل . فنزل الملك فى ناحية هِيت فى دير ليريح[2] . ومضى وهو فى جماعة من غلمانه ، ومعه خال له يقال له كربا ، إذ لاحت لهم غبرة خيل بسطام . فقال الملك لخاله : قد أدركنا الطلب فما ترى ؟ قال له خاله : لم يبق شيء إلا أن أقيك بدمى . قال : وما ذاك ؟ قال خاله : اركب أفَنَّ[3] خيلك وأجنب فرساً[4] وانج بنفسك فإنى أصده عنك . فركب الملك فرساً (وجنّب فرساً) ومضى نحو مسالح[5] الروم . ولبس كربا ثوباً منسوجاً بالذهب ، ووضع التاج على رأسه ، وأقام سائر

---

(١) بهرام جوبين : كان قائداً كبيراً من قواد هرمزد كسرى فارس ، وقد وجهه لحرب الروم فمنى بهزيمة منكرة ، فانتزع كسرى منه القيادة بصورة مهينة . فأعلن بهرام الثورة على هرمزد ، الذى كان يجابه ثورة داخلية أخرى لم يستطع إخمادها . فخسر عرشه ونُصب ابنه برويز مكانه . إلا أن بهرام جوبين استطاع أن يتغلب على برويز ويطرده ، فالتجأ هذا إلى امبراطور الروم فأنجده ، فاستطاع استعادة عرشه بعد أن فر بهرام . (إيران فى عهد الساسانيين ص : ٤٢٧ — ٤٢٩) .

(٢) ليريح : ليستريح .

(٣) أفن الخيل : أمهرها بفنون السير . ويقال استفن الخيل إذا حملها على فنون السير . وفى نسخة ب : « أفره خيلك » .

(٤) أجنب فرساً : سير فرساً إلى جانب فرسه ليركبها عند ماتتعب فرسه .

(٥) المسالح : الثغور ، أى المدن والحصون القائمة على الحدود .

مَنْ معه بين يديه وهو على ظهر الدابة ، حتى إذا علم أن بسطاماً قد تأمل لبسته ولم يعرف وجهه ، نزل[١] كربا فنزع تلك الثياب ولبس أقبيته[٢] . وخرج فتلقى بسطاماً فحيّاه ثم قال له : الملك يقرئك السلام ويقول لك إن الدهر قد ألجأنا إلى ما ترى ، ولنا عليك حق المملكة . قال بسطام : وما ذاك ؟ قال : قد ظفرت يدك بطَلِبتك وأدركت ما وُجهت إليه ، وقد زمزمت[٣] وبدأت طعامى ، فأنظرنى حتى آكل وأخرج إليك . فقال بسطام : كل متمهلاً فنحن منتظروك ، ونزل بأصحابه حول الدير . فلما مضى من الزمان قدر الغداء ، خرج كربا إلى بسطام فقال له : إن الملك يسألك أن تتم إحسانك بأن تنظره قليلاً ليخرج فى وقت قد اختاره ، فأذن له . فلم يزل كربا يدافعه حتى أمسى . وهو يُخرج له لُطَفاً من الجوهر والكسوة الفاخرة . حتى إذا أصبح وعلم كربا أنَّ الملك قد لحق بمأمنه . قال بسطام : إن الحقَّ بنا أولى . قال : نعم . قال : فإن الملك قد نجا بنفسه حيث رأى غبرتك ، وإنما صددتك عنه حتى لحق بمأمنه ، وها أنا ذا فاحكم بما تريد . فهمَّ بسطام بقتله فأبى عليه أصحابه وقالوا : أخَّرت طلب الرجل حتى فات بغير أمر ، وتريد قتل هذا بغير أمر . فحمله بسطام إلى بهرام . فلما علم بهرام الخبر ، قال : أما أنت يا بسطام فغششت فجزاؤك القتل ، وأما كربا فنصح لصاحبه فجزاؤه الصفح . وأمر بكربا فحُبِس[٤] .

وحُكِيَ أن عبد الله أخا بابك انهزم فى بعض حروبه ، فمرَّ منفرداً فارًّا من

---

(١) فى ا : « قام » .

(٢) الأقبية : جمع قباء وهو الثوب الذى يلبس فوق الثياب .

(٣) زمزم : دمدم حين الأكل ، وهى عادة الفرس عند الطعام .

(٤) فى كتاب الأخبار الطوال ما يشبه هذه القصة مع بعض الاختلاف ، ص ٨٧ — ٩٠ .

المحاربين له . فمضى يكُدُّ دابته[١] حتى إذا صار[٢] إلى جانب غيضة والنفر خلفه ، نزل يقود دابته ، وصاح وأومأ إلى الغيضة يوهم النفر الذين يطلبونه ، أنه يصوِّت بقوم من أصحابه فى الغيضة . فتوقف النفر عن طلبه ، وقالوا : لم ينزل عن دابته ونحن نـكُدُّه إلا وقد صار إلى أصحابه . فتراجعوا عن مضيق كانوا صاروا إليه . فلما علم أنهم قد تراجعوا ركب دابته ومضى ، فرأوه من بُعدٍ و (قد) فاتهم .

---

(١) يكد دابته : يشتد عليها ويحثها على السير .

(٢) فى ب : « حتى إذا وصل » .

الباب الثاني عشر

في لطف التدبير (1)

حُكِيَ أن عديّ بن حاتم طيّ (2)، لمّا بلغه خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم (3)، أراد اللحاق به، وخاف قومه على إبله وماله. فأمر ابنه أن يتمسى (4) بإبله فلا يردُّها إلا في الليل، ففعل فلامه بحضرة قومه. ثم أمره بعد فتمسى بالإبل أيضاً فلامه وشتمه وتوعده. فلما كان في اليوم الثالث قال لأهله: إن لابني لشأناً في تمسيته بالإبل، وإني خارج (معه) يومي هذا لأنظر ما شأنه. فخرج مع إبله وجعل وجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (5). فلم يفتقده قومه إلا من الغد، فخرجوا في طلبه فلم يدركوه.

وحدَّث المدائني قال: دخل رجل من أهل مكة فقال: لألقينَّ بين قريش

---

(1) في ب «في لطف المخلص».

(2) عدي بن حاتم طي: من المعمرين، اشتهر أبوه حاتم الطائي بكرمه الذي غدا مضرب الأمثال. أدرك الإسلام ووفد على الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة للهجرة. وقد امتدحه عمر بن الخطاب حينما وفد عليه لما صار خليفة. وانضم إلى الإمام علي وحارب معه في معركتي الجمل وصفين.

(3) في ا: «خبر وفاة رسول الله» وهو غير مستقيم المعنى، إذ كيف يريد اللحاق به بعد بلوغه خبر وفاته.

(4) يتمسى: يجيء مساء.

(5) في ا: «وجعل وجهه إلى أبي بكر» وهو خطأ، لأن عدياً وفد على النبي صلى الله عليه وسلم.

حرباً لا تُطفأ أبداً . فأناخ ناقته على الحَزْوَرة ، وهى أكمة وسط مكة ، وقال : لينحرها أعزُّ قريش . فنحرها أبو سفيان بن حرب ، فقال عُتبه بن ربيعة (١) : أأنت أعزُّ قريش ؟ قال : مَنْ كنتَ ابن عمه (٢) كان أعزَّهم . وقال سعيد بن العاص (٣) : أأنت أعزُّ قريش ؟ قال : نعم ، بعِزِّك . فأطلَّ (٤) الناقة ولم يقع بينهم إلا خير . وانقلب الرجل خائباً .

وحكىٰ العتبى (٥) عن أبيه قال : خاصم هشام بن عبد الملك (٦) ، إسحاق ابن طلحة بن عبيد الله فى بعض الأمور ، وأغلظ له هشام . فقال له إسحاق : أنت تظلمنى يا أمير المؤمنين ، فاجعل بينى وبينك قاضيك . ففعل . قال : فطُرح

---

(١) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من زعماء قريش فى الجاهلية ، عرف بالحلم والدهاء . وقد اشتهر فى حرب الفجار الأولى التى نشبت بين هوازن وكنانة ، حيث احتكموا إليه ونزلوا على حكمه . أدرك الإسلام وقاتل النبي صلى الله عليه وسلم فى معركة بدر وقتل فيها . وهو ابن عم حرب بن أمية .

(٢) فى ا : « ابن عمته » .

(٣) سعيد بن العاص الأموى ، صحابى من قواد الفتوحات الإسلامية ، فتح طبرستان . وقد ولى الكوفة لعثمان . وهو أحد الذين أسهموا فى كتابة المصحف على عهد عثمان ، كما دافع عنه عندما قامت الثورة عليه . ثم اعتزل عند نشوب الحرب بين الإمام على ومعاوية : وقد استرضاه معاوية وولاه ولاية المدينة وبقى فيها حتى مات .

(٤) أطل الناقة : أضاع دمها .

(٥) العتبى : محمد بن عبيد الله بن عمرو ، أديب بصرى كثير الأخبار حسن الشعر . له تصانيف عديدة فى أخبار العرب وأيامها ، وأكثر أخباره عن بنى أمية . وسمى بالعتبى نسبة إلى جده عتبة بن أبى سفيان .

(٦) تولى الخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك ، توفى سنة ١٢٥ هـ .

لها مصلىً بين يدى القاضى فجلسا عليه ، ثم اختصما . فتوجه القضاء على هشام . فقام إسحاق فقال رافعاً صوته : الحمد لله الذى حال بينك وبين ما أردت من ظلمى . فأَحفَظَ [١] هشاماً فقال : والله لقد هممت بأن أضربك ضرباً أنثر منه لحمك وأُسيل منه دمك على قدمك . قال : يا أمير المؤمنين ، أما والله لئن ضربتنى لتضربنى رحماً قريبة وبدناً ضعيفاً قد ذهب أكثره وبقى أقلّه . قال : فاسترها علىَّ . قال : لا والله إلا بثمنها . قال : ثمنها مائة ألف . قال ، فسترها عليه ، وحدَّث بها بعد وفاته لابنه [٢] .

وحَكىٰ العتبى قال : بينا الحجاج فى مسجد واسط يوماً إذ مرَّ به رجل لم يرَ رجلا (قط) أقرب ما بين هامته وقدمه (منه) فدعا به وكلّمه . ثم قال : إيتونى بفلان ، يعنى رجلا من المجوس فى حبسه . قال : فأُتى برجل نكّس رأسه حين أراد دخول المسجد كأنه عادى [٣] . فقال الحجاج : افرج بين رجليك ، ففعل . فقال للقصير : مُرْ بين رجليه . فقال : أصلح الله الأمير (ليس فى هذا المسجد أحفظ لكتاب الله ولا أقرأ له منى ، فإن رأى الأمير أن) لا ينجس كتاب الله عز وجل بمرى بين رجلى هذا الكافر (فليفعل) . قال : (صدق) خَلُّوا سبيله .

وحَكىٰ الهيثم بن عدىّ قال : سمعت أشرس بن ثمامة يحدِّث عن الحسن ابن عمارة قال : دفع يوسف بن عمر [٤] إلى رجل من النخاسين من بنى أسد

---

(١) أحفظه : أغضبه .

(٢) فى ا : « لأبيه » .

(٣) عادى : نسبة إلى قوم عاد الذين اشتهروا بطول القامة وضخامة الجسم .

(٤) يوسف بن عمر الثقفى ، من ولاة بنى أمية المشهورين . وقد احتذى حذو الحجاج فى العنف والشدة فى حكمه .

ألف دينار ، وقال له : انحدر إلى البصرة فاشتر لى بها عشر وصائف . قال : فحدَّثنى الرجل الأسدى ، قال : فطلبتهن بالبصرة حتى وجدتهن ، فلما أردت الانصراف نظرت إلى إحداهن فإذا بها شامة سوداء مثل هذه ، وأشار بيده ، فأردت ردَّها فلم أقدر على ذلك . قال : فقدمت بهن فأدخلتهن الحَمَّام وهيأتهن ، ثم قلت لصاحبة الشامة : تسمعين ؟ قالت : نعم . قلت : إذا قدَّمتُ إليه جارية فتقدمى فإذا زجرتك فانزجرى ، وأفعل ذلك مرات . قال : فدخلتُ على يوسف ، قال : ما صنعت ؟ قلت : خيراً ، قد جئتك بحاجتك على ما تريد . قال : ادخلهن . فقلت : يا جارية تقدمى ، فتقدمت تلك ، فقلت : وراءك . فرجعت . قال : فعرضت عدة « جوار » وهى تتقدم وأنا أردها . فقال : ما بال هذه ؟ قلت : أصلح الله الأمير ، إنه بلغنى أمر هذه فغاليت (بها وزدت) فى ثمنها على أثمانهن ، وبها شامة زعمت العلماء أنها لم تكن بامرأة قط فى ذلك الموضع إلا ولدت ملكا من الملوك ، فقال لغلام له خصىّ : اذهب إلى فلانة فقل لها تصنعها . قال : فأفلَتُّ والله منه ، وجعلت لله علىَّ أن لا أعود لمثلها أبداً .

وحدَّث الوليد بن هشام المخزومى عن أبيه عن مَسْلَمَة عن محارب قال : قال معاوية : إن عمراً احتجز[١] دوننا خراج مصر ، وعزله واستعمل أبا الأعور السُّلَمى[٢] . فبلغ عمراً الخبر فدعا وردان مولاه وقال : ويحك يا أبا عثمان عَزَلنا

(١) فى ب : « احتجن » والمعنى واحد .

(٢) أبو الأعور السلمى : هو عمرو بن سفيان ، كان أبوه أحد قادة قريش فى معركة أحد . وحارب أبو الأعور فى اليرموك . وانضم إلى معاوية فى خلافه مع الإمام على ، وحارب معه فى صفين وكان مقرباً إليه . عينه معاوية والياً على منطقة الأردن .

معاوية . قال : فمن استعمل ؟ قال : أبا الأعور السُّلَمى ، فهل عندك من حيلة لطيفة نتخلص بها من المكروه الذى أظلنا ؟ قال : نعم ، اصنع له طعاماً ولا تنظر له فى كتاب حتى يأكل ، ودعنا نفعل ما نريد . (قال : نعم) .

فلما قدم عليه أبو الأعور وأخرج كتاب معاوية بتسليم العمل إليه ، قال له عمرو : وما نصنع بالكتاب ؟ لو جئتنا برسالة قَبِلْنا ذلك منك ، ضع الكتاب وكُلْ . قال : انظر فى الكتاب . قال : ما أنا بناظر فيه حتى تأكل . فوضعه إلى جانبه وجعل يأكل . فاستدار له وردان فأخذ الكتاب والعهد .

فلما فرغ أبو الأعور من غذائه ، طلب الكتاب فلم يرَ شيئاً ، وقال ؟ أين كتابى ؟ قال له عمرو : أليس إنما جئتنا جائزاً [١] لنحسن إليك ؟ قال : إستعملنى أمير المؤمنين وعزلك . قال : مهلاً ، لا يظهرنّ هذا منك ، إنه قبيح . نحن نصلك ونحسن جائزتك . فرضى بالجائزة . وبلغ معاوية الخبرُ ، فاستضحك على فراشه وأقرّ عمراً على مصر .

وحكىٰ المدائنى أن عمرو بن معدى كرب ، هجم فى بعض غاراته على جارية شابة جميلة منفردة ، فلما أمعن لها [٢] بكت . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أبكى والله لفراق لبنات عمٍّ لى مثلى فى الجمال والشباب وأفضل ، خرجت معهن نلعب فانقطعنا عن الحى . قال : وأين هن ؟ قالت : خلف ذلك الجبل من الرمل ، ووددت أنك أخذتهن . فأخذها إلى ذلك الموضع الذى وصفت له ، فما شعر بشىء حتى هجم عليه فارس مستلئم بالسلاح [٣] ، فقال : خلِّ عن الظعينة . فأبىٰ عمرو . فعرض عليه المصارعة فصرعه الفارس ، ثم عرض

---

(١) جاز المكان . مر به ، وفى ب : «جئتنا زائراً » .

(٢) أمعن لها : طاردها .

(٣) فارس مستلئم بالسلاح : متدرع به .

عليه ضروباً من المناوشة ، ففي كلها كان الفارس يغلبه . فسأل عمرو عن اسمه ، فإذا هو ربيعة بن مُكَدَّم [١] ، وسمّى له عمرو نفسه . فخلّى عنه واستنقذ الجارية .

وحَكَى المدائني قال : كان ليوسف بن عمر غلام صيرفي فهرب . فقال : مَنْ كان يخالط ؟ فقيل له ، كان يخالط إلى فلان الصيرفي . فقال : عليَّ به . فأرسلوا إلى الشيخ فأوصى حين دعا به . فتلقاه رجل من ثقيف فقال له : أذكرك الله تعالى لَمَا دخلت معي . قال : ليس ينفعك أحد . ولكني أشير عليك بشيء عسى أن تنجو به إن كان شيء ينجيك . كلما سألك عن شيء أو قال لك فعلت كذا وكذا ، فقل نعم . وإياك أن تقول لا . فلما دخل عليه ، قال : يا شيخ ، أفسدتم غلامي ؟ قال : نعم . قال : وأكلتم مالي ؟ قال : نعم . قال : وأمرتموه بالهرب ؟ قال : نعم . قال : أَفَرِقْتَ يا شيخ ؟ قال : نعم . قال : ارجع إلى أهلك ، خَلُّوا سبيله .

---

(١) ربيعة بن مكدم : من بني كنانه وأحد الفرسان المعدودين في الجاهلية . وله أخبار في الحرب والطعان كثيرة .

الباب الثالث عشر

في المكائد على الأعداء

حُكِىَ أن صباحاً الصقلبى[١] ، لما وفد على الواثق بالله[٢] ، جهزه الواثق لغزو الروم مما يلى البحر ، بأحسن جهاز من المراكب والرجال وسائر الآلات . فخرج فى البحر ، وكان لا يقصد لهم ناحية إلاَّ بلغ منها حاجته . وكان أكثر ما يفل[٣] جيوش الروم بالنار . فبلغ ذلك من الروم (وأقلق ملكها[٤]) فوجه إليه ملك الروم رجالاً مستعربة من ثقاته مستأمنة ، ففرح صباح بهم . ثم أناخ على حصن يقال له انطاكية على ضفة البحر . فاحتال أولئك المستأمنة لنفط صباح وصبوا فيه الخل الثقيف مدوفاً بالمَغْرَة[٥] ، ثم لوَّحوا لأهل الحصن بعلامة بينهم ، فُهم بها أن نفط صباح قد فسد . وأوقد أهل الحصن للروم بعلامة (بينهم) فقصد جيش من الروم لا تُرام كثرته . وبلغ ذلك صباحاً

---

(١) صباح الصقلبي : أحد القواد الذين اشتهروا فى العصر العباسى الأول ، وقد اشتهر فى غزواته فى بلاد الروم .

(٢) الواثق بالله : الخليفة العباسى ، هرون بن محمد المعتصم ، توفى فى سامراء سنة ٢٣٢ للهجرة .

(٣) يفل الجيش : يفرقه ويهزمه .

(٤) فى ا : « فبلغ ذاك ملك الروم فوجه إليه » .

(٥) الخل الثقيف : الحامض جداً ، ومدوفاً : مخلوطاً ومذاباً ، والمغرة : طين أحمر يصبغ به .

فلم يحفل به . فلما وافى الجيش رمى بالنار فلم يعمل النفط . فقُتل (هو) وجميع من معه .

وحُكىَ أن رجلاً خرج بناحية خراسان ، يُقال له صالح بن أبى حبال ، من أهل مَرو الشاهجان(١) ، يدعو إلى آل أبى طالب . وكان مخرجه على عهد المهدى . فوجه المهدى لمحاربته جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعى . فقال جعفر للمهدى : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الرجل قد عظم شأنه جداً ، والحيلة فيه أبلغ من محاربته ، فإن وجهنى إليه أمير المؤمنين وهو من نيتى على الثقة ، وينزل كل ما يبلغه عنى على أحسن وجوهه ، رجوت أن أبلغ محبته(٢) . وإلا عملت بما يرى أمير المؤمنين من محاربته . قال له المهدى : اِمضِ واحتل بما رأيت فأنت عندنا فى حال من الثقة .

فخرج جعفر يريد خراسان ، فكاتب صالحاً من كل منزل نزله ، يواصله بكتبه ويعلمه أن الحق معه وأنه على متابعته . حتى ورد جعفر مرو ، فدخلها بصلح وقع بينه وبين صالح بن أبى حبال . ثم أظهر جعفر أنه عليل ، وكتب إلى صالح يعلمه أنَّه لا بد من لقائه ليدبرا ما يحتاجان إليه على بنى العباس ، وأنه عليل ولولا علته لصار إليه . وأقبل صالح حتى وافى مرو ، ثم ركب إلى منزل جعفر فى أفضل عدته ورجاله وسلاحه . ثم وقف بباب جعفر فراسله ، فاتفقا على أن يدخل عليه فى مائة رجل من أصحابه ، فأجابه جعفر إلى ذلك . وملأ بيوت

---

(١) مرو الشاهجان : هى مرو العظمى ، أشهر مدن خراسان وقصبتها . وسميت شاهجان لجلالتها وعظمتها . ويطق عليها أحياناً (مرو) فقط . (معجم البلدان ٨ : ٣٣ — ٣٨) .

(٢) لعل الصواب : ما يحبه .

داره بالرجال عليهم الجواشن(١) ومعهم السيوف ، وقال لهم جعفر : إذا كبَّرت فاخرجوا على صالح وعلَى مَنْ معه . ثم أذن لصالح فأُدخل وعليه جوشن وخوذة ومعه عمود ، ومعه مائة من أصحابه فى مثل ذلك الزى . وجعفر فى صحن الدار على سرير عظيم .

فقعد صالح إلى جعفر ، وجعفر فى ثوبين رقيقين ولا سلاح عليه . فلما رآه صالح فى ذلك الزى استرسل ، فقال جعفر : أتيتنا متقبضاً(٢) ونحن واثقون بك ونحتاج إلى أن نتفاوض فى أمور نكتمها حتى تظهر فى أوقاتها . قال صالح لمن بقربه من رجاله : تنحوا جميعاً ، فتنحوا عنهما . قال صالح لجعفر : إن أكثر من فى عسكر محمد بن عبد الله ، يعنى المهدى ، قد كاتبنى . قال له جعفر : الله أكبر ، ورفع صوته ليخرج رجاله على رجال صالح ، فلم يخرجوا ، وتناظرا ساعة ، قال جعفر : فأين الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صبيان بنى العباس يتلاعبون بها . قال صالح : ما أحب أن أسمع منك مثل هذا ، وهذا الأثر كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال جعفر: الله أكبر ، ورفع صوته فوق مقدار كلامه كالمستحث لأصحابه . فتغيَّر وجه صالح وأنكر رفع صوته ، وحسَّ بأن ذلك من جعفر علامة بينه وبين رجاله ، فوثب صالح مسرعًا لينزل من السرير .

قال جعفر : فقلت فى نفسى متى ألقى هذا بعد اليوم إلَّا فى حرب . فوثب جعفر إليه كالمعظِّم له ، القائم بقيامه . وقال : لتدخل دابته ، حتى قرب منه ، ثم أدخل رجله بين رجلَىْ صالح وأخذ يده بيده ، ومنعه من إخراج خنجره ،

---

(١) الجواشن : جمع جوشن ، وهو الدرع .

(٢) تقبض عن الأمر : أخذ موقف الحذر منه ، أى كان حذراً غير منبسط .

وكبّر تكبيرة شديدة ، فتحرك رجال جعفر فى البيوت ولم يخرجوا ، فسمع رجال صالح صوت الحديد من البيوت فهربوا نحو الباب . وجعل يروم خنجره فلا يقدر عليه . وجعفر يصيح برجاله ، فلم يخرج منهم أحد . حتى لحق جعفراً غلام له طبّاخ يكنى بأبى حميد ومعه طبرزين[١] ، فأخذ خوذة صالح عن رأسه وضرب رأسه بالطبرزين ضربة أسكرته . فوثب جعفر عن صدره ووالى عليه أبو حميد حتى قتله .

ومضى جعفر فأخرج رجاله من البيوت وقال لهم : الحقوا باب الدار فقد قُتل صالح . وأغلق باب القصر ، فضربه أصحاب صالح ، وهم نحو من عشرين ألف بالنار ، فأمر جعفر مَنْ زاد على الباب حطبًا حتى لا يمكن دخول الدار . ثم رفع رأس صالح لأصحابه وقال لهم : لكم جميعًا الأمان ، فمن أقام فديوانه له ، ومن رجع إلى بلاده فهو آمن . فأقام أقلهم مع جعفر ؛ ومضى أكثرهم حين رأوا رأس صاحبهم .

وحكى أن جماعة من العرب كانوا يكثرون الغارة على قرية بالشام . وكان بين القرية وبين الحى الذى يغيرون منه مفازة جدبة صعبة المسلك ، وكان فيها بئر يمر المغيرون بها فيشربون منها . فيمتنع طلبهم على السلطان لتلك المفازة وجهلهم بموضع البئر . فقال رجل من حكماء أهل القرية : إن هؤلاء العرب لا يقطعون إليكم هذه المفازة إلّا وقد وجدوا ماء يشربون منه مقبلين وراجعين ، فاحتالوا لتعرفوا الماء . فوجهوا قومًا منهم بتجارات إلى حىّ أولئك الأعراب ، فأقاموا بينهم حتى أنس الأعراب بهم . ثم سألوا دليلًا يخرجهم إلى الريف ، وبذلوا

---

(١) الطبرزين : الطبر ، وهو الفأس من السلاح .

للدليل جُعلًا[١] . فخرج الدليل بهم حتى وقف على الماء الذى فى المفازة . فإذا بئر غزيرة فتزودوا منها . فلما وصلوا إلى أهل القرية أعلموهم بذلك ، فردوه إلى حاكمهم[٢] ، فأمرهم أن يطرحوا فى البئر جيفًا كثيرة ، فامتنع على الأعراب وُرودها ، فانقطعت الغارة عن أهل القرية .

---

(١) الُجعل : الأجر .

(٢) لعل الصواب « حكيمهم » لسبق الإشارة إليه .

الباب الرابع عشر

في مكايدة صغير لكبير

حُكِيَ أن المنذر بن ماء السماء[1] صاحب الحيرة ، كان خليفة كسرى على طائفة من العرب وطَفِّ السواد[2] ، وكان منزله فى الحيرة على طفِّ السواد، لمّا هلك ، شَخَصَ عدىّ بن زيد العبادى[3] إلى كسرى ليسأله أن يستخلف النعمان بن المنذر فى موضع أبيه . فأقبل يريد باب كسرى على ناقة له ، وكسرى ينظر إلى مَنْ على بابه من حيث لا يرونه . فجلس عدىّ بن زيد بالباب ، فأطاف به أحداث من الفرس يستهزئون به ، فقالوا له ، وكسرى يسمع : يا أعرابى أىُّ شىء أقوى ؟ قال : ناقتى هذه . قالوا له : هى أقوى من الفيل ؟ قال : نعم . قالوا : وكيف ذاك ؟ قال أحمل عليها

---

(١) هو المنذر الثالث بن امرىء القيس: وماء السماء اسم أمه . وكان من أشهر ملوك المناذرة فى الحيرة . وهو صاحب يومى النعيم والبؤس . وقد عاصر قباذ ملك فارس وابنه أنو شروان . نفاه قباذ لأنه أبى أن يدخل فى دين مزدك ، ونصب مكانه الحارث بن عمرو ملكا على الحيرة . إلا أن أنو شروان عند ما ولى الملك أعاده إلى عرشه .

(٢) طَفُّ السواد : الطف ما أشرف من الأرض ، أو الجانب منها ، والسواد الأرض الممتدة بين البصرة والكوفة وما حولها من المدن والقرى .

(٣) عدى بن زيد: نشأ فى فارس وأصبح كاتب العربية لكسرى. وكان له نفوذ فى الحيرة ، وقد لعب دوراً مهماً فى تعيين النعمان بن المنذر ملكا على الحيرة دون إخوته الآخرين . إلا أن النعمان غضب عليه بعد مدة فحبسه ، ثم قتله .

بوزنها وهى باركة ، ثم أثيرها فتقوم ، وأحمل على الفيل بوزنه فلا يحمله . فعجب كسرى من حجته . قالوا : ياأعرابى ، فأى شىء أشد صوتاً ؟ قال : ناقتى هذه . قالوا : بل الكركى أشد صوتاً . قال : وكيف ذاك ؟ قالوا : الكركى يصيح وهو محلق فى جوف السماء فنسمعه . قال : فارفعوا ناقتى حتى تصيح معه ، أو انزلوا الكركى حتى يصيح بجنب الناقة ، فهى أشد صوتاً . فعجب كسرى من حجته . قالوا : فأى شىء أطيب لحمًا ؟ قال : ناقتى هذه . قالوا : هى أطيب لحمًا من الدجاج والفراخ ؟ قال : نعم ، خذوا دجاجًا وفراخًا ومن لحم ناقتى هذه حتى نطرحه فى قدر واحدة ثم يُطبخ ، وبعد ما ينضج الجميع ويطيب ، فإن نضج لحم الناقة قبل غيره وزاد فى الطيب عليه ، وإلَّا فحكمكم . فعجب كسرى منه ، فدعا به فناظره . فقال عدىّ بن زيد : إن النعمان أفضل إخوته ، ولو أحضرهم الملك فامتحنهم لعرف ذلك . فأحضر ولد المنذر وكانوا عشرة ، النعمان أصغرهم سنًّا ؛ فخلا بكل واحد منهم ، فقال له : مَنْ أفضلكم ؟ قال : أنا أفضل إخوتى . حتى بلغ إلى النعمان فقال له : مَنْ أفضلكم ؟ قال النعمان : كل إخوتى أفضل منى . فأعجب به كسرى . فملك النعمان بن المنذر دون إخوته .

وسأل عدىّ كسرى أن يجعل ابناً له كان معه فى خدمته ، يقال له زيد ، ففعل كسرى ذلك . فحذق ابنه كلام الفارسية ، وكان حاذقاً بالعربية ، فصار ترجماناً لكسرى على العرب .

واستحوذ عدىّ على أمر النعمان بن المنذر وغلب عليه . وكان فى الحيرة قوم يقال لهم بنو بُقَيْلَة[١] ، كانوا كتَّاب الملك ووزراءه ، فنحَّاهم عدى

(١) جدهم الحارث وسمى بقيلة ، وإنما سمى بذلك لأنه خرج على قومه فى بردين أخضرين ، فقالوا له : ما أنت إلا بقيلة خضراء . ويظهر أن آل بقيلة ، استمروا فى الحيرة حتى الفتح الإسلامى . (الطبرى ٣ : ٣٥٩ — ٣٦٥) .

واستخف بهم . ثم إن عديًّا سأل النعمان أن يزوره إلى منزله ، وهيأ له ولأصحابه طعامًا ؛ فخرج النعمان يسير إلى عدىّ ، فى جنده الصنائع والوضائع ، كما يقال الجند والشاكرية[1] . فمرَّ على دور بنىّ بقيلة وقد وضعوا له أسمطة الطعام وآنية الشراب على الطريق . فقاموا إليه فقالوا : أبيت اللعن أيها الملك ، شرِّفنا بأن تنزل عندنا فتأكل طعامنا . قال النعمان : قد وعدت عديًّا أن أصير إليه ولا يحسن تركه ، ولكن لكم يوم بيوم . فقالوا له : يا سيدهم ، فنقدم إليك جام حلوى فتضع أَصبعك فيه بقدر ما تكون قد مسَّت طعامنا . قال : نعم . فقدموا طبقاً فيه طعام ، فوضع إصبعه عليه . ثم قالوا له: يا سيدهم ، إنا قد أعددنا لك قينة حسناء مجيدة ، تنظر إليها فإن أعجبتك قبلتها . قال : نعم . فأخرجوا إليه جارية فائقة الحسن كأنما تطلع الشمس من وجهها ؛ فلما رآها ـ وكان مغرمًا بالنساء ـ ذهبت بنفسه . فأمرها فجلست على كرسى ، ثم أخذت مزهراً ، وهو العود ، فغنَّت . فطرب ودعا بقدح من شراب فشربه ، ثم غنَّت فشرب . فقالت له بنو بقيلة : لو نزلت أيها الملك ، فقد هيأنا داراً مفروشة فسررت يومك بجاريتك ، وجعلت لعدىّ يومًا مكان هذا ، وعوَّضته من نفقته . قال لهم : نعم . فنزل عندهم فى دار قد نُجِّدَت[2] له ، وبعث إلى عدىّ يعتذر إليه . وأكل أصحابه الطعام ، فأقام يومًا فى غاية السرور ، وبات بجاريته فى دار بنى بقيلة .

---

(١) الصنائع هم الجنود المدربون المختارون ، والوضائع جماعة من الجند يوضعون فى موضع ما لحمايته . والشاكرية من فرق الجيش ظهرت أيام المهتدى واستفحل أمرها أيام المستعين ، وقد تمردوا عدة مرات ببغداد .

(٢) نجدت : أثثت .

وبلغ الخبر عديًّا فأحنقه وأغضبه ؛ فلما كان من الغد ، قالت الجارية للنعمان : ياسيدها ، كيف كانت ليلتك ؟ قال : أطيب ليلة . قالت له : نعم ، لولا ما أخاف عليك من سخط عدىّ . قال النعمان : ومَنْ عدى حتى يسخط علىَّ ؟ وهل هو إلا أحد عبيدى ؟ قالت له : هيهات ، ماهو عند نفسه فيما يُبدى ويقول ، إلا أنه اصطنعك وولاك موضعك . قال : ليس هو كذلك . قالت له : فارسل إليه أن يصير إلى هذه الدار ، فإنه لا يفعل . فبعث إلى عدى مَنْ يدعوه ، فأبى أن يجىء . فاستحيا النعمان من الجارية وبعث إلى عدى مَنْ يعزم عليه ليصيرنَّ إليه ، فدخلت عديًّا دالة عليه بخدمته أن يجيئه . وكان يقال آفة الخدمة الدالة ، فأبى على الرسول وأغلظ له ؛ فوجَّه إليه النعمان مَنْ سجنه ، وأمر بحبسه وتقييده ؛ فأنشأ عدى يقول فى (الحبس) من قصيدة له طويلة :

أيها الشامت المعيِّر بالدهر ... أأنت المبرَّأ الموفور

أم لديك العهد الوثيق من الأيام ... بل أنت جاهل مغرور

أم رأيت المنون أبقين أم من ... ذا عليه من أن يُضام خفير

أين كسرى كسرى الملوك أبو ساسان ... ، أم أين قبله سابور

وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم ... لم يبقَ منهم مذكور

وأخو الحضْر إذ بناه وإذ دجلة ... تجبىْ إليه والخابور[1]

شاده مرمراً وجلله كلسًا ... فللطير فى ذراه وُكور

(١) الحَضْر : تقع بقايا هذه المدينة فى الجزيرة غربى وادى الثرثار وعلى مقربة منه . وقد أسسها عرب الجزيرة ، وازدهرت فيها الحضارة عند ما صارت مركزاً تجارياً فى منتصف القرن الثانى للميلاد . وحافظ حكامها العرب على استقلالها من الحكم الرومانى والحكم الفارسى حتى منتصف القرن الثالث للميلاد ، حينما هاجمها سابور الأول الساسانى واستولى عليها وخربها . والخابور أكبر روافد نهر الفرات .

لم يهبه ريبُ المنون فأضحى زائل الملك بابه مهجـــــور[١]
ثم بعـد الفلاح والملك والإمَّـــة دارتهم هناك القبـــور[٢]
ثم أضحوا كأنهم ورق جفَّ فألوت به الصـــبا والدَّبُور[٣]
وتفـكر رب الخورنق إذ أشرف يومًا وللهــدى تفـكير[٤]
سرَّه ماله وكثرة ما يملك والبحر معـــرِضٌ والسدير[٥]
فارعوى قلبـه فقال وما غبطـــة حيٍّ إلى الممات يصـير[٦]

وحُكِيَ أن عديًّا لما حبسه النعمان كتب إلىٰ ابنه زيد بن عدى يُعلمه الخبر . فلما بلغ الخبر زيداً ، بلغ منه وأرمضه[٧] . وكان كسرى أبرويز مغرمًا مستهتراً بالنساء ، فقال زيد بن عدى لكسرى أبرويز : أيها الملك ، إن للنعمان

---

(١) ويروى هذا البيت كما يلى :

لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور

(٢) الإمَّة : النعمه .

(٣) الصبا والدبور : الصبا ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش ، والدبور الريح التى تقابل ريح الصبا . وألوت به : ذهبت به .

(٤) و (٥) الخورنق والسدير : قصران عظيمان بناهما النعمان الأول بن امرىء القيس الثانى أشهر ملوك المناذره ، وكانت تحيط بهما البساتين الغناء والرياض النضرة والمياه الجارية . ويروى أنه قتل الشخص الذى بنى الخورنق واسمه (سنمار) لئلا يعرف أحد سر قوة البناء . راجع : تاريخنا بأسلوب قصصى ، ص : ٤٦ ـ ٤٧ .

(٦) وتروى هذه القصيدة فى المصادر الأخرى بتقديم وتأخير تسلسل أبياتها .
انظر مثلاً :

البدء والتاريخ ٣ : ٢٠٠ ـ ٢٠١ . غرر السير ، ص ١٣٢ . وفيات الأعيان ٦ : ٢٤٣ .

(٧) أرمضه : آلمه .

ابن المنذر أخوات كأنهن الكواكب حسنًا وكمالًا . قال كسرى : وكيف لنا بهن ؟ قال زيد : إن أرسلنى الملك إليه جئت بهن . قال كسرى : فامضِ برسالتى إليه فإنه لايذهب بأخواته عنى . فشخص زيد بن عدى برسالة كسرى إلى النعمان يطلب منه أخواته . فشقّ ذلك على النعمان ، وكره أن يرسل إليه بأخواته[١] .

قال النعمان لزيد بن عدى حين أبلغه الرسالة : أما للملك شغل فى نساء عنده كأنهن العين ، يعنى بقر الوحش ، عن نساء عربيات سود المحاجر ، دقاق الأَسْوُق[٢] . وسأل النعمان زيداً أن يُحسن الرسالة ويدفع (أبرويز) عنهن . فرجع زيد ، وعلم النعمان أن عديًّا هيَّج هذا عليه ، فأمر به من قتله فى حبسه[٣] . فلما دخل زيد بن عدى على أبرويز ، قال : ما وراءك ؟ قال زيد : أجابنى بجواب أجِلُّ الملك عنه . قال أبرويز : وما هو ؟ قال زيد : لا أطيق اللفظ به ، وأخاف إن قلته على نفسى ، قال أبرويز : (قل) فأنت آمن على نفسك . قال زيد : إن النعمان لمَّا بلغته رسالة الملك ، قال : أما له شغل بنيك البقر عن نساء العرب ؟ فغضب أبرويز غضبًا شديداً . وكان وهو صبى صغير يُعيَّر بأنه وُجد ينكح بقرة ، فيغضب من ذلك ويشتم مَنْ قال له . فاستشاط ووجَّه جيشاً فى طلب النعمان . فهرب النعمان وحمل معه امرأته المتجردة[٤] (وجلَّة قومه) وخيله وإبله ،

---

(١) كان العرب يأنفون من تزويج بناتهم من الفرس .

(٢) الأسوق : جمع ساق .

(٣) راجع عن قتل عدى بن زيد : أسماء المغتالين ص ١٤١ .

(٤) المتجردة : زوجة النعمان ، وقد مدحها النابغة الذبيانى بقصيدة وصفها بها وصفاً مكشوفاً ، عند ما كان ينادم النعمان ورآها وقد سقط نصيفها فاستترت بيدها . (والنصيف كل ما غطى الرأس من خمار وغيره) ومطلعها : =

وما أمكنه من أثاثه وماله وأبنيته . فكلما صار إلى قبيلة من قبائل العرب ، أبت عليه أن تؤويه خوفاً من كسرى ، حتى صار إلى سلمى جبل طيىء ، فآوته طيىء[١] .

وكانت إبله وخيله تسرح وترجع وقد تطرقت[٢] وسُرقت . فقالت امرأته المتجردة : إن خيلك وإبلك فى كل يوم تنقص ، وإن دام هذا عليك بقيت فقيراً وقتلتك طيىء . ولعلها إنما تؤويك لمالك ، فإن ذهب مالك (ربما) تقربت بك إلى كسرى . قال النعمان لها : (فما) الرأى عندك ؟ قالت : إن كسرى بُلِّغ عنك ما لم تقل . فتصير (إليه) وتعتذر وتحلف له . فقبل النعمان وجاء يريد كسرى . حتى إذا صار بوادٍ بين الكوفة والبصرة يقال له ذوقار ، خلَّف ابنتيه حُرقة وهنداً عند قبيصة بن هانىء الشيبانى[٣] ، وسيوفه ودروعه وخيله ، ثم خرج يريد كسرى .

= أمن آل ميــة رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود

وفيها يقول :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليــد

بمخضب رخص كأن بنانه عنم ، يكاد من اللطافة يعقد

(١) جبل سلمى : كانت منازل طيىء فى اليمن وقد خرجوا منها بعد سيل العرم ، فنزلوا بنجد والحجاز . ثم تغلبوا على بنى أسد وأجلوهم عن جبلى أجأ وسلمى فى نجد ونزلوهما ، فعرفا بجبلى طيىء .

(٢) تطرقت الإبل : تفرقت ، أو ذهب بعضها إثر بعض .

(٣) فى بعض المصادر أنه أودع ذلك عند هانىء بن مسعود الشيبانى سيد بنى شيبان وأن هانىء هذا هو الذى نصحه بأن يصير إلى كسرى ويعتذر إليه . (مروج الذهب ١ : ٢٩٥) .

فلما بلغ كسرى مقدمه ، أمر فضرب على طريقه ألف قبة (من) ديباج[(١)] ، على باب كل قبة جارية مكللة بالحلى ، وأمرهن أن يقلن : أما فينا غنًى للملك عن البقر ؟ وظنَّ النعمان أنهن كرامة هيئت له ، فقلن ما أُمرن به . ولقيه زيد ابن عدى ، فقال له : بخٍ نعيم[(٢)] ، لقد أَخَيت لك أَخِيَّةً[(٣)] لا يقلعها المهرُ الأرن ، يعنى النشيط . فأمر به كسرى فطرح تحت الفيلة فداسته فقتلته[(٤)] . وفيه قال الأعشى[(٥)] :

هو المُدخل النعمانَ بيتاً سماؤه نحور الفيول بعد بيت مُسْرَدَق[(٦)]

---

(١) لا شك أن فى الخبر مبالغة . وهذا ما اعتدناه فى المؤلفات القديمة وخاصة فى أخبار الفرس ، إذ أنها تبالغ فى الأرقام للمباهاة ، أو لتجعل منها مدعاة للاهتمام بالحكاية .

(٢) نعيم : تصغير النعمان ، تحقيراً له .

(٣) الأخية: عروة تربط إلى وتد وتشد فيها الدابة . وهو مثل يضرب لمن يعقد أمراً يصعب التغلب عليه .

(٤) كان مقتل النعمان سبباً فى حرب ذى قار بين العرب والفرس . راجع تفصيلات هذه الحرب فى : أيام العرب فى الجاهلية ص ٦ ـ ٣٩ .

(٥) الأعشى : هو ميمون بن قيس بن ثعلبة . يعتبر من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية ،ويعرف بأعشى قيس .

(٦) البيت المسردق : البيت الذى نصب عليه السرادق ، وهو الخيمة التى تمد فوق صحن البيت .

الباب الخامس عشر

في دفع مكروه بقول

حُكيَ أن رجلاً مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة ، فقال : يا محمد ، أغثني فإن خلفي من يطلب دمي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : امضِ لوجهك لأصدَّ الطلب عنك . ثم قام عليه السلام وجلس بعد نفوذ الرجل[1] ، فإذا قوم يتعادون[2] بالسيوف ، فقالوا : يا محمد ، هل مرَّ بك رجل هارب من صفته كذا وكذا ؟ فقال عليه السلام : أما منذ جلست فلا . فصدَّقه القوم وانصرفوا فى غير ذلك الطريق .

وحكى أن خالد بن الوليد لمَّا حارب حنيفة بأرض اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب[3] ، حتى صار إلى حصن لبنى حنيفة . فخرج إلى خالد رجل من

---

(١) بعد نفوذ الرجل : بعد جوازه .

(٢) يتعادون : يعدو بعضهم خلف بعض للقتال .

(٣) هو مسيلمة بن ثمامة بن وائل ، نشأ فى اليمامة فى الجاهلية . وعند ما بلغه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، قدم إلى المدينة مع وفد قبيلته حنيفة فى السنة العاشرة للهجرة وأسلم،إلا أنه عند عودته ادعى النبوة فىقومه ، فسماه النبى صلى الله عليه وسلم مسيلمة الكذاب . وقد توفى الرسول قبل أن يقضى على مسيلمة ودعوته ، فتولى ذلك أبو بكر ، فانتدب إليه خالد بن الوليد على رأس جيش قوى هاجم ديار حنيفة وقاتلهم قتالا شديداً قتل فيه عدد كبير من المسلمين ، إلا أنه تمكن منهم وقتل مسيلمة وعاد ظافراً ، فقضى على حركة الردة .

الحصن فأسلم على يده ثم قال له : إن فى هذا الحصن ضعفة ونساء وصبية ، فاعطهم أماناً ليخرجوا إليك ، فليس فيهم دَرِكٌ(١) فأخذ أماناً من خالد للجميع ، ثم أخرجهم ، فخرج فيهم رجال كأنهم الأُسْد . فقال خالد : لم أعطك لهؤلاء أماناً ، إنما أعطيتك للضعيف . قال الرجل : فهم كلهم ضعيف ، لأن الله عزَّ وجل يقول ﴿ وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً(٢) ﴾ . فكتب فى ذلك إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فأجاز الأمان على خالد .

وحكى أن سابور ذا الأكتاف ، كان يكثر غزو العرب وقتلهم وطلبهم . فغزا مرة بنى تميم ، وذلك فى حياة عمرو بن تميم . وكان عمرو قد عُمِّر حتى أوفى على مائة وعشرين سنة . فلما بلغ بنى تميم إقبال سابور نحوهم ، هموا بالهرب منه والتنحى عنه . فقال عمرو لبنيه وقومه : اجعلونى فى زنبيل وعلقونى على شجرة وارحلوا عنى ، فلعلى أكفيكم أمره . فصيَّروه على شجرة كيلا تأكله السباع ، وأعطوه قوتاً من الطعام والشراب . فلما ورد سابور منازلهم لم يرَ أحداً ، ورأى الزنبيل معلقاً فأمر به فنُزِّل ، فإذا شيخ مثل القفة . فقال : من أنت يا شيخ ومن أين أتيت ؟ قال : أنا من الذين تطلب ، أنا عمرو بن تميم (بن مرة) بن مر بن أدّ بن الياس بن مضر بن نزار . فقال : إيَّاكم أردت ، ولِمَ تخلفت عن قومك ؟ قال : لأسألك عن قصدك للعرب وانك لا تزال تغزوهم وتطلبهم ولا ذنب لهم إليك . قال سابور : لأنه بلغنى أنه يخرج منكم رجل يكون زوال ملكنا على يده . قال له عمرو : والله لئن كنت على يقين

---

(١) الدرك : الغلام البالغ .

(٢) سورة النساء (الآية ٢٧) .

من ذلك وكان ما أخبرتَ به حقاً ، إنه لينبغى لك أن تعلم أنه لو لم يبقَ من العرب إلاَّ رجل واحد ، لما قدرت على ذلك الواحد حتى ينتهى الله فيه إلى ما تتخوف وقوعه . ولئن كان هذا شيء تظنه ظناً ، فما ينبغى لك أن تقتل على الظن قوماً براء لا ذنب لهم إليك .

فقال سابور : ويحكم ، أين كنتم عن هذا الرأى قبل اليوم ؟ فوالله لو علمت به ما غزوتكم . ثم انصرف بجيشه عنهم[١] . وفى ذلك يقول جهمة بن جندب (بن العبر) بن عمرو بن تميم يفتخر بما فعله جده على سائر بنى تميم :

رددنا جمع سابور وأنتم ... بمهواة متالفها كثير[٢]
تظل جيادنا متمطرات ... تُدار بنا تصيِّح أو تغير[٣]
فما زلنا نسل الضب منه ... إلى أن عاد ليس له نكير
فهذا الحق ليس به خفاء ... تورَّثه عن الكهل الصغير

وحَكَى الهيثم عن مجالد عن الشعبى قال : ما رأيت أحداً قط أبسط لساناً[٤] من صَعْصَعَة بن صُوحان العبدى[٥] . فإنه قام عند المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر أبا بكر

---

(١) وردت فى « غرر السير » حكاية عن سابور وحملته هذه ولكنها تختلف عما ورد هنا ، ص : ٥٢٠ .

(٢) المهواة : مابين الجبلين ونحو ذلك .

(٣) متمطرات : تمطرت الخيل جاءت يسبق بعضها بعضاً .

(٤) أبسط لساناً : أطلق لساناً .

(٥) من زعماء الكوفة وقد شهد صفين مع الإمام على وكان خطيباً بليغاً جريئاً .

فقال : قاتل أهل الردَّة وشمَّر عن ساقه وجدَّ فى أمر الله عز وجل ، ولم يرد الدنيا ولم ترده ، ثم مضى والأمة عنه راضون . ثم ولى عمر فقضى فى الكلالة[١] ومصَّر الأمصار وجنَّد الأجناد وجبى الفىء وأدَّى إلى كل ذى حق حقَّه ، ثم مضى والأمة عنه راضون . ثم ولى عثمان بن عفان فكانت خلافته قدراً . وقتلته قدراً . فقال المغيرة : اِضربوا وجه (هذا) الفاسق . فجعلوا يضربون وجهه بالسياط ، وجعل يستر وجهه ، وقال : أمرتمونا أن نتكلم فتكلمنا ، فإن أحببتم أن نسكت سكتنا . فقال اخرجوه إلى المصطبة[٢] فليلعن على بن أبى طالب . فأخرج ، فقال : لعن الله من لعن الله ولعن على بن أبى طالب (فأخبر بذلك المغيرة فقال : أُقسم بالله لتردَنَّه) فرُدَّ فقال : ألا إن الأمير أمرنى أن ألعن علىّ بن أبى طالب فالعنوه لعنه الله . قال المغيرة : اخرجوه أخرج الله نفسه[٣] .

حَكَىَ الأصمعى قال : كان ابن سيرين[٤] يتقاضاه المتقاضى فيقول : أعطيك أحد اليومين إنشاء الله عز وجل . يعنى فى الدنيا أو فى الآخرة .

---

(١) قضى فى الكلالة : جد فى الأمر وبذل فيه جهده حتى أعيا .

(٢) المصطبة : مكان ممهد مرتفع قليلا يقعد عليه ، أو موضع يجتمع فيه الفقراء والسائلون من ذوى الحاجة ، وهو المقصود هنا .

(٣) فى ب : « أخرج الله روحه » .

(٤) هو محمد بن سيرين البصرى ، إمام وقته فى علوم الدين وأشهر فقهاء البصرة . اشتهر بالورع وتفسير الرؤيا ورواية الحديث ، توفى بالبصرة عام ١١٠ للهجرة .

وحكَى الهيثم عن أسـامة بن زيد[١] عن نافع ، أن عبد الله بن رَوَاحة[٢] وقع على جارية له ، فاتهمته امرأته . قال : ما فعلت . قالت : فاقرأ القرآن إذن ، فقال :

شهدت بإذن الله أن محمـداً رسول الذى فوق السموات من عل
وإن أبا يحيي ويحيي كليهما له عمـل فى دينـه مُتقبَّل
وإن أخا الأحقاف إذ يعدلونه يقوم بذات الله فيهم ويعدل

فقالت : أولَى لك[٣] .

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة : صحابى كان أبوه من أوائل المسلمين ، وقد تبناه الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان الرسول يحب أسامة كثيراً . وقد هاجر أسامة معه إلى المدينة ، وأمَّـره قبل أن يبلغ العشرين من عمره إكراماً لأبيه زيد بن حارثة الذى كان الرسول قد تبناه وقد قتل فى معركة مؤتة . وكان الرسول جهز هذه الحملة الأخيرة إنتقاماً لانـكسار الجيوش الإسلامية فى تلك المعركة .

(٢) عبد الله بن رواحة : أنصارى من الخزرج . كان من الصحابة الملازمين للنبي صلى الله عليه وسلم وشهد معه أكثر حروبه وغزواته ، واستخلفه مرة على المدينه فى إحدى غزواته . ويعد من الشعراء الراجزين . استشهد فى معركة مؤتة سنة (٨) للهجرة .

(٣) جاءت هذه الحـكاية فى «أخبار النساء» لابن قيم الجوزية بتفصيل أكثر ، كما أن الشعر الذى قاله ابن رواحة يختلف عما ورد هنا ، حيث قال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به مؤمنات إن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالـكافرين المضاجع

أخبار النساء ، ص : ٧٤ — ٧٥ .

حكىَ مجالد أبو هاشم : أن المهدى اصطاد فى يوم تسعة أَضُبٍّ وخَزْرًا[١] رمياً بيده ، فسُرَّ بذلك وانتشرت ثيابه من شدة الركض ، وقوسه موترة فى ذراعه . فدنا منه رجل من خدمه ليصلح ثيابه ، فوثب بالرجل برذونه ، فتقدم وتعلق الثوب بسِيَة القوس على نخذ المهدى فاندقت . فتطيرَّ المهدىُ من ذلك وشتم الرجل وهمَّ به . فقال له الحسن الحاجب : تكون العين[٢] بقوسك يا أمير المؤمنين أحبُّ إلىَّ من أن تكون بك . فعلتَ مافعلت وتنكر أن تصيب قوسَك العينُ . فسُرِّى عنه وضحك ، ورأى أنه قد صُرِف عنه بذلك مكروه .

وحدَّث المدائنى قال : مَرَّ الحسن بن أبى الحسن[٣] برجل يقاد منه[٤] ، وقد اجتمع الناس عليه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل يُقاد منه . ففَرَج[٥] الناس له حتى أتى وليَّه فقال : مَن المقتول ؟ قال : يا عبد الله إنك ما تدرى لعل هذا القاتل قتل أخاك وهو لا يريد قتله ، وأنت تقتله متعمداً ، فانظر لنفسك . قال : قد تركته .

---

(١) الأضب ، جمع الضب ، والخزر : الخنزير .

(٢) العين : الإصابة بالعين .

(٣) أبو سعيد الحسن بن يسار المعروف بالحسن البصرى ، تابعى وأمام أهل البصرة فى الفقة والحديث . كان غاية فى الجرأة والفصاحة . وكان زاهداً مهيباً لاتأخذه فى الحق لومة لائم ، وقد انتقد الخلفاء والولاة كثيراً . توفى سنة ١١٠ هـ .

(٤) يقاد منه : يقتل بالقتيل ، أى بدلا منه .

(٥) فرج الناس له : انكشفوا له عن المكان .

الباب السادس عشر

في دفع مكروه بمكروه

حُكِيَ أن فيروز الفارسى[1] لمَّا خرج يريد أهل خراسان الهلوية ، وهم أهل بَلْخ[2] ، نزل بدسكرة[3] الملك . فبلغه أن بها زاجراً[4] ضريراً . فخرج فيروز متنكراً حتى وقف بباب الزاجر فقرعه ، فقال الزاجر لابنه : ما ترى ؟ قال ابنه : أرى عُقاباً على نخلة . قال : بخ بخٍ عظيم الطير على عظيم الشجر ، الملك على الباب . فخرج إلى الملك فسلَّم عليه بتحية الملك . فقال له الملك : كيف علمت أنى على الباب ؟ فخبَّره . فقال له فيروز : انظر (فى) هذا الذى نسير إليه أَيقتلنا أم نقتله ؟ فقال له الزاجر : قل خيراً أيها الملك . فردد الملك قوله ثلاث مرات ، يبتدىء بقتلنا قبل نقتله . قال الزاجر : أنت تقول أيها الملك .

ومضى فيروز نحو خراسان ، فلما جاوز الرىّ زحف إليه أهل خراسان ، فبلغهم أنه فى جيش عظيم لا طاقة لهم به . فقال لهم شيخ قد كبرت سنه : أنا أبذل

---

(١) راجع عن تولى فيروز العرش وموته فى الصحراء فى أثناء حربه مع الهياطلة (إيران فى عهد الساسانيين ، ص : ٢٧٥ - ٢٨٠) .

(٢) بلخ : مدينة مشهورة فى خراسان ، وهى اليوم فى أفغانستان .

(٣) الدسكرة : القرية الكبيرة .

(٤) الزاجر : الكاهن الذى يتنبأ بواسطة الطير . وزجر الطير : أطاره فتفاءل به إن كان عن اليمين ، وتطير منه إن كان عن اليسار .

لـكم نفسى ، فقد نلت من الدنيا منالًا جليلًا . قالوا : وما ذاك ؟ قال : تقطعون يدىَّ ورجلىَّ ثم تلقوننى على طريق فيروز ، فلعل هلاكه على يدى . فأبوا عليه لجلالته ، فعزم عليهم حتى فعلوا به . قال : فقطعوا يديه ورجليه ورموا به على طريق فيروز . فلمَّا رآه فيروز سأل عنه فخُبِّر عنه ، وعرف جلالته فى قومه ، فسأله عن خبره . فقال الشيخ : إنى أمرتهم بطاعتك وأعلمتهم أن لا طاقة لهم بك ، ففعلوا بى ما ترى . وعندى رأى تستبيحهم به وتبلغ لى منهم الشفاء . قال فيروز : ما هو ؟ قال : أُخرجك فى برية حتى توافى المـاء فى ثلاثة أيام ، ثم تخرج خلفهم فتسبقهم إلى بلادهم ، وتبلغ غاية مجيئك ، فإنك إذا فعلت ذلك بهم أبدتهم .

فأمر فيروز بتزود المـاء لثلاثة أيام . ثم رحل آخذاً فى المفازة مع الشيخ ، فسار بهم ثلاثة أيام . فلما كانوا فى اليوم الرابع سأله فيروز عن المـاء ، فأومأ إلى جبل وقال : المـاء فيه ، فسار أهل العسكر على جهد شديد . فلمَّا كان من اليوم الخامس ، سألوا الشيخ عن المـاء فقال : هل بقى منه شىء ؟ قالوا : لا ، وقد سقط أكثر الدواب والناس . قال : هذا الذى أردت بكم ، فاعلموا أنَّ أقرب المياه هو الذى تزودتم منه . فقتله فيروز ، وطلب المـاء فمات دونه ، وذهب أصحابه جميعًا .

وحكى هشام بن الـكلبى (١) عن شَرْقِى (٢) قال : كنت مع بعض الملوك

---

(١) هو هشام بن محمد بن السائب الـكلبى ، مؤرخ وعالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها كأبيه . وهو من أهل الـكوفة وله تآليف عديدة وأكثرها فى أنساب العرب وبيوتاتها وأيامها : توفى فى مطلع القرن الثالث للهجرة .

(٢) شرقى : هو الوليد بن حصين بن حبيب الـكلبى ، عالم بالأدب والأنساب من أهل الـكوفة : وقد أوكل المنصور إليه تدريس ابنه المهدى الأدب . وكان راوية صاحب قصص وسمر توفى فى أواسط القرن الثانى للهجرة .

ضُممت إليه . فكنت أحدثه بأحاديث العرب وأنسابها ، فلا أراه يرتاح إلى ذلك ولا تعجبه . فاحتلت له حيلةً ، فقال لى رجل من جلسائه: يا أبا المثنى ، أىُّ شيء الغرىُّ فى كلام العرب ؟ قلت : الغرىُّ الحسن ، تقول (العرب هذا رجلٌ غرىٌّ أى حسن) ، وإنما سمى الغريين[١] لحسنهما فى ذلك الزمان . وإنما بنى الغريَّان على بناء غريين بناهما ملك بمصر ، وجعل عليهما حرسًا فمن لم يُصلِّ لهما قُتل . إلا أنه يُخَيَّر خصلتين ليس فيهما النجاة من القتل ، ولا المُلْك . ويُعطى ما يتمنى ثم يُقتل . فعُمِّر بذلك دهراً . فأقبل قصَّار[٢] من أهل إفريقية مع حمار له كذين[٣] يريد مصراً ، فمرَّ بهما فلم يُصلِّ لهما . فأخذه الحرس فقال : مالى ؟ قالوا : لم تصلِّ للغريين . قال : لم أعلم . فذهبوا به إلى الملك ، فقالوا : هذا لم يُصلِّ للغريين . قال : ما منعك أن تصلى لهما ؟ قال : لم أعلم وأنا غريب من أهل إفريقية أحببت أن أكون جارك أغسل ثيابك وثياب خدمك وأُصيب فى كنفك خيراً ، ولو علمت لصلَّيت لهما ألف ركعة . قال له : تَمَنَّ . قال : وما أتمنى ؟ قالوا : لا تتمنى المُلْك ، ولا أن تنجو بنفسك من القتل . قال : فأقبل به وأدبر ، فأبى أن يفعل . (ثم) قال : فإنى أتمنى عشرة آلاف دينار . قال : علىَّ بعشرة آلاف دينار . قال : بريد . فدُعىَ له ببريد ، فكتب : إذا أتيت إفريقية فسل عن منزل فلان القصَّار ، فادفع هذه العشرة آلاف دينار إلى أهله .

---

(١) الغريان : يقال إن المنذر الثالث أحد ملوك الحيرة أقام بنائين حسنين ، وجعل فى كل سنة يومين ، يوم نعيم ويوم بؤس . وأول من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الإبل ، ويأمر بقتل أول من يطلع عليه فى يوم البؤس ويطلى بدمه الغريين . راجع التفصيلات فى : تاريخنا بأسلوب قصصى ، ص : ٣٨ — ٤١ .

(٢) القصار : مبيض الثياب ومنظفها .

(٣) الكذين لم نجد لها فى القاموس معنى : ولعله يقصد بها الثفر وهو السير الذى يربط سرج الدابة .

فقيل : تَمَنَّ الثانية . قال : ضربُ كل واحد منكم بهذا الكذين ثلاث ضربات : واحدة شديدة ، وأخرى متوسطة ، وأخرى دون ذلك . قال : فارتاب الملك ومكث طويلًا ، ثم قال لجلسائه : ما ترون ؟ قالوا : لا نرى أن تبطل سُنَّةً سنها آباؤك . قالوا : فيمن تبدأ ؟ قال : أبدأ بالملك ابن الملك الذى سنَّ هذه السنَّة . فنزل (الملك) من سريره ، ورفع القصار الكذين فضرب به أصل قفاه فسقط على وجهه . فقال الملك فى نفسه : ليت شعرى ، أى الضربات هذه ؟ والله لئن كانت الهينة ثم جاءت الوسطى والشديدة لأموتن ، ونظر إلى الحرس وقال : ياأولاد الزنا تزعمون أنه لم يُصلِّ ، أنا والله رأيته يصلى ، خلوا سبيله ، واهدموا الغريين . فضحك حتى جعل يفحص برجله ، وأقبل علىَّ واستحبنى[1] ووصانى .

حكى بكَّار بن ماهويه ، أن ملكاً من ملوك الهند له وزير يعمل برأيه . وكانت البراهمة تبغض ذلك الوزير ، وتتمنى موته أو موت الملك ، ليستريحوا منه . فمات الملك وصار ابنه فى مكانه ، واتخذ ذلك الوزير وزيراً كما كان لأبيه . فثقل ذلك على البراهمة فاحتالوا له . وملوك الهند لا تخالف البراهمة ، لأنهم أصحاب الدين والزهد فى الدنيا . فاحتالت البراهمة بكتاب افتعلوه على لسان الملك الميت ، وشبهوه بخطه وبكلامه وخاتمه ، إلى ابنه يعلمه أنه قد صار إلى كل ما يحب وإلى كل خير ونعيم . وأنه لا يفقد شيئاً إلَّا وزيره ذلك . وسأله أن يُبِرَّه ويؤنسه بالبعث به ، ودسُّوا الكتاب مع رجل زعموا للملك أنه كان مات ثم عاش . وأن الملك أرسله بكتابه إلى ابنه . فلما صار الكتاب إلى الملك الثانى ابن الملك الأول اغتمَّ لذلك ، ولم يشك أن الخبر حق . فدعا وزيره فدفع إليه

---

(١) فى ب : « واستخفنى » .

الكتاب ؛ فكره الوزير أن يقول له إن هذا مفتعل فلا يصدقه . ولا يقدر على تكذيب البراهمة .

فقال الوزير للملك : أصلح الله الملك ، هذا خط أبيك وكلامه وخاتمه ، وأنا أرى أن يوجهني الملك إليه . فسُرَّ (الملك) بذلك ، فقال له الوزير : ما شيء آثر عندي من اللحاق بسيدي ، فابعث (بي) إليه ، وليكن على جهة الكرامة منك لي . قال : وما جهة الكرامة ؟ قال : أمضي إلى منزلي ، فأعهد إلى أهلي وولدي بما أريد ، ثم يعدني الملك يوماً ليصير فيه إلى منزلي ، هو وجماعة أهل مملكته حتى أحرق نفسي بالنار ، وأصير إلى سيدي ، وأظهر السرور بذلك . فأجابه ابن الملك إلى ما سأل ، وقال : ذلك لك .

وكانوا لا يقتلون بالسيف إنما يحرقون بالنار . فعمد الوزير فحفر سَرَباً[1] في داره إلى حجرة بعيدة منها قد أعدَّ فيها ما يكفيه من الطعام لسنين . وجعل على فُوَّهته دكاناً[2] هال فوقه تراباً يسيراً قدر ما إذا ضربه الضارب برجله خُسِف . وأمر بجمع الحطب ، فجُمِع قريباً من ذلك السرب . وهيأ له طريقاً شبيهاً بالزقاق ، وبنى حائطاً حول ذلك الموضع . وطلب رجلاً مات من يومه وأخذه فوضعه تحت الحطب .

وحضر الملك والبراهمة والناس ، وأخذ الوزير شعلة نار ليشعل بها ذلك الحطب ، والناس ينظرون إليه بعد أن ودَّعهم ، يُريهم الاستبشار بما هو فيه . فلما اشتعل الحطب وعلا الدخان وستره عنهم ، ضرب رأس النقب فصار في ذلك السرب وتوارى شهراً ، واشتعلت النار وفاح ريح (لحم) الميت

---

(١) السرب : الممر تحت الأرض .

(٢) الدكان : شيء كالمصطبة يقعد عليه .

فى النار . وكان قد جعل لرأس السرب طبقاً متهدماً من حجارة فى جملة حجارة فرش بها الدكان ، فأعاده إلى مكانه ودعمه من تحته .

ولم يشك الملك والبراهمة والناس فى احتراق الوزير لما رأوا عظاماً محترقة ظنوها عظامه . وسُرَّ البراهمة بذلك لهلكته . فمكث حولاً ثم أتاه بعد زمان على لسان الملك يتشكر له إرساله إليه بوزيره . ويخبره أنه قد رأى أن يؤثره به لحاجته إليه ولِما بلاه من نصيحته وطاعته . ويسأله أن يعينه ويؤنسه ويكرمه ، بأن يوجه أربعة آلاف من البراهمة ليسألهم عن أشياء به حاجة إلى علمها من جهتهم . فلما أتاه لم يشك أنه صادق ، وأنه قد كان احترق ومات ورجع من عند أبيه إليه . فجمع البراهمة وقد هيأ لهم حطباً كثيراً وأظهر لهم ما تحمله الوزير عن أبيه إليه . فقالوا : أيها الملك ، أبوك مات وصار تراباً . فقال : قد كذَّبتم أنفسكم بالكتاب الذى ذكرتم أنه جاء من عنده ، فأحرقهم ورجع كيدهم عليهم .

الباب السابع عشر

في دفع مكروه بلطف

حُكيَ أن عبد الله بن عليّ لما انهزم من نصيبين[1] عن أبي مسلم ، صار إلى البصرة إلى أخيه سليمان بن عليّ ، فاستخفى عنده . وكتب سليمان إلى أبي جعفر المنصور يسأله لعبد الله بن عليّ أماناً . فكتب المنصور لعبد الله أماناً لم يستقصه[2] ، فردَّ الأمان على المنصور وخبّره بما فيه . فقال : مَنْ يفهم (مثل) هذا بالبصرة ؟ قيل له : ابن المقفع . فعزل المنصور سليمان بن عليّ عن البصرة وولاها سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب . ثم كتب إلى المهلبي يأمره بقتل ابن المقفع . وكان عبد الله بن المقفع كثيراً ما يستهزىء بسفيان ابن معاوية . فحضر حين ولي البصرة أهل البصرة وفيهم ابن المقفع ، فذكر بحضرة سفيان الوطيس[3] فلم يعرفه ، فسأل عنه فضحك منه ابن المقفع .

وكان الكتاب قد ورد على سفيان بقتله . فلما انفصل الناس عن مجلس

---

(١) نصيبين : مدينة حصينة تقع في الجزيرة قرب جزيرة ابن عمر ، وقد جرت عندها الموقعة التي انتهت بهزيمة عبد الله بن علي ، وانتصار جيش المنصور بقيادة أبي مسلم الخراساني .

(٢) استقصى : بلغ في الأمر غايته .

(٣) الوطيس : التنور .

سفيان بن معاوية ، أمر ابن المقفع بالجلوس . حتى إذا (خلا) دعا بتنور عظيم ، ثم أمر به سفيان فسُجِر[1] حتى بلغ غايته . ثم قال لابن المقفع : أتضحك منى لِمَ لا أعرف الوطيس ، أليس التنور المُسجَّر ؟ قال : بلىَ . قال : فوالله لأقتلنك به . قال له ابن المقفع : لا تقتلنى فإن خلفى من قريش من يطلب بدمى . قال : فأمر سفيان فطُرح فى التنور فاحترق ، وكتم سفيان خبره ، وفُقد ابن المقفع ، فاتهم به سفيان .

فشخصت جماعة من قريش كان ابن المقفع أسلم على أيديهم ، إلى المنصور يتظلمون من سفيان بن معاوية ويذكرون له أنه قتل ابن المقفع . وحضر سفيان فأنكر ذلك . فتشاهدوا عليه بقتله بالظِّنة[2] . فدعا المنصور سفيان فخَلاَ به ، فقال : أوهم (أن) ابن المقفع عندك . ثم دعا بالقرشيين فقال : شهدتم أن هذا قتل صاحبكم ، فإن ظهر حيًّا فدماؤكم وأموالكم رهن به إن كذبتم فى الشهادة . فظن القوم أن ابن المقفع لم يُقتل ، فلجلجوا[3] فى الشهادة وشكوا فيها ، فدرأ[4] القتل عن سفيان .

وحُكىَ أن مزدَك[5] كان من أهل الشام ، فصار إلى ناحية فارس ، فأفسد

---

(١) سجر التنور : أحماه .

(٢) الظنة : الشبهة .

(٣) لجلجوا فى الشهادة : ترددوا فيها .

(٤) درأ عنه : دفع عنه .

(٥) المعروف أن مزدكاً فارسى الأصل ، على أن الروايات وإن اختلفت فى محل ولادته ، فليس فى أحدها إشارة إلى نشأته فى الشام .

أكثر أهلها ، وانقلبت معه العامة ، وكان ذلك على عهد قباذ أبى أنوشروان ، فخافه قباذ على المملكة فتبعه[١] . فأمر مزدك الناس بإباحة الفروج وأن لا يمنع الرجل من أراد امرأته . وقال لقباذ : لا دين لك أو تخرج امرأتك فى أفضل زيها حتى ينالها كل من أراد . قال أنوشروان : كنت أطلب إلى مزدك فى أمى أن لا يبيحها وأقبِّل رجليه ، ولا أنسىَ ريح جوربه ونتنه . ثم قال مزدك لقباذ : إن النار تطلب كبدك . وحفر حفيراً من ناحية حتى أخرجه تحت كرسى تحت باب بيت النار ، وجعل تحت النار أنبوباً من حديد . وأدخل فى الحفير رجلا ، فكلما تكلم الرجل الذى فى الحفير تحت النار ، سُمع من جوف النار . ثم قال مزدك لقباذ : أدخل بيت النار لتسمع ما تطلب النار .

فدخل قباذ وابنه أنوشروان ، فسمع من جوف النار صوتاً يقول : أريد كبد قباذ . فقال قباذ : أقتل نفسى لطاعة النار . فقال له أنوشروان : إن النار لا تتكلم وهذه مخرفة[٢] ، فاهدم كرسى النار لتعلم الحيلة . فقال قباذ : هذا من كفرك إذ تأمرنى بهدم كرسى النار ، فاتخذ أنوشروان حديدة طويلة حادة وهى المحشَّة ، ثم قال لقباذ : عد إلى النار ، حتى يتضح لك الخبر . فعاد فسمعها تطلب (كبد) قباذ . فأدخل أنوشروان المحشَّة تحت الكرسى وغمزها غمزاً شديداً ، فوقعت فى جنب الرجل الذى كان يتكلم تحت النار فصاح . ففهم قباذ المخرفة ، وأمسك تخوفاً من مزدك وكثرة من تبعه .

---

(١) فى ب « فمنعه » .

(٢) المخرفة : فساد العقل ، وخرّفه نسبه إلى الخرف .

وكان لدار أنوشروان بستان واسع لحفر فيه اثنى عشر ألف بئر ، ووضع مع كل بئر جصًّا وجرة ماء . ثم مال إلى مزدك بالتعظيم حتى أنس به ، ثم قال له أنوشروان : احضرنى من ساعدك على دينك ليبايعوا لى بالملك بعد أبى وأكون على دينك . فأحضرهم مزدك ، فقال له أنوشروان : ليدخل علىَّ منهم عشرة من وجوههم ، فإذا بايعوا دخلت عشرة من وجوههم . وهيأ رجالاً معهم السيوف ورجالاً لِما أراد .

فدخل مزدك ومعه عشرة رجال ، فأمر بهم فاختُلِسوا[١] ، فنُكِّس كل رجل منهم فى بئر وصب الجص والماء عليه ، فلم يبرز منه إلاَّ رجلاه . ثم أدخل من أصحاب مزدك عشرةً عشرةً ، ففعل بهم مثل ذلك . حتى أتى على اثنى عشر ألف رجل[٢] . وقيل للباقين انصرفوا إلى الغد ، وهم يظنون أن أصحابهم فى منازلهم .

ثم بعث إلى أبيه قباذ فقال له : انظر إلى حسن بستانى . فرأى قباذ أرجلا شائلة . فقال أنوشروان : هؤلاء مزدك وأصحابه . فجزع قباذ . فقال له أنوشروان : أنِ اسكت وإلاَّ لحقت بهم ، فأمسك . وأخرج أنوشروان مزدكاً فصلبه فسكن الناس[٣] .

حُـكِىَ أن مروان الحمار[٤] ، طلب العباسيين لما ابتدأ أمرهم يزيد ،

---

(١) اختلس : أخذ خلسة من الآخرين .

(٢) تلاحظ المبالغة فى الأرقام .

(٣) راجع الهامش ٤ فى ص : ٧ والهامش ٤ فى ص : ١٤ .

(٤) هو مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى الشام . انتزع الخلافة من إبراهيم ابن الوليد الأول . وكان مروان جلداً صبوراً فلقب بالحمار .

ووقعت البيعة سرًّا لإبراهيم بن محمد[١] ، فلم يجدهم . فوجّه رجلاً من قواده يقال له العكّى[٢] فى أربعة آلاف جريدة على الخيل[٣] ، وأمره أن يأخذ فى برية ويتتبع آثار بنى العباس ، وأين سلكوا ، ويقتل كل من وجد منهم . فخرج العكّى لما أُمر به . وخرجت بنو العباس هاربين إلى العراق ، وهم إذ ذاك ومن معهم من أتباعهم ومواليهم سبعون رجلاً . فبيناهم يسيرون إذ نظروا إلى غبرة عسكر العكّى ، فتشاوروا بينهم . فقال بعضهم : نقاتله ، وقال بعضهم : نجحد أننا من بنى العباس . فقال لهم عيسى بن علىّ بن عبد الله بن العباس[٤] : أما القتال فليس لقتال سبعين رجلاً على دواب ضعاف

---

(١) إبراهيم بن محمد ، ويعرف بإبراهيم الإمام ، وهو زعيم الدعوة العباسية ومؤسسها . كان يسكن فى الحميمة قرب معان . وقد أوصى له أبوه محمد بن على ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بالإمامة . وقد نشط فى نشر الدعوة لبيته . واكتشف قابليات أبى مسلم الخراسانى فولاه رئاسة الدعوة فى خراسان . وعلم به مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فقبض عليه وسجنه ثم قتله فى السجن . فعهد إبراهيم بالبيعة من بعده لأخيه أبى العباس السفاح ، الذى قدر له أن يكون أول خلفاء بنى العباس .

(٢) فى ا : « العلى » .

(٣) الجريدة : وحدة من الجيش وهى أصغرها .

(٤) عيسى بن على بن عبد الله بن العباس ، من علماء بنى العباس ، ولد فى مكة وسكن بغداد حتى وفاته سنة ١٦٤ هـ . وهو عم السفاح والمنصور . وكان ناسكاً معتزلا أعمال الدولة فلم يتولَّ أى عمل رسمى . قال عنه الرشيد : كان عيسى بن على راهبنا وعالمنا .

وحمير لأربعة آلاف على الخيل وجه ، وأما الجحد لأنسابنا فإن هذا لاينكتم والقتل خير منه ، ولـكن دعونى وإيَّاه . قالوا : شأنك .

فحرَّك دابته ، فلما بلغ عسكر العكِّى فسأل عنه فخُبِّر به فلقيه ، فقال له : عندى نصيحة ، فأخلِنى . فخلا به . فقال : إن الـكذب شر ما استعمل ، وهذه بنو العباس خلفى ، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم سيملكون ، فوالله لو لم يبقَ منهم إلاَّ واحد لَملَكَ . ومنا قوم بالعراق وقوم بالحجاز ، فإن صفحت جزاك الله خيراً (أولاً) وجازيناك بعده (ثانياً) ، وإن لم تصفح فها هم أولاء ولا يدٌ بينك وبينهم إلاَّ يد الله . قال العكِّى : لا والله ما كنت لأخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهله بالقتل ، فامضِ إلى أصحابك آمناً وهم آمنون . وقال لأصحابه : إن هذا الرجل خبَّرنى أن بنى العباس أخذوا فى طريق غير هذا الطريق ، فامضوا بنا نعارضهم ، فصرف أعِنَّة خيله . فلما ولى بنو العباس الأمر بلغوا بالعكِّى مبلغاً جميلاً .

وحُـكى أن إسحاق بن إبراهيم الطاهرى شكا إلى المأمون أن قوماً من جيرته من مشايخ الحربية[1] لا يزالون يثبون على غلمانه وأتباعه ، فينالونهم بالشتم والضرب والاستخفاف . وإنه ربما مرَّ بهم فسمع الشتم والتنقص منهم . ويسأل المأمون أن يطلق له الانتصار منهم . فقال له المأمون : هؤلاء أهل مدينة السلام وأبناء الدولة فلا تعاودنى فى شىء من أمرهم ، واحتمل ما يكون منهم حتى ابتدئك بالمسألة عنهم وآمرك فيهم بما يصلح أمرك .

فأمسك إسحاق ، وبعث المأمون إلى جيران إسحاق من سألهم سرًّا ، وكتب منهم كل بذىء متسرع من مشايخ أهل خراسان . ثم بعث ثقة من

(١) الحربية : هم الجند العرب وكلهم من المشاة ، وقد نسبوا إلى محلة الحربية إحدى محلات بغداد التى سميت باسم حرب بن عبد الله البلخى أحد قواد المنصور .

قبله على لسان إسحاق إلى كل واحد منهم بصلةٍ وأعلمهم أنها دارَّة[(١)] لهم فى كل سنة ، وأمره بكتمان ذلك ، وأعلمه أنه خصَّه بالصلة دون سائر نظرائه . فسكن عن إسحاق تعنت[(٢)] القوم ، وأخذوا على أيدى سفهائهم . وبلغ إسحاق عنهم من جميل الذكر ضد ما كان يبلغه . حتى إذا علم المأمون أن ذلك قد ظهر منهم لإسحاق قال له : يا إسحاق ، ما حال جيرانك ؟ قال : يا أمير المؤمنين حالوا عما كانوا عليه[(٣)] ، وحَسنُ قولهم وأمنت على دارى منهم . قال المأمون : يا إسحاق ، هذا بما لم يبلغه رأيك ، فإنى قد بعثت على لسانك مَنْ وصلهم ، فاجعل هذه الصلة لهم فى كل سنة من مالك . فإنما أنتم بشر ، وإذا استأثرتم على نظرائكم أفسدتم قلوبهم ، فآسوا الناس تصفُ لكم نياتهم .

وحكى المدائنى أن فتيين كانا يتنادمان ، ولكل واحد منهما امرأة ، فأرسلت امرأة أحدهما إلى صديق زوجها تدعوه إلى نفسها ؛ فأبى ذلك عليها بالمحافظة منه على صاحبه . فألحَّت ؛ فلما أبى ، أرسلت إليه مع مولاه : لئن لم يفعل ويجيبها إلى ما دعته إليه لتقولَنَّ لزوجها إنه قد راودها عن نفسها ، وإنها امتنعت منه . فأحب الرجل أن يحتال لها بحيلة لا يخون صاحبه معها ، ولا يلجىء المرأة إلى أن تتقوّل عليه ما تهددته به . فأرسل إليها ، إذا ما أبيتِ[(٤)] وكان هذا منك الجد ، فأنا والله أعشق لكِ منكِ لى ، وما كان يمنعنى من طلبك إلا مخافة أن لا تجيبينى ، وأن تَنُمِّى علىَّ عند زوجك . وليس لى منزل يحتمل دخولك ولا أثق بأحد ، وليس منزلى بأجمل لكِ وأجدر أن يمكننا الاجتماع فيه من

---

(١) دارّة : مستمرة .

(٢) التعنت : الشدة والقسوة فى المعاملة . وفى نسخة ب : « تعيُّث » .

(٣) حال عما كان عليه : تحول عما كان عليه .

(٤) فى ا « إذا كنتِ » .

منزلك . فالرأى أن تقولى لزوجك إنك تريدين زيارة أهلك يوم كذا ، وأقول له إن لى صديقة أحب أن أجىء بها إلى منزلك ، فإذا صرتِ إلى أهلكِ ، انسللتِ مع مولاتى هذه إلى منزلكِ وأصير أنا فيه إليكِ . وكأنكِ أنتِ التى أعلمته أنها تزورنى . فأجابته إلى ذلك .

فأرسل إليها إنى لست آمن أن يظهر شىء من أمرنا ، ولـكنى أريد إذا بلغه شىء من هذا أن أحلف له أنك امرأة ما رأيت لكِ وجهاً قط ، ولا كلمتكِ كلمة ولا كلمتين ، فأصير إليكِ فى الظلمة مراراً حتى نأمن ونطمئن . فأجابته إلى ما قال ، وفعلت ما أمرها به . فلما صارت إلى منزل أهاها ورجعت إلى منزلها مع مولاته . وقد كان قال لزوجها : إن صديقته تلك تأتيه . فلما أمسى وصارت تلك إلى منزلها ، قال : إن صديقتى قد جاءت ، وأراه أنه يدخل إليها . واندس فى موضع لم يصر إليها منه ، ولم تعلم (بمكانه) . وقد قال لزوجها : إنى قد احتلت لصديقتى بحيلة لأحملك عليها ، فقلت لها لا أراكِ ولا ترينى ، ولتكونى فى ظلمة ، ولا تكلمينى ولا أكلمك . فلما رجع إلى زوجها قال : ما رأيت أطيب منها قط فدونك فادخل إليها . (فدخل) وهو يرى أنها صديقة صاحبه ، وهى ترى أنه صديق زوجها . وقد سأله صديقه أن يقطع من شعرها خصلة ، فلما دخل صاحبه قطع من شعرها خصلة وخرج ودفع الشعر إلى صديقه .

فلما صار فى يده ووثق بنفاذ كيده وحيلته ، قال لمولاته تلك التى كانت الرسول بينهما : اعلميها أن زوجها هو الذى صار إليها ، وقد قطع من شعرها خصلة ودفعها إلىَّ ، واخبرها كيف احتال لها . فانصرفت إلى أهلها وأرسلت إليه تحلف له أنها لا تعود لمثلها أبداً .

وحكى الهيثم بن عدىّ ، عن ابن عيَّاش قال : قال عبيد الله بن زياد ابن ظبيان[١] : إيَّاكم والطمع فانه يُردى ، والله لقد هممت أن أفتك بالحجاج وأجمعت عليه ، فإنى لواقف على باب دير الجماجم ، إذ أنا بالحجاج قد خرج على دابة ليس معه غلام ، فأجمعت على قتله ، وكأنه عرف ما فى نفسى فقال : لقيتَ ابن أبى مسلم[٢] ؟ قلت : لا ، قال : فالْقه فإن عهدك معه على الرىّ . قال : فكففت وأتيت يزيد بن أبى مسلم فسألته ، فقال : ما أمرنى بشىء .

(١) عبيد الله بن زياد بن ظبيان البكرى ، فاتك من الشجعان وفارسى جرىء . كان مقرباً من عبد الملك بن مروان وحارب معه ضد مصعب بن الزبير ، وهو الذى حمل رأس مصعب عند ما قتل ، إلى عبد الملك . خرج على الحجاج وهرب إلى عمان فمات هناك فى سنة ٧٥ هـ .

(٢) هو يزيد بن دينار ، وكنية أبيه أبو مسلم . كان من موالى ثقيف واتخذه الحجاج كاتباً له ، فظهرت مواهبه فولاه الخراج فى العراق ، وأقره الوليد ابن عبد الملك على ذلك . ثم ولاه سليمان بن عبد الملك ولاية إفريقية وبقى فيها حتى اغتيل سنة ١٠٢ هـ .

الباب الثامن عشر

لطف التدبير في دفع مكروه[1]

حُكِيَ أن تأبط شرًّا[2] ، وهو ثابت بن جابر الفهمى ، أغار هو وعمرو ابن برّاق[3] ومعهما الشنفرى الفهمى[4] ، وهم رجّالة ، على بَجِيلَة[5] . فأقعدت بجيلة لتأبط شرًّا رجالًا على الماء . فأقبل تأبط شرًّا وصاحباه فى الليل يريدون الماء . فلما قربوا منه قال تأبط لصاحبيه : إن بالماء رَصْداً[6] وإنى لأسمع وجيب قلوب على الماء[7] . قال صاحباه : ما بالماء أحد ! وما هذا (إلّا) وجيب قلبك .

---

(١) سقط هذا العنوان فى نسخة ب .

(٢) وهو من أهل تهامة ، فاتك جاهلى من الشعراء الصعاليك . كان شاعراً فحلا وعداء مشهوراً ، يقال إنه كان يطارد الظباء فلا تفوته .

(٣) وهو من الفتاك العدائين كذلك فى الجاهلية .

(٤) هو عمرو بن مالك الأزدى من قحطان . شاعر جاهلى من الفتاك العدائين . وكان خليعاً تبرأت منه قبيلته لسوء فعلاته . وكان مضرب المثل فى العدو فيقال أعدى من الشنفرى . وهو صاحب قصيدة لامية العرب المشهورة التى شرحها الزمخشرى فى كتابه أعجب العجب .

(٥) بجيلة : قبيلة عدنانية ، من أشهر بطونها قسر ، التى منها خالد ابن عبد الله القسرى .

(٦) الرصد : المراقبون ، ومفردها الراصد .

(٧) وجيب القلوب : خفقانها .

قال : لا والله ما وجب قلبي قط . قال : فمضى الشنفرى فشرب ، ثم رجع فقال : ما على الماء أحد . قال تأبط شرًّا : بلى ! ولكنهم لا يريدون غيرى .

ثم مضى عمرو بن برّاق فشرب ، ثم رجع فقال : ليس على الماء أحد . قال تأبط شرًّا : بلى ! ولكنهم لا يريدون غيرى ، ثم قال : إنى ماض إلى الماء ، فإذا شرعت فيه فإن الرجال سيأخذوننى ويكتفوننى . فأمّا أنت يا شنفرى فاقعد خلف تلك الصخرة ، وأومأ إلى صخرة بقرب الماء ؛ فإذا سمعتنى أقول : خذوه ، فاقبل إلىّ فاطلق عنى وثاقى . وأما أنت يا ابن برّاق ، فأطمعهم فى نفسك ، حتى إذا خرجوا فى إثرك فلا تبعد (عنهم حتى يبعدوا) عنى ، ثم النجاء . فلما ورد تأبط شرًّا ، واثبته[(١)] الرجال وأوثقته بوتر وشدوا يديه إلى رجليه . وقعد الشنفرى عند الصخرة ، وجعل ابن برّاق يتراءى للبجليين . فقال لهم تأبط شرًّا: إن صاحبي هذا قد كبرت سنه وهو موسر ، فعدوه أن تتآسروا عليه فى الفداء[(٢)] حتى يتأسّر فيفدينى ونفسه . قالوا له : ناده أنت . فقال تأبط شرًّا : ويحك يا ابن برّاق ، إن الشنفرى قد نجا بنفسه ولا قوة بك على العدو ، وقد وعدنى القوم أن يتآسروا علينا فى الفداء فاقبل إلىّ ، فقال ابن برّاق : حتى أرود[(٣)] نفسى ، فعدا قِبَلَ الجبل شوطاً ، ثم رجع وقد دفع نفسه وهو يصيح ، فطمع البجليون فيه فخرجوا نحوه . فقال تأبط شرًّا : خذوه ، وجعل ابن برّاق يطمعهم فى نفسه ، حتى إذا بعدوا حاضرهم[(٤)] فلم يدركوه .

وخالفهم الشنفرى إلى تأبط شرًّا فأطلقه . فلما عاد البجليون قال لهم

---

(١) واثبه : بادره وانقض عليه .

(٢) يتآسر عليه فى الفداء : يأخذه أسيراً ليفتدى نفسه .

(٣) الرود : الذهاب والمجىء .

(٤) حاضرهم : عداهم .

تأبط شرًّا : ما فعل ؟ قالوا : فاتنا حَضْرًا[١] كأنه الريح . قال : فأعجبكم ذاك ؟ قالوا : نعم . قال تأبط شرًّا : فسأريكم ما هو أعجب منه ، ثم خرج هو والشنفرى يفحصان فى الأرض[٢] لهما حفيف كحفيف الريح ، ففاتاهم ؛ وفيها قال تأبط شرًّا:

نجوت منها نجائى من بجيلة إذ ألقيتُ ليلةَ خَبْتِ الرهطِ أرواقى[٣]

وحُكِىَ أن عبد الله بن علىّ عم المنصور لمّا صار إلى المنصور حبسه ، وهمَّ المنصور بالحج ، دعا عيسى بن موسى[٤] وكان ولى عهد المنصور ، فقال له : خذ إليك عبد الله بن علىّ فإنه عمى وعم أبيك ، ولا خلافة لى ولا عهد لك ما عاش فاقتله . فأخذ عيسى بن موسى عبد الله بن علىّ . فلما شخص المنصور شاور عيسى بن موسى شريكاً القاضى[٥] فيما قال له المنصور فى عبد الله بن علىّ .

---

(١) فاته حضرا : فاته عدواً .

(٢) يفحص فى الأرض : يضرب الأرض برجليه .

(٣) خبت الرهط : اسم موقع ، وألقى أرواقه : عدا فاشتد عدوه .

(٤) عيسى بن موسى بن محمد العباسى ، أمير من الولاة القادة وهو ابن أخى السفاح والمنصور . كان يقال له « شيخ الدولة » ولاه عمه السفاح الكوفة وجعله ولى عهد المنصور . فاستنزله المنصور عن ولاية العهد وأرضاه بمال وفير ، وجعلها لابنه المهدى . فلما ولى المهدى الخلافة خلعه من ولاية العهد . فأقام فى الكوفة حتى توفى سنة ١٦٧ هـ . وكان أديباً وله شعر جيد .

(٥) هو شريك بن عبد الله النخعى الكوفى ، كان فقيها عالماً بالحديث . عرف بحدة الذكاء وسرعة البديهة . وقد ولى قضاء الكوفة للمنصور ولابنه المهدى من بعده ، واشتهر بالعدل فى قضائه وأحكامه . وقد جاءت نفس هذه الحكاية فى : « كتاب الوزراء والكتاب » باختلاف فى الألفاظ ، وإن الذى شاوره عيسى هو يونس ابن أبى فروة كاتبه وليس شريكاً القاضى . كما جاءت نفس الحكاية فى : « مروج الذهب » باختلاف فى الألفاظ أيضاً ، وأن الذى شاوره عيسى هو ابن شبرمة . =

فقال له شريك : لا تقتله ، فإن المنصور أراد أن يستريح منه على يديك ، فإذا طولب به سلَّمك إلى أوليائه فيستريح منك أيضاً . فأخفى عيسى بن موسى عبد الله بن عليّ .

فلما صدر المنصور من حجه ، سأل عيسى عن عبد الله ، فقال : عملت فيه بالحزم . فبلغ الخبر أخوة عبد الله بن عليّ ، وهم سليمان وإسماعيل وصالح وعبد الصمد ، بنو عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فأتوا أبا جعفر المنصور وهم عمومته فقالوا : أعطنا أخانا . فقال : هو عند عيسى بن موسى . فقال عيسى : يا أمير المؤمنين قد علمتَ ما قلتَ لى وقلتُ لك فيه. قال : ادفع أخاهم إليهم . فلما سمع ذلك أخوة عبد الله وثبوا على عيسى بن موسى وهم عمومة أبيه ، يسحبونه . فلما نَحَّوْه عن المنصور قال لهم : على رسلكم ، إن أخاكم عندى . ثم أخرجه ، فنظر إليه أخوته فطابت أنفسهم . ثم سلَّمه إلى أمير المؤمنين فحبسه حتى مات عبد الله بن عليّ[١] .

ووقع التباعد بين أمير المؤمنين المنصور وبين ابن أخيه عيسى بن موسى ، فأراد خلعه وتولية العهد ابنه محمد بن عبد الله المهدى . فامتنع عيسى بن موسى من ذاك ، فكتب رسالة كان آخرها :

= راجع : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٣٠ .
و مروج الذهب ٢ : ٢٤٤ .
و وفيات الأعيان ٢ : ١٦٩ — ١٧١ .

(١) راجع عن موت عبد الله بن على : أسماء المغتالين ، المجموعة السادسة ، ص : ١٩٢ . ومروج الذهب ٢ : ٢١٤ .

خُيِّرت أمرين ضاع الحزم بينهما إما صَغارٌ وإما فتنــــة عمم[١]
وقد هممتُ مراراً أن أساقيكم كأسَ المنيــة لولا الله والرحم
ولو فعلتُ لزالت عنـكم نِعَمُ بكفر أمثالهـا تُســتنزلُ النقم

قال : فـكتب المنصور إلى عيسى بن موسى رسالة كان آخرها :

وحدباء لو أطلقتها من عقالهـا لضاق عليك الأفق والأفق واسع[٢]
ولـكنني تحتاطني من حفيظتي تذكُّرُ أخرى تمتطيهـا الوقائع
مخافةَ أحداثٍ متى ما أصيح بها تقف موقف الحيران والنقع ساطع[٣]
فأبقِ على ما بيننا من قرابة وراجع فخير المذنبين المراجِـع[٤]
فإنك إذا وليت ذمة بيننا شقاقاً تولتك السـيوف القواطع

---

(١) الصغار : الذلة والهوان ، والعمم : ما كان عاماً يشمل الجميع

(٢) الحدباء من الأمور : أشقها وأصعبها .

(٣) النقع : الغبار .

(٤) المراجع : التائب ، العائد إلى طريق الصواب .

الباب التاسع عشر

في مداراة السلطان

حدَّث أبو عبد الرحمن عن شعبة[1] عن قتادة[2] عن جابر بن زيد[3] عن الربيع بن زياد الحارثي[4] ، قال : ما أظن أحدا خدع عمر بن الخطاب رضي الله عنه غيري ، وأعوذ بالله أن أقول إنها خديعة ، ولكنها توفيق من الله عز وجل : كنت عامل أبي موسى[5] على البحرين ، فكتب عمر إلى أبي موسى : أنْ وافني بعمالك إذا صدرت عن الموسم . قال : فقدمنا مع أبي موسى ، فلما كنا بصِرار[6] سبقت أصحابي إلى المدينة ، فلقيت يرفا حاجب

---

(١) هو شعبة بن الحجاج العتكي : من أهل واسط وقد سكن البصرة وتوفي فيها سنة ١٦٠ هـ . كان عالماً بالأدب والشعر ومن أئمة الحديث ، قضى حياته يفتش عن المحدثين ويأخذ عن الثقات منهم ، حتى قال الإمام الشافعي عنه : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق .

(٢) قتادة بن دعامة : عالم بصري ، كان أحفظ أهل البصرة ، وإماماً في العربية ومفرداتها وأيام العرب وأنسابها . توفي بواسط سنة ١١٨ هـ .

(٣) جابر بن زيد: تابعي من أهل البصرة ، يعتبر من أئمة الفقهاء . صحب ابن عباس وأخذ عنه ، وكان من بحور العلم . ويعتبر مؤسس مذهب الأباضية . نفاه الحجاج إلى عمان ، وتوفي سنة ٩٣ هـ .

(٤) أمير فاتح ، فتحت سجستان على يده . أدرك عصر النبوة وولي البحرين ، وقدم المدينة أيام عمر بن الخطاب . كان شجاعاً تقياً .

(٥) هو أبو موسى الأشعري .

(٦) صرار : واد في الحجاز .

عمر رضى عنه ، فقلت : يا يرفا ، سائل ومسترشد ، فأرشدنى أرشدك الله . فقال : سل عما بدالك . فقلت : على أى حال يُحب أن يرى أمير المؤمنين عامله ؟ قال يحب أن يراه أشعث أغبر ذميم الثياب عافى الشعر[١] . قلت : أى الطعام أحبُّ إليه ؟ قال : ما جَشُب[٢] وغلظ .

قال : فانطلقت إلى منزلى فتجوَّعت يوماً وليلة ، ولبست أطمارى[٣] ، ووافيت أصحابى بباب أمير المؤمنين عمر (يسحبون حللهم . قال : فدُعىَ أبو موسى فدخل ، ثم دُعىَ بنا) فدخلنا ، فاصطففنا بين يديه . وصعَّد فينا البصر وخفضه ، فوقعت عينه علىَّ . فقال : هكذا . وأشار إلىَّ أن أقبل ، فدنوت . فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد بن أنس بن الريَّان الحارثى . فقال بيده هكذا ، أى تنحَّ ، فتنحيت . فصعَّد فينا البصر وخفضه ، فوقعت عينه علىَّ ، فقال بيده أن أقبل ، فدنوت ، فقال لى : ما تلى من عملنا ؟ قلت : البحرين . فقال : يا أبا موسى ، كيف هذا ؟ قال : كالخبر[٤] . ثم قال بيده (أن تنحَّ فتنحيت ، ثم صعَّد فينا البصر وخفَّضه ، ثم قال بيده) أن أقبل ، فدنوت ، فقال : كم ترتزق ؟ قلت : خمسة دراهم فى كل يوم . قال : مع عطائك ؟ قلت : نعم . قال : كثير ، منذ كم وليتها ؟ ثم قال بيده ، فتنحيت . ثم صعَّد فينا البصر وخفَّضه ، ثم قال بيده أن ادن فدنوت ، فقال : كم أنت لك ؟ قلت : أنا فى ثلاثة وأربعين ، يعنى سنة . قال : ذاك حين استحكمت سنك . ثم قال بيده ، فتنحيت . ثم صعَّد فينا البصر وخفَّضه ، ثم قال : اجلسوا ، فجلسنا .

---

(١) عافى الشعر : طويل الشعر .

(٢) جَشُبَ الطعام : خشن وغلظ .

(٣) الأطمار : مفردها الطمر وهو الثوب الخلق والكساء البالى .

(٤) أى كما تراه ، فمظهره كمخبره .

ودعا بطعامه ، فأُتى بجفنة فيها ثريد مَلَّة[١] ولحوم إبل ، قال : فأما أصحابى فعهدهم بالطعام اللين حديث ، وأما أنا فكنت جائعًا . قال : فأقبلت آكل وهو يلاحظنى ، ثم أُسقطت[٢] بكلمة تمنيت أن تنشق بى الأرض فأدخل فيها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو كان طعامك الذى تأكل ألين من هذا ؟ فرفع رأسه ، فقال : هيه ، قلت : ماذا ؟ فأدركتها ، فقلت : لو كنت تعمد إلى قوتك من الخبز فيخبز لك فى الساعة التى تريد أكله فيها أُتيت به لينًا ، ولو نظرت إلى قوتك من اللحم فطبخ فى الساعة التى تريد أكله فيها ، أُتيت به غضًّا . قال : أَوَ هناك فرق ؟ قلت : نعم . قال : إنا والله لو شئنا أن نملأ هذه الرحاب التى ترى من صَلائق[٣] وصِناب[٤] وكَراكِر[٥] وأسنمة[٦] وسبائك ، يعنى خبز الرقاق ، فعلنا ، ولكن سمعنا الله يقول : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ »[٧] ، ثم التفت إلى أبى موسى فقال : يا أبا موسى ، إذا انصرفت إن شاء الله صالحًا فاعزل هؤلاء جميعًا ، واترك هذا على عمله .

---

(١) ثريد الملة : ثريد الخبز المنضجة .

(٢) أُسقط : أخطأ .

(٣) الصلائق : مفردها الصليقة وهى اللحم المشوى المنضج .

(٤) الصناب : إدام يتخذ من الخردل والزيت .

(٥) الكراكر : مفردها الكركرة وهى الصدر من كل ذى خف ، وزور البعير الذى إذا برك أصاب الأرض ، وهى ناتئة عن جسمه كالقرصة ، وهى من أطايب مايؤكل من الإبل .

(٦) الأسنمة : جمع سنام .

(٧) سورة الأحقاف ، الآية ٢٠ .

وحَـكى العباس[١] (عن) ابن عيَّاش قال : حدثت أبا العباس[٢] بحديث وأبو جعفر عنده ، فضحك منه وقال : أعده علىَّ ففعلت . فلما استخلف أبو جعفر جئنا لنسلِّم عليه ، فلما انصرفنا قال لى عيسى بن روضة الحاجب : يا ابن عيَّاش أجب أمير المؤمنين . فدخلت عليه فقال : حديث سمعتك تحدِّث به أبا العباس أعده علىَّ . فقال : زعمت الأعاجم أن أول من دوَّن الدواوين منهم ، ومن ثغَّر الثغور ، وجبى الفئ ووضع لهم الآداب ، أنوشروان . وأنه قُرِىء عليه ذات يوم كتاب فيه صفة ملك سليمان بن داود ، وما أعطاه الله سبحانه وسخَّر له من الجن والإنس والشياطين ، وأن الريح كانت تُقِلّه والطير تُظِلّه ، وكان يُقَيِّل[٣] بإصطخر[٤] ويبيت بالمدائن[٥] . قال : فقام أنو شروان من مجلسه خائر النفس متغير اللون ، فأقام ثلاثةً لا يأذن لأحد . ففزعت الأعاجم إلى الموبذ ، وكان قاضى القضاة عندهم ، فقالوا : أقام ثلاثة من غير عِلّة ولا مكروه نزل به ، وهذا وهن شديد فى المملكة . قال : فدخل عليه الموبذ ، وكان لا يحجب عن الملوك عند نسائهم كانوا أو عند غيرهن ، فكلمه فى ذلك . فقال : أوَ ما تدرى ما نزل بى ؟ قال : لا . قال : قرىء علىَّ كتاب فيه صفة ملك سليمان بن داود ،

---

(١) هو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، أخو المنصور والسفاح . ولاه المنصور بلاد الشام ، كما أرسله لغزو الروم ، مات ببغداد سنة ١٨٦ هـ .

(٢) يقصد أبا العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس .

(٣) يُقَيِّل : ينام القائلة أى نصف النهار .

(٤) إصطخر : من أقدم مدن فارس ، تقع قرب شيراز ، بناها دارا الأول واتخذها عاصمة له . وقد سماها الرومان برسيبوليس .

(٥) المدائن عاصمة الفرس فى العراق ، تقع على دجلة جنوبى بغداد وآثارها عند سلمان باك الآن ، ومن بقاياها القائمة طاق كسرى .

وما سُخِّر له ، فصغر ملكى فى عينى حتى صار ذبابةً . قال : وهذا صيَّرك إلى ما أرى ؟ قال : نعم . فقال : قد سُخِّر لك ما لم يُسَخَّر لسليمان بن داود . قال : وما هو ؟ قال : أهل ميسان[1] وأهل الأنبار[2] . فضحك ، ثم قال : هات يدك . نخرج إلى أهل مملكته .

حُكِىَ أن ملكاً كان له وزير صالح لا يأمر إلّا بالخير ، ولا يحُضّ إلّا عليه . وكان الملك يبغض النُّسَّاك ، وكان الوزير يُقبل عليهم . فحسده قرابة الملك (فأتوا الملك) فقالوا : إن هوى الوزير إنما هو يعزم أن يخرجك من ملكك . فإن أردت أن تعلم ذلك فقل له : إنى قد عزمت أن أُودِّع ملكى وألحق بالنُّسَّاك بالجبال . فإنك سترى من قبوله ذلك وسروره ما يدلك على ما قلنا . ففعل الملك ذلك ، فرأى ما قالوه وتبيَّن ذلك فى وجه الوزير .

فانصرف الوزير كئيباً حزيناً . وكان فى بعض مسيره مرَّ برجل ظاهر الزمانة[3] ، فقال له : أيها الوزير ، ضمّنى إليك فإن لك عندى خيراً . قال : وما ذاك ؟ قال : إنى رجل أرتق الكلام . قال : وما رتق الكلام ؟ قال : إذا وجدت فتقاً رتقته . قال له : أنا فاعل ذلك ، وإن لم يكن عندك نفع .

---

(١) ميسان : كورة واسعة كانت بين البصرة وواسط وفيها قرية بها قبر العزير .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات غربى بغداد . أسسها الفرس وكانوا يسمونها فيروز سابور . وقد جددها أبو العباس السفاح وبنى بها قصوراً واتخذها عاصمة له أقام فيها إلى أن مات ، ولما ولى المنصور الخلافة انتقل منها إلى الهاشمية التى أسسها السفاح وأقام فيها حتى تم بناء بغداد .

(٣) ظاهر الزمانة : ذو عاهة ، مقعد .

فذكر الوزير قوله ، فدعا به ، فقال : أما تفعل الذى وعدتَ ؟ قال له : قُصَّ علىَّ قصتك وما دهاك . فقصَّ عليه قصته وقصة الملك وصحبته إياه ، وما دهاه فى عترته . فقال له : حسدك قرابته فأتوه فقالوا له : إنه يريد إخراجك من ملكك ، فإن أردت أن تعلم ذلك فاستَثِرْ ما قِبَلَه . والحيلة فى هذا أن تلبس المسوح[1] ، وتأتى الملك فى الغَلَس[2] ، فإذا علم بمكانك فدعا بك فسأل عن قصتك ، فقل له : دعانى الملك إلى أمرٍ الموت أهون علىَّ منه ، ولكنى كرهت خلافه . فإنه سيتحلل ما فى نفسه[3] . ففعل ذلك فوقع من الملك بحيث قال .

حدَّث هشام بن الكلبى قال : أَغار امرؤ القيس بن المنذر جد النعمان على النَّمِر بن قاسط[4] ، فأسر ناساً كثيراً ، وأخذ ماء السماء بنت عوف بن جشم ابن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر بن الضحيان[5] النمرية ، وهى امرأة أبى حوط النمرى ، وقد ولدت له جابراً . إذ كان جابر بن أبى حوط أخا المنذر ابن امرىء القيس لأمه . فورد بهم الحِيرة ، فحظر[6] لهم حظائر وهمَّ بأن يحرقهم . فكلمه أبو حوط فى امرأته ، فقال : نخيِّرها فإن اختارتك دفعتها إليك ، وإن اختارتنى أمسكتها ، فقال : نعم .

---

(١) المسوح . الكساء من الشعر يلبس على البدن تقشفاً .

(٢) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٣) يتحلل ما فى نفسه : ينثنى عما فى نفسه .

(٤) النمر بن قاسط : من زعماء بنى أسد فى الجاهلية وكان له بالمدينة عقب كثير ارتد جماعة منهم أيام أبى بكر فحاربهم خالد بن الوليد . ويقصد هنا جماعة منسوبين إلى النمر بن قاسط .

(٥) فى ا : « الضحاك » .

(٦) حظر : اتخذ حظيرة ، وهى مايحيط بالشىء من خشب أو قصب .

وبعث أبو حوط إلى امرأته : إن الملك يبعث إليك يخيِّرك فيَّ وفى نفسه ، وليس بتاركك ، فقولى أختار والله الأطيبَ عَرَقاً والأسمن مَرَقاً . فأرسلت إليه : إنى قد وقعت فى نفسه وليس بدافعى إليك ، فاستوهب منه قومك . فبعث إليها يُخيِّرها ، فقالت : أختار والله الأطيبَ عَرَقاً والأسمنَ مَرَقاً . فقال : أبيت اللعن قد اختارتك ، فلا تجمع علىَّ ذهاب امرأتى وتحريق قومى . قال : هم لك . فسُمى أبو حوط الحظائر ، فقال فى ذلك :

أبيتَ اللعن إنك خير داعٍ ونحن عبادك القِنُّ القطين[1]
لقد جمع الحظائر من معدٍّ رجالًا كل شكواهم أنين
جنوا حرباً عليك وكل قوم ولو عزوا لحربكم طحين
ولو أوعدت ذا لبدٍ شتيماً لضاق عليه بالخوف العرين[2]

---

(١) القن : العبد مُلك هو وأبواه ، للواحد والجمع . والقطين : الإماء والخدم والأتباع .

(٢) أوعد : تهدد ، وذا لبد : كنية الأسد .

الباب العشرون

في الانتقام من سالبي ملك

حُكِيَ أن ملكاً من ملوك اليمن يُكَنَّى بأبي مالك ، طال عمره وعظم شأنه واتسع سلطانه ، وفيه يقول الأعشى :

وخانَ النعيمُ أبا مالك وأيُّ امرىء لم يخنه الزمن

وكان له بنون ، فرشح منهم ثلاثة للملك بعده ، ولقبهم بذى رُعين وذى نُواس وذى يَزَن . فلما كبرت سنه قال لوزير له : إن سنى قد كبرت ودنوت من أجلى ، ولست آمن مَنْ أخلِّف من قرابتى ، مع جلالة أحوالهم وكثرة رجالهم فيهم ، على ولدى هؤلاء الثلاثة بعدى ، فما ترى؟ قال له الوزير : أرى لما يجب علىَّ من نصيحتك أن تقصد أولى قرابتك الذين تخافهم على ولدك ، بالغض والهوان[1] ، وأن تتبع عثراتهم وتتجرم عليهم[2] ، وتولى من كان ذا مال منهم ، ثم تُظهر أنه خان فتصطفى ماله[3] . وتقطع أمورهم لكى تسوء أحوالهم وتضعف أركانهم ، فإن من أقفرت يده قصرت همته وسقطت نفسه . وأن تبنى مدينة جديدة وتختار عشرةً من قوادك من أهل الثقة وبُعد الذكر ، وتقسم أصحابك أقساماً عشر ، فتضم إلى كل قائد منهم قسماً . ثم تحوِّل

---

(١) الغض والهوان : خفض المركز وإنقاص القدر والتحقير .

(٢) يتجرم عليه : يدعى عليه الجرم وإن لم يجرم ، أى يتهمه بالجريمة .

(٣) يصطفى ماله . يأخذه كله ، يصادره .

أولادك الثلاثة إلى المدينة الجديدة ، وتحوِّل القواد العشرة بأصحابهم معهم . وتأخذ العهد لأولادك[١] على الناس . وتحوِّل مالك وسلاحك وذخائرك مع ولدك . فإن حدث بك حدثٌ كنت قد أحكمت الأمر لأولادك من بعدك .

فقبل أبو مالك رأى وزيره ، وبدأ بأهل بيته فضعَّفهم وعضَّهم[٢] . وبنى مدينة صنعاء ، وحوَّل إليها أولاده وأجناده وذخائره مع عشرة من أصحابه . ثم هلك بعد أن أحكم ما أراد . فولى الملك بعده ابنه ذو رعين وهو غِرٌّ حَدَث مُترف ، فمالت به لذاته عن سَنَنِ السياسة ، واستولى القواد العشرة على أكثر الأمر ، فاستبدوا به ، حتى أظهروا الاستخفاف بأمر ذى رعين . وبدا منهم التهاون به ، فنا كرهم[٣] وتغيرَّ لهم وهمَّ بهم . فخافوه على أنفسهم وأرادوا الفتك به ، فلم يجسروا عليه . فأتوا أخاه ذا نواس فقالوا له : إن أخاك قد أهانك واطَّرحك[٤] وضيَّق عليك وبلغنا أنه يريد نفسك . قال : وما عسيت أن أصنع ؟ وكيف بالوزَرمنه[٥] ؟ ولا أعلم لى ذنباً إليه يوجب القتل . قالوا : لقد خانك على أمره بعده ، وأحبَّ أن يصفو الأمر لولده ، وأنت بعرض هلاك وبمحل تلف . فمأوا قلبه (فتغيَّر) لأخيه . فلما دخل على أخيه ، أنكر ذو رعين وجه ذى نواس ، فتنكر له وعبس فى وجهه .

فانصرف ذو نواس وقد تقرر قول القواد عنده ، فمال إليهم مستعيناً

---

(١) فى ا : « لأصحابك » .
(٢) عضهم : أسلمهم لشدة الزمان .
(٣) ناكره : عاداه وناوأه .
(٤) اطّرح : أبعد وأهمل .
(٥) كيف بالوزر منه : أين يكون الملجأ منه .

بهم مما خاف . فلما علموا أن الحال بين الأخوين قد فسدت ، قالوا لذى نواس : ما لنا عندك إن كفيناك ما تخاف وبلغناك ما تحب ؟ قال : ما شيء يمكنني من مجازاتكم إلاَّ وهو قليل فيما أرى لكم . قالوا له : فوثِّق لنا من نفسك بما نريد منك . قال : فوثَّقوا منه بشرائطهم ، وطلبوا غِرَّةً من ذى رعين وهو منغمس فى لذاته ، راسب فى غفلته ، حتى خلوا به فى بعض نُزَهه فقتلوه ، وأظهروا أنه شرق بشرابه[١] . وأخذوا ذا نواس فعقدوا التاج على رأسه . فلما ولى ذو نواس الملك ، أظهر من بِرِّ القواد العشرة وتقديمهم وتقليدهم أموره ما استفرغ (فيه وسعه)[٢] ، واستأسرته لذته وغمرته شهوته . فاستبدت العشرة بالأمر عليه وأبدوا الاستهانة به ، ثم تمادى ذلك بهم على ممر الأيام ، حتى أحوج ذا نواس إلى منا كرتهم وتجهمهم وإظهار الشنآن[٣] لهم . ورام الاستبدال بهم ، وغرس صنائع يجددهم فى مواضعهم . وكاتب أهل الأقاصى من ملكه بما همَّ به فيهم . فظفروا بكتبه وعلموا ما فى نفسه ، فدسوا له بعض ثقات خدامه وأرغبوه فى المال فسمّه وقتله .

فولى ذو يزن الملك . وكان أصلح إخوته مذهباً وأصحهم قريحة وأعزهم نفساً . وقد رأى ما نال إخوته قبله ، فأشعره ذلك حزناً[٤] ووجلاً . فأجهد نفسه فى إصلاح ملكه . وخاف القوادَ العشرةَ عما جرت عليه عادتهم ، فسما لأمر

---

(١) شرق بشرابه : غُصّ به .

(٢) ما استفرغ فيه وسعه : بذل كل ما يقدر عليه من جهد .

(٣) الشنآن : البغض والكراهية .

(٤) فى ب : « حذراً » .

طال فساده وعسر داؤه[١] . واستظهرت عليه العشرة بكثرة العدة والعتاد والعدد والمال . فكاتب ذو يزن رجلاً من ولاته فى أطراف ملكه عظيماً قوى السلطان منيع المكان . فشكا إليه ذو يزن ما يقاسى من هؤلاء العشرة وما حلَّ بإخوته منهم ، وأنه لا يأمنهم على نفسه ، وسأله أن ينجده على صلاح ملكه . فكتب إليه عامله أن الرأى فيما يحاول ، أن ينسلّ سرًّا حتى يصير إليه ، فيأمن على نفسه ، ثم يقع التدبير بعد ذلك .

فخرج ذو يزن وقد كتم أمره جهده . ونذِرَت به العشرة فاتبعته فقتلته . ثم انكفأت راجعة إلى صنعاء لتُملِّك رجلاً من أهل الملك ، فوجدت جميع (أهل) بيت الملك قد هربوا واستخفوا . فبقيت العشرة متحيرة تخاف أن يظهر ما صنعوا فى النواحى ، ولم يُقعدوا ملكاً فتنتقض عليهم الأمور . فقال لهم رجل منهم : هل لكم فى أمر تقرب فيه محبتكم وبه سلامتكم ؟ قالوا : نعم . قال : تصيرون جميعاً إلى منزلى حتى أعرض عليكم رأياً عندى . فصاروا إلى منزله فقرَّب إليهم طعاماً ، ثم قال : إنكم عاهدتم الله مرةً بعد مرة ثم خنتم العهد وغدرتم بالإيمان وقتلتم الملوك وارتكبتم العظائم . والرأى عندى أن تتوبوا جميعاً عما فعلتم إلى الله عز وجل وتستغفروه ، ثم تحكِّموا القضاء ، فتدلجوا[٢] فى الليل إلى باب المدينة ، فأول من يخرج منها ، مَنْ كان ، ولّيتموه الملك . فركنوا إلى قوله ، وتحالفوا عليه .

ثم خرجوا فى الليل إلى باب المدينة ، فأول من خرج عليهم رجل حَبشى

---

(١) فى ب : « دواؤه » .
(٢) أدلج : « سار ليلاً » .

طويل القامة منكر الصورة، عليه مدرعة صوف وعلى عنقه رابَّة[١] وفى يده مسحاة. فقالوا له: مَنْ أنت؟ قال: رجل من الحبشة عبد لفلان. قالوا: فما أحلَّك هذا المحل؟ قال: سوء الأدب والاستخفاف بالمذهب. فوجهوا إلى مولاه فأُحضر فقالوا له: هَبْ لنا عبدك هذا، أو بعنا (إياه). قال: هو أقل قيمة من أن أراجعكم فيه، ولكن ما حاجتكم إليه؟ قالوا له: إنا تعاهدنا على أن نملِّك أول من يخرج علينا من باب المدينة. قال: ولِمَ لم تُملِّكُوا أحدكم؟ قالوا: لم يسمح بعضنا لبعض بذلك. قال: فإنى أحذركم هذا العبد، فإنه أبعد خلق الله غوراً[٢] وأشدهم حقداً وأمَرُّهم نفساً[٣] وأمضاهم فتكاً. قالوا: لابد من توليته الملك. قال: فهو حرّ.

قال: فأخذت العشرة الأسود فأخرجته مما كان فيه، وألبسته ثياب الملك، وحملوه على فرس من دواب الملك إلى دار المملكة، فأجلسوه على سرير الملك، ووضعوا التاج على رأسه، وجمعوا الناس فبايعوه، فقعد الحبشى فى مجلسه لا يسأل عن شىء ولا يطلبه ولا يأمر به. فإن أُتى بطعام أو ثياب أكل ولبس، وإن تأخر عنه أمسك عن طلبه. وخلت العشرة بالأمور وأعمال المملكة. فمكث الحَبَشى بذلك حولاً لا يعترض فى شىء. ثم حضر لهم عيد لا يجدون بدًّا من إخراجه، فأخرجوه فى أحسن زيّ وأكثر جمع. فبينا هو يسير وهم حوله، إذ بَصُر برجل أسود فى ناحية من الطريق، فأحدَّ النظر[٤] إليه والتفت لا يقلع عنه. فقال له أحد العشرة: أيها الملك، ما الذى

(١) الرابَّة: العقدة المحكمة.
(٢) أبعد غوراً: الغور القعر من كل شىء، أى أشد عمقاً.
(٣) أمرهم نفساً: أقواهم فى الخصومة.
(٤) أحدَّ النظر: دقق النظر فيه لتمييزه.

تنظر إليه ؟ قال : أخى. (قالوا) فهلاَّ أعلمنا الملك أن له أخاً فيبلغ من إكرامه ما يستحق ؟ قال لهم : لم أعلم بحضوره . فأمروا بأخيه فكُسى أحسن الكسوة وحُمل على فرس ، وجاءوا به يساير أخاه .

فلما رجع الملك إلى قصره ، دخل أخوه معه فجالسه وآنسه ، ثم قال له الملك : لاترى أحداً من السود إلاَّ ادعيت أن بيننا وبينه قرابة وأدخلته علىَّ . ففعل أخوه ذلك ، فجعل يأتى بالأسود بعد الأسود فيُكسىٰ ويُخلى[1] . والعشرة متهاونون بذلك ، قد حلوا بكسب الأموال ، حتى كثر السودان فى دار الملك ، ولبسوا السيوف وركبوا الخيل ، فولاَّهم الملك حجابته وصيَّرهم بالسلاح على أبوابه .

وكانت العشرة يدخلون عليه بغير إذن ، ثم امتنع حجابه ، فصاروا لا يلقونه إلَّا فى وقت نشاطه لهم ، وازداد السودان كثرةً وعِزًّا . فلما علم الحبشى أن الفتك به من العشرة غير ممكن تنكّر لهم ، واعترض فى الأمور عليهم . وأمرهم أن لا ينفذوا شيئاً إلّا عن رأيه . فأرادوا الفتك به ، فامتنع عليهم بسودانه وأغلظ لهم الحَبَشى فى لفظه . وبلغهم أنه يتوعدهم فخافوه على أنفسهم . وأجالوا الرأى بينهم ، فقال أحدهم ، وهو الذى كانوا اجتمعوا فى منزله : تصيرون إلى منزلى حتى تبرموا الرأى . فصاروا إليه فقال لهم : إنا قد اقتنينا من الأموال ما لا نخاف معه فقراً ، فنستأذن (هذا) الملك فى التفرق إلى أوطاننا وبلداننا ونخلِّيه وأمره ، ونعيش فى عافية وغبطة بقية أعمارنا . فأجمعوا على ذلك . ثم هابوا الملك عن مواجهته بالاستئذان . فأجالوا الرأى ، فاجتمع رأيهم على أن

---

(١) فى ب : « ويُحَلَّى » .

يسألوا مولى الملك الذى أعتقه أن يستأذن لهم . فبعثوا إليه فأتاهم ، فقالوا له : إنا أردناك لتستأذن لنا الملك فى التفرّق إلى أوطاننا . قال لهم : ما أعجب ما سألتم؟ هذا ملك كنت أضربه وأقيده وأكُدُّه وأستخف به ، وما مناى إلّا أن ينسانى . فقالوا له : اِحتكم فى المال ، فإنا جاعلون لك منه أكثر من أمنيتك ، وطلبوا إليه وأحضروه مالًا جليلًا وحملوه إليه . فلما رأى ما بذلوا له من المال وأنه قد حصّله ، حمل نفسه على التعرض للموت ، وأمّل السلامة .

فخرج فوقف بباب الملك ، والملك ينظر إلى مَنْ على الباب من حيث لا يعلم به . فلما رأى مولاه قال لحاجبه : علىَّ بذلك الرجل . فلما دخل مولاه إليه على وجلٍ منه ، ورآه الملك رحّب به وأدناه وأحسن مساءلته عن حاله ، ثم قال له : يا مولاى ، كأنى كنت (حاضراً) مشاهداً لأمركم ، إن هؤلاء العشرة الغَدَرَةَ الفَجَرَةَ أرادوا أن يفتكوا بى فلم يمكنهم ، وخافونى على أنفسهم ولم يجترئوا على مساءلتى بالإذن لهم ، فسألوك أن تستأذن لهم فى اللحاق بأوطانهم ، فأبيت لخوفك منى ، فأرغبوك فى المال فخاطرت بنفسك . قال له الرجل : كأنك أيها الملك كنت عندنا . قال الملك : فأمّا خوفك منى فأنت منه آمن ، لأنك لم تعاقبنى إلّا بدون ما أستحق ، وأردت بى الصلاح . وأما العشرة فإنى أدعو بهم . ثم تحوّل إلى مجلس عامته وأمر سودانه ، فقاموا بالسيوف على رأسه . ثم دعا بالعشرة ، فلما جلسوا بين يديه قال : أبلغنى مولاى ما أحببتم من الإذن لكم فى الرجوع إلى أوطانكم ، وأنا لست من أهل بيت المملكة ، ولكن الله عز وجل قيّضنى لكم نقمةً عليكم أحلّها بكم ، لقتلكم الملوك وغدركم بالأيمان والعهود . ثم أمر سودانه (بهم) بلسانهم ، فأخذتهم السيوف فقتلتهم . ثم قال لمولاه : اِمْضِ آمناً وما صار إليك من المال فهو لك .

وكان لذى يزن امرأة من بنات الملوك نخلّفها حاملًا ، فرأت فى نومها كأن سيفاً خرج من قُبُلِهَا ، فولدت غلاماً فسمته سيفاً . فلم تزل الحبشة تداول الملك باليمن حتى بلغ سيف وصار (رجلًا) ، فشخص إلى ملك الروم فاستجاشه على الحبشة وسأله النصرة ، فقال ملك الروم : بلدك لا يجاور بلدى ، ودين قومك ليس على دينى ، فلا يمكننى نصرتك ، ووصله .

نخرج سيف حتى قدم على كسرى فاستنصره على الحبشة . فقال له كسرى كمقالة ملك الروم ، واعتلّ بمخالفة الدين وبُعد البلد . فقال له سيف : (إن كنت) لا تريد خراجًا ولا تنصر (ديناً) فاغضب للطينة البيضاء وأبناء الملوك من استعباد الطينة السوداء المشوهة . فغضب كسرى وأحفظه ما قال سيف ، فوعده النصر . وأراد أن يوجّه معه جيشاً ، فقيل له : إن البلد شاسع والطريق جدب ، أو فى البحر ، وفى توجيهك الرجال إخطار بهم . قال كسرى : فلا بد من نصرته لِمَا وعدته . فقيل : إن فى سجونك(١) إثنى عشر ألفاً فاخرجهم وَأَمِّر عليهم أميراً ووجهم فى البحر ، فإن ظفروا فالظفر لك ، وإن هلكوا لم تثلم (ملكك) وجندك . ففعل ذلك كسرى ، ووجه من سجونه(٢) إثنى عشر ألفاً فأخرجهم وأمَّر عليهم أميراً شيخاً يقال له وَهْرِزْ . نخرجوا باليمن وخرج إليهم ملك الحبشة ، فاقتتلوا قتالًا شديداً ، والحبشى على فيل وعلى رأسه تاج ، فرماه وَهْرِزْ بسهم فنشب السهم فى جبهته . فانهزمت السودان وأجلَوا عن اليمن ، وسُلِّمَ الملك إلى سيف .

---

(١) فى ا : « جيوشك » .

(٢) فى ا : « جيوشه » . وقد صححناه على ما جاء فى الطبرى (م) ٢ : ١٤٤ .

الباب الحادى والعشرون

فى الخلاص من نقمة من بغين على قطيعة الرحم بالقتل

يقال إن ربيعة بن نصر (الملك) اللخمى رأى رؤيا هالته . فبعث إلى الحزاة[1] من أهل مملكته . فلم يدع كاهناً ولا عائفاً[2] ولا منجماً إلاَّ جمعه إليه ثم قال لهم : إنى رأيت رؤيا هالتنى فاخبرونى بها وبتأويلها . فقالوا : أُقصصها علينا نخبرك بتأويلها . فقال :إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، إنه لا يعرف تأويلها إلاَّ من يعرفها قبل أن أخبره بها . فقال رجل منهم : إن أراد الملك هذا فليبعث إلى سَطِيح[3] وشِق[4] فلا أحد أعلم منهما ـ وسَطِيح هو ربيع بن ربيعة الذيبى من بنى الذيب من عدى . وشِقّ بن الصعب ابن يشكر الأنمارى ـ فبعث إليهما فقدما عليه . وتقدم سَطِيح فقال له : إنى رأيت رؤيا هالتنى فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . فقال :

---

(١) الحزاة : مفردها الحازى وهو الذى يزجر الطير فيتفاءل بها أو يتطير منها .

(٢) العائف : هو المتكهن بالطير أو بغيرها .

(٣) سَطِيح : كاهن جاهلى ، وقد عمر طويلاً واشتهر باسم سطيح الكاهن . عرف بالحكمة والعقل ، وضرب به المثل فى جودة الرأى . وكان رؤساء القبائل يحتكمون إليه ويستشيرونه فيما يعرض لهم من مشاكل وأمور ، فيجيبهم على ما فى أنفسهم وكان شاذ الخلقة رخو العظام .

(٤) شِق : من أشهر الكهان فى الجاهلية ، وكان يعاصر سطيح الكاهن . وقد اشتهر بالتنبؤ وتفسير الأحلام . وقد عاش عمراً طويلاً ، ويقال إنه كان ناقص الخلقة بيد واحدة وعين واحدة .

أفعلُ ، رأيتَ جُمْجُمة خرجت من ظُلُمة فوقعت بأرض تِهَمَة[١] فأكلت منها ذات جُمجُمة . فقال الملك : ما اخطأت منها يا سطيح شيئاً ، فما عندك فى تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحرمين من حَنَش[٢] ، ليهبطنّ أرضكم الحَبَش ، فليملكنّ ما بين أَبْيَن[٣] إلى جُرَش[٤] . فقال له الملك : وأبيك يا سطيح إن هذا لغائظ[٥] موجع ، فمتى هو كائن ، فى زمانى أو بعده ؟ قال : بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين . ثم يقتلون بها أجمعين أو يخرجون هاربين . قال الملك : ومَن الذى يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إرَم ذى يزن ، يخرج من عَدَن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبىّ زكىّ ، يأتيه الوحى من قِبَل العلىّ . قال : ومن هذا النبى ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر ، بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر (من) آخر يا سطيح ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحقٌّ ما تخبر ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق ، والقمر إذا

---

(١) أرض تهمة وتهامة : هى الأرض المتصوبة نحو البحر ، ولهذا سمى القسم المنحدر نحو البحر من الحجاز تهامة .

(٢) الحنش : نوع من الحيات ، وكل ما أشبه رأسه رأس الحية من الحرابى وسوام أبرص ونحوها .

(٣) أبين : مخلاف باليمن ، منه عدن ؛ وكانت تعرف بعدن أبين (ياقوت) .

(٤) جرش : من مخاليف اليمن من جهة مكة (ياقوت) .

(٥) غائظ : موجب للغضب والغيظ .

اتسق[١] ، إنّ ما أنبأتك به لحق .

فلما فرغ من حديثه دعا بشقٍّ فخاطبه بمثل ما خاطب سطيحاً وكتمه ما كان من جواب سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ، فقال : نعم ، رأيت جُمجُمة خرجت من ظُلُمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة ، فلما رأى الملك ذلك من قولهما عرف أنهما قد اتفقا فى المعنى واختلفا فى بعض اللفظ . فقال : ما أخطأت يا شِق منها شيئاً ، فما عندك فى تأويلها ؟ قال : أحلف ما بين الحرمين[٢] من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، وليغلبن على كل طَفْلة البنان ، وليملكن ما بين أَبْيَن إلى نجران[٣] فقال الملك : وأبيك إن هذا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ، أفى زمانى أم بعده ؟ قال : بل بعدك بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشدّ هوان . قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بذى مُدَنّ[٤] يخرج من بيت ذى يزن . قال : فهل يدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسول من الرسل يأتى بالحق والعدل ، من أهل الدين والفضل (يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل) . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم[٥] يدعى فيه من السماء دعوات ، يسمع منها

---

(١) اتسق القمر كمل وصار بدراً . وفى الطبرى « والفلق إذا اتسق » — الجزء الثانى — م ، ص : ١١٣ .

(٢) فى الطبرى « الحرتين » .

(٣) نجران : مدينة فى اليمن قريبة من جرش السابق ذكرها .

(٤) المُدَنى : المقصر فى الأمر .

(٥) فى الطبرى : « يوم يجزى فيه الولاة » .

الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون لمن اتَّقى فيه الفوز والخيرات . قال : أحقٌّ ما تقول ياشِق ؟ قال : أى ورب السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما نبأتك به لحق ، ما فيه أَمْض[١] .

فلما فرغ من مساءلتهما ، وقع فى نفسه أن الذى قالا له كائن من أمر الحبشى . فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصلحهم . وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له : سابور بن خرَّزاد ، فأسكنهم الحيرة . فمن بقية ربيعة بن نصر كان النعمان ملك الحيرة ، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو ابن عدى بن ربيعة بن نصر . فلما هلك ربيعة بن نصر صار الملك إلى حسَّان ابن تُبان أسعد[٢] .

وكان مما هاج أمر الحبشة وتحول الملك عن حمير ، أن حسَّان بن تُبان سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض العجم ، كما كانت التبابعة قبله تفعل . فلما كان ببعض أرض العراق ، كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم وأهليهم ، فكلموا أخاً له كان معه فى جيشه يقال له عمرو[٣] ، وقالوا له : اقتل أخاك حسَّاناً نملكك علينا مكانه ، وترجع بنا إلى

---

(١) الأمض : الشك والباطل

(٢) هو من ملوك حمير ولقبه ذو جيشان ، من أعاظم تبابعة اليمن . وقد قاد جيشه ففتح بلداناً كثيرة ، وثار عليه بعض قواده فقتلوه . والتبابعة لقب عظماء ملوك اليمن ومفردها تبع .

(٣) هو عمرو بن تبان أسعد من الحميريين . كان مع أخيه حسان فى حملته على العراق ، واتفق مع القواد الذين اغتالوا أخاه وولى ملك حمير بعد أخيه دعا بجيشه إلى بلاده فنزل بغمدان ، وقد اضطربت أموره حتى هلك .

بلادنا ، فتابعهم على ذلك ، وأجمعوا على قتل حسّان ، إلّا ذا رعين الحميرى ، فإنه لمّا استشاره نهاه وقال له : إنكم أهل بيت مماكتنا ، فلا تقتل أخاك فتشتت أمر مماكتك وتوهن من عظمك بقطع رحمك . فإن لذلك عاقبة وخيمة أصونك عن ذكرها لك ، فقال : لا بد من ذلك الآن . وكان ذو رعين شريفاً من حمير كبيراً ، فقال : الآن ولا بد ؟ فإنى أودعك صحيفة أختم عليها وتحفظها لى عندك ، فإن لى بغية وحاجة فيها . ففعل ذلك وأودعه عمراً . وأمضى عمرو رأيه . فلما أيقن أخوه بالقتل قال :

يا عمرو لا تُعْجِل علىَّ منيتى فالملك تأخذه بغير قتال[1]

فأبى إلّا قتله فقتله ، ورجع بمن معه من جنده إلى اليمن . فلمّا فعل تلك الفعلة بأخيه مُنِع النومَ وسُلِّط عليه السهر . فجهده ذلك ، فسأل الأطباء والحزاة والكهان والعرّافين عن حاله . فقال له قائل منهم : إنه والله ما قتل رجل أخاه أو ذا رحم بغياً ، كما قتلت أخاك ، إلّا ذهب نومه وسُلِّط عليه السهر وانتهى به إلى ما يكون فيه العطب . فلما رأى علته فى تزايد ، جعل يقتل من كان أشار عليه بقتل أخيه حسّان ، من أشراف حمير وقبائل اليمن ، حتى خَلَص إلى ذى رعين . فلما أراد قتله ، قال : إن لى عندك براءة مما تريد أن تصنع بى ، فإنى نهيتك عما أشار به قومك فلم تنتهِ ، وأودعتك كتاباً إذا أخرجته عرفت منه براءتى . فأمر بإخراج الصحيفة وفضَّ ختمها ، فإذا فيها بيتان من الشعر هما :

أَلَا مَنْ يشترى سهراً بنومٍ سعيدٌ مَنْ يبيت قريرَ عين
فإن تك حميرٌ غَدَرت وخانت فمعذرة الإله لذى رُعَينِ

---

(١) فى الطبرى : « بغير حشود » — الجزء الثانى (م) ص ١١٥ .

فلما قرأ ذلك ، قال له : إنى عرفت أنه يصيبك إذا قتلته ما أصابك ونهيتك فعصيتنى ، وكان حرصك على الملك يحول بينك وبين سماع قولى ، فإذا أردت (بى) ما صنعته بمن أمرك بقتل أخيك ، فإن هذا الكتاب نجاة لى عندك . فلم يلبث عمرو إلّا يسيراً حتى هلك . فخرج أمر حمير عند ذلك ، فتفرقوا ووثب على ملكهم من لم يكن من بيوت المملكة منهم ، وكان من الحَبَش[1] ما كان ، مما ذكر فى الباب السابق[2] .

---

(١) فى ا : « الجيش » .

(٢) ورد ما يماثل هذا النص فى الطبرى (م) ٢ : ١١٥ — ١١٧ . وفى كتاب أسماء المغتالين ، المجموعة السادسة ، ص : ١١٥ — ١١٧ ما هو قريب منه أيضاً .

الباب الثاني والعشرون

في الفتك والأمر به والاحتراز منه [1]

حُكِيَ أن المأمون لمّا رحل [2] من مرو ، يريد مدينة السلام ، أعمل الفكرة فى قتل الفضل بن سهل [3] على توقٍّ [4] لذلك ، لمكان أخيه الحسن [5] ،

---

(١) الفتك : أن يجيء رجل آخر وهو آمن فيقتله جهاراً .

(٢) فى أ : « دخل » .

(٣) الفضل بن سهل : أول وزراء المأمون وهو فارسى الأصل مجوسى وقد أسلم على يد المأمون . وكان أبوه سهل من رجال المهدى ويقال إنه أسلم على يديه . وكان الفضل يدير شؤون المأمون منذ كان ولياً للعهد ، وإليه يعود الفضل فى انتصار المأمون على أخيه الأمين ، إذ تولى تدبير الجيوش وإدارة دفة الحرب إضافة إلى عمله . ولذا سمى بذى الرئاستين . ولاه المأمون ولاية المشرق بجميع بلدانه . وقد استبد بالأمور دون المأمون وحمله على بيعة على الرضا بولاية العهد بعده . فتضايق المأمون منه وشك فى إخلاصه له فدبر أمر قتله للتخلص منه .

(وفيات الأعيان ٣ : ٢٠٩ — ٢١٢ . وأسماء المغتالين ، المجموعة السادسة ص ١٩٨) .

(٤) على توقٍّ : على حذر .

(٥) الحسن بن سهل : أخو الفضل بن سهل ، وعندما كان المأمون فى خراسان ولاه على العراق . وكان الحسن من كبار قواده عصره ، وهو الذى قضى على ثورة إبراهيم بن المهدى . ولكى ينفى المأمون عن نفسه تهمة اشتراكه فى قتل الفضل أمر بقتل جميع المتهمين بقتله وبعث برؤوسهم إلى الحسن وعزاه بقتل أخيه ، =

وكثرة من معه من الرجال . فأفشى سره إلى خادم له يقال (له) سراج وشاوره ، فقال سراج : إن الفضل قد ضرب غالباً خالك مائتى مقرعة وهو حَنِقٌ عليه ، وله فتك وإقدام ، وإن جَسُر عليه أحد فهو . قال المأمون لسراج : فناظره فى ذلك ، فناظر سراج غالباً خال المأمون فى قتل الفضل ابن سهل ، وأعلمه أن ذلك عن رأى المأمون. وفارقه على الفتك به والهرب من عسكر المأمون ، وضمن له عن المأمون كل ما أراد .

فالتمس غالب الغِرَّة من الفضل ، حتى إذا بلغوا سَرَخْس[1] دخل الفضل حماماً (بها) فى خلوة من غلمانه . ووجد غالب الفرصة ، فدخل عليه وهو على كرسى فى الحمام ، ومعه السيف وقد وكلَّ بغلامين له على الباب مَنْ منعهما من الإنذار . فلما نظر إليه الفضل قال : يا غالب ، اصفح عنى وخذ علىَّ العهد بكل ما تريد . فضربه غالب على عاتقه ، وقال له : سأوشحك بالسيف مكان لبوسك السنين ، وضربه على عاتقه الآخر ضربةً أخرى فقتله . وخرج عنه فقتل غلاميه اللذين كانا فى الحمام معه . ثم ركب هو ومَنْ ساعدوه دوابهم وكانوا أربعة رجال . ومروا خارجين من عسكر المأمون فساروا خمسة فراسخ ، فلما رآهم نعيم[2] قد تنكبوا الطريق ، أنكر أمرهم ، فبعث خلفهم من أتاه بهم . فعرف غالباً ، فقال له : أين أردت ؟ قال (غالب) : أرسلنى

= وصيّره وزيراً له مكان أخيه . وقد تزوج المأمون من بوران بنت الحسن ، وكانت حفلة زفافها من أشهر الحفلات فى التاريخ الإسلامى لما صرف فيها من الأموال . راجع وصف حفلة الزفاف هذه فى : تاريخ التمدن الإسلامى ٥ : ١٤٣ — ١٤٤ .

(١) سرخس : مدينة قديمة من مدن خراسان تقع بين مرو ونيسابور .

(٢) هو نعيم بن خازم ، أحد قواد المأمون .

أمير المؤمنين فى أمر مهم . قال نعيم : فلِمَ تنكبت الطريق وأنت رسول أمير المؤمنين ؟ لابد لى من ردِّك إليه . فردَّه نعيم إلى المأمون من غد اليوم الذى قُتل فيه الفضل .

وقد جحد المأمون أن يكون علم بشىء من أمره ، وقتل به جماعة من القواد وغيرهم ، كيلا يفسد الحسن بن سهل ومَنْ معه عليه . فلما قيل للمأمون : إن غالباً قد رُدَّ ، أمر مَنْ تقدم إليه فى الجحد ، فلما قُدِّم إليه جحد . فقال أبو الفضل بن سهل : هو قتل الفضل . فخبَّر نعيم بمواطأة من المأمون له ، إن غالباً عنده منذ أيام ، فدفع القتل عنه . وبلغ الحسن بن سهل ، أن سراجاً كان اشترك فى دمه ، فكتب إلى المأمون يسأله أن يوجه إليه سراجاً ، فوصل الكتاب إلى المأمون وسراج قد مات ، فبعث إليه برأس سراج ، وكتب إليه : إن سراجاً مات قبل ورود كتابك ، ولو ظننت أن عضواً منى اشترك فى دمه لقطعته .

وقدم المأمون مدينة السلام ، وقد مات على بن موسى بطوس[١] فتحملَّ للحسن بن سهل قليلاً ثم غضَّ[٢] منه ، حيث ظفر بإبراهيم بن المهدى ، وأسقطه وحجبه ، وعزله عما كان فى يده[٣] .

(١) طوس : مدينة بخراسان فتحت فى أيام عثمان بن عفان ، دفن فيها الإمام على الرضا ، والخليفة هارون الرشيد .

(٢) فى ا : « عضه » .

(٣) لم يعرف أن المأمون تغير على الحسن بن سهل ، بل بقى مقرباً إليه . غير أن الحسن كان قد أصيب بمرض عقلى قُيِّد بسببه بالحديد ، ثم شفى منه قبل زواج ابنته بوران من الخليفة المأمون . ولعل ما يقصده المؤلف هو احتجاب الحسن بن سهل عن خدمة المأمون لعوارض علته المذكورة . راجع : وفيات الأعيان ، ١ : ٣٩٠ — ٣٩١ .

وحُـكى أن بابك ، كان يُموِّه على أصحابه ليوهمهم أنه يعلم ضمائرهم . فيتقدم إلى بعضهم فى أن يلبس أحصن السلاح ويخرج من ليلته فيصير فى بعض الـكهوف والخرابات على ما يحدد له ؛ ويقول له : إنى مبكر عليك فى أصحابى ، فإذا حاذيتُ موضعك فاخرج (شادًّا علىَّ كأنك تريدنى ، لأعلم أىَّ أصحابى أشدُّ نُصرةً لى ، فإنهم إذا ابتدروك نهيتهم . فيمضى الرجل فى سلاحه من ليله إلى حيث أمره بابك ، فإذا أصبح دعا أصحابه فقال : إن فيكم اليوم من يهم الفتك بى ، وقد علمت ذاك وهو فلان ، فاخرجوا بنا إلى الصيد ، وجعل طريقه على الموضع الذى وعد الرجل فيه . فإذا جاء خرج الرجل كما أمره) فيبتدره الرجال بالسيوف ، ويبادره بابك معهم فيقتلونه ، فيظن أصحابه أنه يعلم ضمائرهم .

وحُـكىَ أن رجلًا من الأهواز من غير العرب ، صار مع قَطَرى بن الفُجاءة الشارى[١] ، وكان مبرزاً فى الشجاعة والديانة ، وكان فى عسكر قَطَرى امرأة من العرب ، نخطبها الأهوازى إلى قَطَرى ، فلم يتمكن قَطَرى ردَّه ، لأن دياناتهم أن الناس كلهم أكفاء بعضهم لبعض ، فزوَّجه على كره . فلما صافَّ[٢]

(١) قطرى بن الفجاءة : وكنيته أبو نعامة ، من رؤساء الخوارج الأزارقة وأبطالهم . كان خطيباً وشاعراً حماسياً وفارساً شجاعاً وأصله من « قطر » قرب البحرين . استفحل أمره فى عهد الحجاج ومصعب بن الزبير حينما ولى الكوفة لأخيه عبد الله . واستمر قطرى يقاتل جيوش الدولة الأموية قرابة عشرين سنة . وقد قتل فى إحدى حروبه فى سنة ٧٨ هـ . وهو صاحب القصيدة الحماسية المشهورة التى مطلعها :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى

(وفيات الأعيان ٣ : ٢٥٥ — ٢٥٧) .

(٢) صافَّ القوم فى القتال : وقفوا مصطفين متأهبين للقتال .

قَطَرى المهلب فى بعض حروبهما ، خرج قَطَرى فدعا إلى المبارزة ، فأخرج المهلب إليه رجلًا من أصحابه (فقال قَطَرى : لا أبارز إلّا يزيد بن المهلب) ؛ فخرج إليه يزيد بن المهلب . فلما دنا منه قال قَطَرى : يا يزيد ، على رَسْلك ، إنما أردتك لأمر ألقيه إليك ، فطاردنى قليلًا حتى نبعد عن أصحابنا . فتطاردا حتى بَعُدا ، ثم قال له قَطَرى : إن رجلًا من الخوز خطب إلىَّ امرأة من العرب فلم يمكن ردَّه للمقالة التى نحن عليها ، تخوفاً من انتقاض أصحابى علىَّ فزوجته . فهل فيكم رجل من بنى تميم له عُدَّة وفتك ، يصير إلىَّ مستأمناً كأنه رغب فى مذهبنا ، على أن أنزله بهذه المرأة ، فيفتك بالخوزى ثم يهرب ، وأنا أرفع عنه الطلب ؟ فقال له يزيد : نعم . فتصاولا ساعة ثم افترقا .

وخبَّر يزيد أباه المهلب ، فبعث رجلًا من أصحابه من بنى تميم ، وأطلعه على الخبر ، إلى قَطَرى مستأمناً . فلما دخل الرجل إلى قَطَرى ، أكرمه وأظهر السرور به ، ثم قال للخوزى : هذا رجل من بنى تميم نخذه إليك فإنه صهر لى ، فسُرَّ الخوزى بذلك وأخذه إليه . فلما كان فى الليل ، وثب التميمى على الخوزى فقتله وخرج هارباً ، فأمسكت المرأة فلم تصح فرحاً بقتل زوجها . وفُطن بالرجل فخرجت الخيل خلفه ، فخرج قَطَرى أول الخيل وهو يقول لأصحابه كالمتلهف : دعونى والرجل فإنى أحرصكم على قتله . فلما قرب منه قَطَرى قال له : النجاء ، حتى أبْعَدَ خلفه ، ثم رجع فقال : فاتنى فلم ألحقه .

وحُكِىَ أن البرَّاض الكنانى(١) وعروة الرحَّال القيسى(٢) ، من قيس

---

(١) هو البراض بن قيس ، من كنانة ، كان خليعاً فاسقاً عرف بالغدر وشدة الفتك ، حتى ضرب المثل بفتكه ، وهو جاهلى .

(٢) هو عروة بن عتبة بن جعفر من بنى عامر من قيس ، عرف بالرحالة لكثرة رحلاته إلى الملوك ، وهو جاهلى كان معروفاً بالعقل والشجاعة .

عيلان ، وفدا على الأسود بن المنذر عمرو أخى النعمان بن المنذر ، وهو ملك الحيرة . وحضرت أيام عكاظ بالموسم ، وكانت أياماً تُجلب فيها التجارات من كل بلد إلى عكاظ ، وهى أيام منى فى الحج . فيأمن الناس ولا يتعرض أحد لأحد من طالب وِتْر ولا غيره . فقال الأسود : من يخفر لنا لطيمة[١] ننفذها إلى عكاظ لتباع ، ويشترى بثمنها حوائج ثم يخفرها لنا راجعةً ؟ قال البرّاض الكنانى : أنا أخفرها . قال له عروة الرحّال : أنت تخفرها وأنت خليع[٢] قد خلعك قومك من سيادتهم ؟ قال البرّاض لعروة : أفتخفرها أنت ؟ قال : نعم ، أخفرها لك على أهل الشيح والقيصوم[٣] من نجد وتهامة . قال : فشأنك .

وانصرف البرّاض ، وجهّز الأسود لطيمة ، فخرج عروة يخفرها . فعارضه البرّاض فى جماعة من قومه ، وأقبل يستقسم الأزلام[٤] . فقال له عروة : ما تصنع ؟ قال : أستشير القداح[٥] فى قتلك . فقال : إستك أضيق من ذاك . فاخترط سيفه ، فتهارب منه عضاريط[٦] الركاب والعبدان ، وشدّ البرّاض

---

(١) اللطيمة : القافلة التى تحمل الطيب والبضائع التجارية .

(٢) الخليع : كان فى الجاهلية إذا قال قائل : هذا إبنى قد خلعته ، كان لا يؤخذ بجريرته ، أى يكون قد تبرأ منه ، فهو خليع .

(٣) الشيح والقيصوم ، نباتان صحراويان ، ويقصد هنا أنه يجتاز بالقافلة عبر القبائل البدوية .

(٤) إستقسام الأزلام : الأزلام السهام ومفردها الزلم ، وهى التى كانوا يستقسمون فيها فى الجاهلية ، أى يستطلعون الغيب بواسطتها .

(٥) القداح : مفردها القدح وهو السهم قبل أن يراش

(٦) العضاريط : مفردها العضرط ، وهو اللئيم الخسيس . والعضاريط هنا الخدم القائمون على خدمة الإبل .

على عروة فقتله[١] . وأخذ الركاب بما عليها . وهاجت الحرب بين قيس وكنانة فى الأشهر الحُرم ، فسميت حرب الفجار . وكانت ثلاث حروب[٢] ، منها اثنتان على كنانة وقريش ، وحضر الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب الثالثة[٣] ، قبل مبعثه فكانت على قيس .

ثم افترقت قيس تطلب الغِرَّة من البرّاض لتقتله . فمضى ثلاثة رجال من قيس فى طلب البرّاض ، فلقوه ولا يعرفونه ، فقالوا له : أتعرف البرّاض ؟ قال : نعم . قالوا : فأين هو ؟ فأومأ لهم إلى خربة عظيمة وقال : هو فى تلك الخربة ، ولا أحسب لكم به طاقة . قالوا : أرنا إياه وأنت برىء . فسار معهم إلى الخربة ، ثم قال لهم : إنى أحب من قتله مثل ما تحبون ، وانتمى لهم إلى قبيل من قيس ، فأنسوا به . فلما بلغوا الخربة قال لهم : انتحوا ها هنا وليدخل معى رجل منكم حتى أريه البرّاض وأعينه عليه . فدخل معه رجل من الثلاثة ، فلما صار فى الخربة قال البرّاض له : إنك وارد على البرّاض وهو من عرفت فى فتكه ، فسيفك جيدٌ أو أعطيك سيفى ؟ قال الرجل : بل سيفى جيد . قال : فسُلَّه وأرنيه . ففعل الرجل . فلما دفع سيفه إليه ضربه البرّاض فقتله .

---

(١) راجع عن قتل عروة الرحال : كتاب المغتالين ، المجموعة السادسة ، ص : ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) المعروف أنها حربان لا ثلاثة .

(٣) كذا فى الأصل ، والأصح الثانية ؛ لأنها حربان فقط . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد حضر وهو صغير اليوم المعروف منها بيوم عكاظ ، وقد انتصرت فيه كنانة وقريش على قبيلة هوازن .

راجع : أيام العرب فى الجاهلية ، ص : ٣٢٦ — ٣٤١ .

ثم رجع إلى صاحبيه فقال لهما : إنى أريت صاحبكما البرّاض ، فلما نظر إليه لم يجسر عليه ، وقال : ادع لى أحد صاحبى ليعينني عليه . فدخل أحد الرجلين معه ، ففعل به مثلما فعل بصاحبه فقتله . ثم خرج إلى الثالث فقال له : إن صاحبيك لم يقدما على البرّاض ، وقالا لك : خلِّ الركاب فلا بأس عليها ، وادخل لنكتفه[1] بسيوفنا . فدخل الثالث معه . ففعل به كما فعل بصاحبيه فقتله . وأخذ البرّاض أسلابهم وركابهم ، وبفتكه ضُرب المثل ، فقيل : أفتك من البرّاض . وقال أبو تمام الطائى[2] :

والفتىٰ مَنْ تعرّفته الليالى والفيافى كالحية النضناض[3]
كل يوم له بصرف الليالى فتكة مثل فتكة البرّاض

وقال لبيد فى الجاهلية يذكره[4] :

ولا الأحوصين فى ليالٍ تتابعا ولا صاحب البراض غير المُغَمَّرِ[5]

---

(١) فى ب : « لتكتيفه » ولعلها لنكيفه بسيوفنا ، أى لنقطعه بها .

(٢) راجع شرح ديوان أبى تمام ، ص : ٣٠٨ — ٣١٦ .

(٣) الحية النضناض : التى إذا نهشت قتلت .

(٤) هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامرى ، أحد الشعراء الفرسان فى الجاهلية . أدرك الإسلام ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم ، ويعتبر من الصحابة ، وقد عمر طويلاً ، وهو أحد أصحاب المعلقات .

(٥) يقصد بالأحوصين ، الأحوص بن ربيعة بن جعفر بن كلاب سيد بنى عامر وسمى الأحوص لأن عينه كانت كأنها مخيطة ، وابنه عمر بن الأحوص الذى قتله بنو تميم . وغير المغمر أى غير المجرب .

ومن ذلك قولهم : أفتك من الحارث بن ظالم[١] . فانه التقى مع خالد ابن جعفر[٢] عند الأسود بن المنذر أخى النعمان بن المنذر وهو ملك العرب[٣] فقال خالد بن جعفر للأسود : أبيت اللعن مَنْ هذا ؟ قال : هذا الحارث ابن ظالم سيد قومه ، فأنشأ خالد يقول : أوّلُ صَوْكٍ وبَوْكٍ[٤] ، يعنى أول شىء ، يا حارثاً ، أرانى عندك إلاّ حَسَنَ البلاء أما تشكرنى ؟ قال الحارث : وما بلاؤك ؟ قال : قتلت عنك أشرف قومك زُهير بن جُذيمة[٥] ، وتركتك سيدهم . فقال له الحارث : سأشكمك[٦] ببلائك شكم ذلك .

وكان الأسود قد دعا لهما بتمر ، فجىء به على نِطْع[٧] ، وجعل الحارث

---

(١) الحارث بن ظالم بن غيظ المرى ، أشهر فتاك العرب فى الجاهلية . قُتل أبوه وهو صغير ، وآلت إليه سيادة غطفان بعد مقتل زهير بن جذيمة ووفد على الأسود المنذر فى الحيرة فالتقى بقاتل أبيه خالد بن جعفر ، فتنازعا ثم قتله ، كما جاء فى هذه القصة .

(٢) خالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة العامرى من هوازن وانتهت إليه رئاستها . كان شاعراً من فرسان الجاهلية ، وهو الذى قتل زهير بن جذيمة كما سبق أن قتل أبا الحارث بن ظالم ، فقتله الحارث كما جاء هنا . وكان قتله فى مكان يسمى (بطن عاقل) على طريق الحاج من البصرة .

(٣) تتفق هذه الرواية مع ما جاء فى « العقد الفريد ٣ : ٣٠٥ » ، وكتاب « أسماء المغتالين » ص : ١٣٤ . إلا أن فى الكامل لابن الأثير أنهما التقيا عند النعمان بن المنذر نفسه . (الكامل ١ : ٣٣٨) .

(٤) أول صوك بوك : الصوك الأول ، وهو مَثَل معناه لقيته أولا . راجع الأمثال للميدانى ٢ : ٢١٠ .

(٥) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، أمير عبس وأحد سادات العرب المعدودين فى الجاهلية .

(٦) شكم : شكر وجازى .

(٧) النطع : بساط من الأديم .

يردد يده فى التمر ينبثه[١] لا يعقل أيتهن يريد . فقال له خالد : مالك تنبث التمر لا تعقل أيتهن تريد ؟ قال : بل على أيتهن تخشانى أنْ آ كلها حتى أدعها لك . قال : وجعل خالد إذا أ كل التمر وضع النوى تحت النِطْع بين يدى الحارث ، حتى كوَّم بين يدى الحارث كومة ، والحارث لا يشعر بصنع خالد ذلك . فلما أمر الأسود برفع النِطْع فرفع ، قال خالد : أبيت اللعن ، ألاَ ترى إلى ما بين يدى الحارث ؟ لقد أ كل وحده مثل ما أ كل جميع القوم . قال الحارث : أفألقيت نوى ما أ كلتُ وما أ كلتَ أنت مع النوىْ ؟ قال : وقام الحارث بن ظالم . فلما خرج قال الأسود (لخالد) : ما أردت أن تحرِّش[٢] هذا الـكلب وهو ضيف لى . قال خالد : إنما هو عبد من عبيدى لو كنت نائماً ما أيقظنى .

قال : فلما أمسى بعث الأسود إلى الحارث بِعُسٍّ[٣] من شراب خمر عظيم مع قينة له ، فأتته به إرادةَ أن تشغله ، فوجدته يكدم[٤] واسطة رحله ، فقالت له : يقول لك الملك : اشرب هذا . فأخذه كأنه يهوى به إلى فيه ، فجعله فى جيب[٥] قميصه وبين جبته ، قال : ومع الحارث بن ظالم تبيع له من بنى محارب ابن حصفة بن قيس بن عيلان يقال له حراش ، فلما رأى صنيع الحارث ذلك قال : إنك لتهم بأمر إنى لأعرف فيه البلاء .

---

(١) ينبث التمر : يستثيره ويكشف ما تحته .
(٢) يحرش بين القوم : يغرى بعضهم ببعض ، وكذلك بين الـكلاب وماشا كلها .
(٣) العس : القدح أو الإناء الـكبير .
(٤) يكدم الدابة : يسمها .
(٥) جيب القميص : طوقه .

ورجع خالد إلى رحله ، فلامه عروة بن عُتبة (بن جعفر)[١] فى تعرضه للحارث بن ظالم . قال : ثم ناما وأشرجت القبة[٢] عليهما . فلما هدأت عيون القوم ، أخرج الحارث ناقته ، وقال لحراش : كن لى بمكان كذا وكذا ، ودفع راحلته إليه وقال : إن طلع كوكب الصبح ولم آتك ، فانظر أحبَّ البلاد إليك فاعمد له . قال : ثم انطلق الحارث يتوثب حتى أتى قبة خالد ، فوجد على الباب الحرس ، فأتاها من خلفها فهتك شَرَجها[٣] ثم ولجها ، وخالد نائم ، فكيَّف[٤] رأسه بالسيف . وتكلم عروة فقال : اسكت فلا بأس عليك . قال الحارث : وخفت أن لا أكون قد أتيت عليه[٥] ، فرجعت أدراجى فوضعت ظُبَّة السيف[٦] فى بطنه ، ثم غمزته حتى نجم من الجانب الآخر .

وحُكِىَ أن رجلًا من أصحاب الحجاج بن يوسف قال : أردت الفتك بالحجاج فمكثت نحواً من سنة أطلب غِرَّةً منه وفرصةً ، حتى بلغنى أنه يريد الخروج من باب له خاص ، فأتيت الباب فوقفت عليه . فخرج علىَّ وحده ، فلما نظر إلىَّ ، وبينى وبينه قيد رمحين ، عرف الشر فى وجهى ، فتبسم فى وجهى

---

(١) هو عروة الرحال .

(٢) أشرجت القبة : شدت عراها ، والقبة الخيمة .

(٣) شَرَج الخيمة : عراها .

(٤) كيَّف رأسه : قطعه .

(٥) فى ا : « ذاقت عليه » وهو خطا فى النسخ .

(٦) ظُبة السيف : حده .

وقال لى : أَلَقِيتَ كاتبنا منذ اليوم ؟ قلت : لا . قال : فالقه فإن عهدك معه على الرى . فدعوت له وانصرفت أريد الكاتب ، فلم أبلغه حتى لحقنى من أخذنى ، فوضعت فى الحبس[١] .

(١) تقدمت هذه الحكاية فى آخر الباب السابع بشكل يختلف قليلا عما جاءت به هنا وقد ذُكرت هناك كمثال على دفع المكروه بلطف ، أما هنا فقد رويت كمثال على الإحتراز من الفتك .

الباب الثالث والعشرون

في جزالة الرأي

ذُكر أن أبا العباس أمير المؤمنين السفاح ، هلك[1] وأبو جعفر المنصور راجع من حجه ، وقد تقدمه أبو مسلم ، فبلغه الخبر بموت أبي العباس . وكان أبو جعفر ولي عهده . فخاف أبو جعفر ، للمباعدة بينه وبين أبي مسلم ، أن يسبقه أبو مسلم إلى الأنبار ، وكان عسكر أبي العباس بها وبها توفي . فدعا أبو جعفر إسحق بن مسلم العقيلي فقال : ما ترى فيما نحن فيه ؟ قال إسحق : أنت بين أمرين مخوفين . قال أبو جعفر : وما هما ؟ قال إسحق : إن سبقك أبو مسلم إلى الأنبار مع التباعد بينكما ، عقد الأمر لغيرك . قال أبو جعفر : فإن سلمنا من ذلك ؟ (قال) : يعارضك عمك عبد الله بن علي ، وهو في مثل النحل من الرجال ، فيأخذك ويعقد الأمر لنفسه ولا مَنَعَةَ لك . قال : فإن سلمنا من ذلك ؟ قال إسحق : فإن سلمت (من ذلك) فالسلام عليك يا أمير المؤمنين . قال أبو جعفر : فما الرأي عندك يا إسحق ؟ قال الرأي (عندي) أن تكتب كتاباً على لسان أخويك العباس ويحيى ، كأنه وارد من الأنبار إليك ، يخبران فيه أن الخلافة (عُقدت) لك ، وأن عمومتك وسائر أهلك والقواد قد بايعوك . وتنفذه مع رسول حصيف[2] حتى يَمُرَّ بعسكر أبي مسلم ، فيخبر أنه ورد

---

(١) توفي أبو العباس السفاح في مدينة الأنبار سنة ١٣٦ هـ على أثر إصابته بالجدري . وفي أ : « أمير المؤمنين القائم » .

(٢) الحصيف : من استحكم عقله .

من ناحية الأنبار ، فإن سئل خبَّرَ بمثل ما فى الكتاب . فإن أبا مسلم سيسأله عن الخبر ويقرأ الكتاب . فإذا علم أن أهلك قد عقدوا لك الأمر يئس من نقضه ، ولم يدخل الأنبار وحاد عنها .

فإذا علمت أن أبا مسلم قد علم ذلك ، انسللت مخفياً من عسكرك وركبت قعوداً فارهاً[١] ، فبادرت الأنبار حيث لا يُعلم بك ، وأخذت على الطريق المختصرة[٢] . ففعل أبو جعفر ذلك ، وكتب الكتاب . فلما قرأه أبو مسلم وهو بقرب الكوفة ، حاد عن طريق الأنبار . ومضى أبو جعفر حتى دخل الأنبار ، فعقد الأمر لنفسه ، ووجد عيسى بن على عمه قد أمسك الأمر عليه[٣] .

وحُكِىَ أن الفرس لمَّا غلبت بعد الحبشة على أرض اليمن ، وجَّهت إلى كسرى بهدية على عير ، فمرَّت الهدية ببلاد اليمامة ، فأنفذها هوذة بن على[٤] . ومرَّت ببلاد بنى تميم فأغارت عليها ، فقيل لكسرى فى ذلك . فأراد أن يوجه جيشاً ، فقيل له : إن الجيش لا يمكنه طلب هؤلاء الأعراب ، لأن شربهم من آبار مثل عيون الديكة ، وربما طرحوا فيها السموم فيهلك الجيش ، ولكن يكتب الملك إلى صاحب البحرين يأمره أن يضع عطاء للعرب وفَرْضًا ، ويندب تميماً لذلك ، فمن صار إليه منهم استأسره . ففعل كسرى ذلك ، وكتب إلى عامله على البحرين ، فوضع العطاء للعرب .

---

(١) القعود من الإبل : ما انتخب منها ، والفاره : الفتى .

(٢) فى ب : « الطرق المختصرة » .

(٣) أمسك الأمر عليه : حبسه عليه .

(٤) هوذة بن على بن ثمامة ، من بنى حنيفة ، صاحب اليمامة وشاعر حنيفة وخطيبها قبيل الإسلام ، وفى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان ممن يوفد إلى كسرى فى المهمات ، أدرك الإسلام ولم يسلم . وفى ا : « هوذة بن خليفة » .

وجاءت بنو تميم لقبض العطاء فى حصن بالبحرين يُقال له المُشَقَّر (١) على البحر . فجعل صاحب كسرى يُدخل رجلًا رجلًا ، وكلما دخل رجل كُتِّف حتى دخل أكثرهم . ثم دخل رجل يقال له عوذ بن غالب ، فلما دخل من باب القصر أُغلق من خلفه بسلسلة ، ونظر إلى أصحابه أسارى ، فشدَّ على حَفَظة الباب فتفرقوا عنه ، ورجع إلى الباب فضرب السلسلة فقطعها بسيفه ، وخرج فأنذر قومه ، فخرجوا هاربين ، فأنشأ يقول (٢) :

ألَا فاذكرنْ فعــــلى ولا تنسينَّه
عشِيَّة قادونى لحصن المُشَـــــقَّر
ضربت رتاج البـــاب بالسيف ضربة
تفرج منهـــــا كل باب مُسَمَّر (٣)

---

(١) المُشَقَّر : حصن بناه الفرس فى البحرين مقابل حصن آخر اسمه الصفا .

(٢) وردت هذه الحكاية بشكل آخر فى العقد الفريد (٣ : ١٤٥) وفيها أن الذى هاجم باب الحصن وقطع السلسلة هو خيرى بن عبادة . أما فى الطبرى م (٢ : ١٣٣) فإن الذى قطع السلسلة رجل من تميم اسمه عبيد بن وهب الذى قال بعد أن قطعها :

تذكرت هنداً لات حين تذكر ... تذكرتها ودونها سير أشهر
حجازية عـــلوية حل أهلها ... مصاب الحزين بين زور ومنور
ألا هلْ أتى قومى على النأى إننى ... حميت ذمارى يوم باب المشقَّر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة ... تفرج منها كل باب مضبَّر

ولزيادة التفصيلات عن يوم المشقر راجع : أيام العرب فى الجاهلية ، ص ٢ — ٥

(٣) رتاج الباب : الرتاج الباب العظيم وفيه باب صغير يفتح عند الحاجة . المرتاج مايغلق به الباب .

وقلت ولم أملك أعـوذ بن غالب
لقد كنتَ عن هـذا المكان بمَعْمَر(١)
بأرض فلاة لا يُسدُّ وصـيدها
علىَّ ومعروفى بها غـير مُنكَر(٢)

فقتل صاحب المشقر الرجال وحمل من استأسر من الصبيان إلى كسرى فقُتل . وقلَّت بنو تميم فطمعت العرب فيها ؛ فشاورت أكثم بن صيفى(٣) وكان حكيم بنى تميم ، فألقى ثوبه عن بدنه ، ثم قال : كيف ترون بدنى ؟ قالوا : قد نَحُل وكَلَّ ، قال : فإن قلبي بضعة من بدنى ، وقد كَلَّ وضعف رأيى ، ولكن أجيلوا الرأى بينكم ، فإن الصواب إذا مرَّ بى عرفته . فأشار عليه بعضهم ، بأن يجتمعوا على ماء يقال له الكُلاب ، لأن المفاوز محيطة به ، وهو ماء غزير ، فقال أكثم : هذا الرأى . وغزتهم اليمن من بنى الحارث بن كعب فظفرت بهم بنو تميم ، وكان يومَ الكُلاب الأصغر(٤) .

---

(١) المَعْمَر : المنزل الكثير الناس والكلأ .

(٢) لايسد وصيدها : الوصيد : العتبة ، أى لايسد بابها .

(٣) أكثم بن صيفى التميمى : حكيم العرب فى الجاهلية وأحد المعمرين . أدرك الإسلام وقصد المدينة مع وجوه قومه فمات فى الطريق ، فلم ير النبى صلى الله عليه وسلم . كثير من كلامه اتخذ أمثالا لما ينطوى عليه من حكمة وبعد نظر .

(٤) يوم الكُلاب الأصغر : من أيام العرب المشهورة فى الجاهلية . قامت بين تميم من جهة ومذحج وقضاعة من القبائل اليمانية من جهة أخرى ، انتهت بانتصار تميم .

راجع عن تفصيلات هذا اليوم : أيام العرب فى الجاهلية ، ص : ١٢٤ ـ ١٣١ .

وحُكِىَ أن المأمون وجَّه رجلًا من دعاته إلى مدينة السلام ، وأمره بلقاء عبد الملك بن صالح العباسى ، وقال له المأمون : إنك ستلقى من عبد الملك رجلًا بعيد الغور ، دقيق الفطنة ، سديد الحكم ، رقيق اللسان ، حسن التأنى ، فاحذره . فإنه يُكثر المباحثة ويحسن المساءلة ، ويحتال لاستخراج ما فى ضميرك ، ويعتبر عليك باختلاف ألفاظك . فلا تُرِه الاسترسال فيتهمك ، ولا الاحتراس منه فيحذرك . وعليك باستعمال الغفلة إلى انتهاز الفرصة . فباحثه مباحثة الآمن ، واحترس منه احتراس الخائف . واعلم أن البحث الخفى يجلو الأمر ، والتعبير يكشف ما فى الضمير . واحذر مَنْ تَعرف ، ولا تصحب من لا تَعْرف .

وحُكِىَ أن رجلًا ولى اليمن من بنى هاشم . فأقام بها مدة وبلغ منها ما أراد . ثم ورد عليه كتاب وكيله من باب السلطان يُعلمه أنه قد عُزل عن البلد ، وأن الكتب بذلك قد أنشئت إليه . وكان من (سُنَّة) أهل اليمن ، إذا عُزل عنهم والٍ انتهبوا ماله ، فإن مانعهم قتلوه . فلمَّا بلغ الهاشمى عزله ، كتب كتاباً على لسان السلطان إليه يأمره باستئناف سنَته ويحمد مذهبه ، ثم دسَّه حتى أتاه راكب كأنه ورد من باب السلطان . فجمع أهل البلد فقرأه عليهم .

ثم خرج يوماً إلى الصيد ، فأبطأ إلى الظهر ثم رجع ، وجعل يخفى ماله ويودع ذخائره . ثم خرج يوماً ثانياً إلى الصيد ، فأبطأ إلى الليل ثم رجع ، حتى أحكم أمره . ثم خرج فى الليل إلى الصيد ، وخرج بحرمه[1] معه ، ثم جعله وجهه . فلم يُنكر أهل البلد إبطاءه حتى بات ليلته . فلما كان من الغد فافتقدوه ، خرجوا فى طلبه فلقيهم مَنْ خَبَّرهم أنه رآه هارباً فانصرفوا .

(١) فى ب : « وخرج بخدمه » .

الباب الرابع والعشرون

في إظهار أمر وإخفاء غيره[1]

حُكي أن هَرْثَمة[2] لما توجه إلى أبي السَّرايا[3] ، فعبر نهر صَرْصَرْ ، فتصافّ الخيلان ، نظر هَرْثَمة فرأى نهر صَرْصَرْ خلفه ، وهو وادٍ عظيم الأجراف لا يُدرك قعره ، وعن يمينه غيضة وحلة ، وعن يساره حيطان . فعلم هَرْثَمة أنه قد أخطأ على نفسه . فأمر رجلًا من أصحابه أن يأتيه بكتاب يدفعه إليه ، ففعل الرجل ذلك . فأخذ هرثمة الكتاب فقرأه ، ثم ضرب به الأرض ، وألقى قلنسوته عن رأسه ، وأبو السَّرايا ينظر إليه . ثم بعث إليه هرثمة : أن الكتاب ورد عليَّ بأن أمير المؤمنين المأمون رحمه الله مضى لسبيله ، وأن الناس بايعوا ابنه العباس ، وإنما كنا نقاتلكم للبيعة التى فى أعناقنا ، وقد مضت البيعة

---

(١) سقط هذا العنوان فى نسخة ا .

(٢) هو هَرْثَمَة بن أَعْيَن .

(٣) أبو السرايا ، السرى بن منصور الشيبانى . عصامى شجاع ، تزعم لأول أمره عصابة ، وقويت حاله فالتحق بيزيد بن مزيد الشيبانى فى أرمينية فعينه قائداً . ولما نشب القتال بين الأمين والمأمون ، انضم إلى جيش هرثمة قائد جيوش المأمون . ثم خرج على هرثمة بعد مقتل الأمين واستولى على بعض المدن . ثم التحق بمحمد بن إبراهيم العلوى عند خروجه على عهد المأمون، وتولى قيادة جنده واستولى على الكوفة ، وسيّر جيوشه إلى البصرة وبغداد . ولما استفحل أمره توالت عليه جيوش الدولة العباسية حتى استطاع الحسن بن سهل التغلب عليه فقتله سنة ٢٠٠ هـ وبعث برأسه إلى المأمون .

وبرئنا منها ، وأحسب أنَّ من تدعون إليه من آل أبى طالب أمسُّ برسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ، فأَخِّر الحرب اليومَ نلتقى ونتناظر . فأجابه أبو السَّرايا إلى ذلك ، وفرح بما ذكره هَرْثَمة وطمع فى ممالأته .

فانصرف أبو السَّرايا ، وأقام هَرْثَمة فى جماعة من أنجاد أصحابه ، وأمر أهل عسكره بالرجوع فعبروا جسر نهر صَرْصَرْ ، حتى إذا تتامُّوا راجعين ، عبر هَرْثَمة ثم ارتفع على نهر صَرْصَرْ فراسخ . ثم عقد جسراً فى ليلته ، وعبر فى السحر إلى صحراء واسعة جافة ، يمكن فيها مجال الخيل . ثم بعث إلى أبى السرايا أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه لم يمت ، وقد عبرنا لمحاربتك . فتواقعوا فانهزم أبو السَّرايا خمسة وعشرين فرسخاً حتى دخل الكوفة .

وحُكِىَ أن أبا جعفر المنصور ، أخذ البيعة لابنه على جميع بنى هاشم والقواد ، إلاَّ عيسى بن موسى ، فإنه امتنع من ذلك . فلما حجَّ المنصور حجته التى توفى فيها ، حجَّ معه عيسى بن موسى ومحمد بن إبراهيم الإمام ، والعباس ابن محمد ، ومحمد وجعفر ابنا سليمان بن علىّ . فلما توفى أبو جعفر بمكة ، كتم الربيع[1] مولاه موته . ثم بعث فأحضر الهاشميين وسائر القواد فقعدوا فى مراتبهم . ثم خلا بعيسى بن موسى ، حيث ينظر الناس إليهما ولا يسمعون كلامهما . ثم قال له الربيع : إن أمير المؤمنين أيَّده الله ، أمرنى أن أخطب إليك ابنتك فلانة على ابنه محمد المهدى ، وأن أبذل لك من الصداق ألف ألف درهم . قال (عيسى) : الأمر فى ذلك إلى أمير المؤمنين . فدخل الربيع كأنه يؤامر ، ثم خرج ومعه المال فدفعه إلى عيسى ، ومسح عيسى على يد الربيع

---

(١) هو الربيع بن يونس بن محمد بن أبى فروة ، من موالى بنى العباس . كان حازماً ذا رأى وتدبير . اتخذه المنصور حاجباً ثم استوزره وكان يعتمد عليه كثيراً .

عقدة النكاح ، والناس ينظرون إليهما ، ثم حمل المال إلى منزل عيسى بن موسى ، وأدخله حجرة فحبسه فيها . وقال لجميع من حضر : إن عيسى بن موسى قد بايع للأمير المهدى ابن أمير المؤمنين المنصور ، وأخذ صلته على البيعة . ودخل على أمير المؤمنين وخرج وقال : أمرنى أمير المؤمنين بتجديد البيعة عليكم لابنه المهدى . فأحضرت الأموال ، فبايع الناس للمهدى بولاية العهد للمنصور . ثم دخلوا وقد سُنِد المنصور ، فسلموا من بعيد وقبضوا صلاتهم وانصرفوا . ثم أظهر موت المنصور من الغد ، فخرج عيسى بن موسى فجحد البيعة ، فوثب عليه محمد بن سليمان فأكذبه وتهدده وهَمَّ به ، فأمسك وبايع . فشكر له المهدى ، فزوجه ابنته العبَّاسة[1] ، فتزوج ولم يعقب .

---

(١) جاء فى كتاب المعارف (ص : ٣٨٠) أن هرون الرشيد هو الذى زوج أخته العباسة ابنة المهدى إلى محمد بن سليمان ، ولما مات عنها تزوجها إبراهيم بن صالح ابن على .

الباب الخامس والعشرون

في اطلاع على مكتوم

حُكِيَ أن معاوية بن أبي سفيان قال لجلسائه بعد الحكومة[1] : كيف لنا أن نعلم ما تؤول إليه العاقبة في أمرنا ؟ قال جلساؤه : ما نعلم لذلك وجهاً . قال : فأنا استخرج علم ذلك من عليّ رضي الله عنه ، فإنه لا يقول الباطل . فدعا ثلاثة رجال من ثقاته ، فقال لهم : امضوا حتى تصيروا جميعاً من الكوفة على مرحلة ، ثم تواطأوا على أن تنعوني بالكوفة ، وليكن حديثكم واحداً في ذكر العلة واليوم والوقت والقبر ، ومَنْ تولى الصلاة عليَّ وغير ذلك ، حتى لا تختلفوا في شيء . ثم ليدخل أحدكم وليخبر بوفاتي ، (فإذا كان من الغد) فليدخل الثاني فيخبر بمثل خبر صاحبه ، ثم ليدخل الثالث (فيخبر بمثل خبر صاحبيه) وانظر ما يقول عليٌّ فعجِّلوه عليَّ .

فخرجوا كما أمرهم معاوية . ثم دخل أحدهم وهو راكب مُغِذٌّ شاحبٌ[2]، فقال له الناس بالكوفة : من أين بك ؟ فقال : من الشام . فقيل له : ما الخبر ؟ قال : مات معاوية . فأتوا عليًّا رضي الله عنه ، فقالوا : رجل راكب من الشام يُخبر بموت معاوية . فلم يحفل عليّ عليه السلام بذلك . ثم دخل آخر من الغد وهو مُغِذٌّ ، فقال له الناس : ما الخبر ؟ فقال : مات معاوية ، وخبَّر بمثل خبر

---

(١) أي بعد التحكيم .

(٢) المُغِذُّ : المسرع في سيره ، والشاحب : الهزيل من جوع أو سفر

صاحبه . فأتوا عليًّا كرم الله وجهه ، فقالوا : راكب آخر يخبر بموت معاوية بمثل ما خبَّر به صاحبه ، ولم يختلف كلامهما . فأمسك علىّ رضى الله عنه .

ثم دخل الآخر فى اليوم الثالث ، فقال الناس : ما وراءك ؟ قال : مات معاوية . فسألوه عما شاهد ، فلم يخالف قول صاحبيه ، فأتوا عليًّا رحمه الله فقالوا : يا أمير المؤمنين ، صَحَّ الخبر ، هذا راكب ثالث قد خبَّر بمثل خبر صاحبيه . فلما أكثروا عليه ، قال : كلا (والله) أو تخضب هذه من هذه ، يعنى لحيته من هامته ، ويتلاعب بها ابن لائكة الأكباد[١] . فرجع الخبر بذلك إلى معاوية .

وحكى أن المنصور جلس فى إحدى قباب مدينته ، فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يجول فى الطرقات ، فأرسل مَنْ أتاه (به) فسأله عن حاله ، فأخبره الرجل أنه خرج فى تجارة فأفاد مالاً ، وأنه رجع بالمال إلى منزله فدفعه إلى أهله ، فذكرت امرأته أن المال سُرق من بيتها ، ولم يَرَ أثر ثقب ولا تسلُّق . فقال له المنصور : مذ كم تزوجتها ؟ قال : منذ سنة . قال : أفبكر تزوجتها ؟ قال : لا . قال : فلها ولد من سواك ؟ قال : لا . قال : فشابة هى أم مُسنّة ؟ قال : بل هى حدثة . فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذه له حاد الرائحة غريب النوع ، فدفعها إليه وقال له : تطيَّب من هذا الطيب فإنه يذهب همومك .

---

(١) لائكة الأكباد : هى هند زوجة أبى سفيان وأم معاوية . وقد خرجت مع زوجها فى معركة أُحد، وكانت نذرت أن تشرب من دم حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم وتأكل كبده . وذلك انتقاماً لأبيها عتبة بن ربيعة الذى قتله حمزة فى معركة بدر . ولما قتل وحشي حمزة غيلة ، عمدت إلى بطن حمزة فبعجتها واستخرجت كبده فلاكته ، ولهذا سميت لائكة الأكباد ، أو آكلة الأكباد .

فلما خرج من عند المنصور ، قال المنصور لأربعة من ثقاته : ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم ، فمن مرَّ به أحدٌ فشمَّ منه رائحة هذا الطيب ، وأشمَّهم منه ، فليأتني به . وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته وقال لها : وهبه لى أمير المؤمنين . فلما شمته بعثت به إلى رجل كانت تحبه ، وقد كانت دفعت المال إليه ، فقالت له : تطيَّب من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي . فتطيَّب منه الرجل ومرَّ مجتازاً ببعض أبواب المدينة ، فشمَّ الموكَّل بالباب رائحة الطيب منه ، فأخذه وأتى به إلى المنصور . فقال له المنصور : من أين استنفذت[1] هذا الطيب ، فإن رائحته غريبة معجبة ؟ قال له الرجل : اشتريته . قال له المنصور : فأخبرنا ممن اشتريته ؟ فاجلج الرجل واختلط كلامه . فدعا المنصور بصاحب شرطته فقال له : خذ هذا الرجل إليك ، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخلِّه يذهب حيث شاء ، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة . فلما خرجا من عنده دعا صاحب شرطته وقال له : هوِّل عليه وجرده ولا تقدم بضربٍ حتى تؤامرنى .

فخرج به صاحب الشرطة . فلما جرَّده وسحبه ، أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها ، فأعلم المنصور ذلك . فدعا بصاحب الدنانير وقال له : أرأيتك إن رددت عليك الدنانير بأعيانها تحكمنى فى امرأتك ؟ قال : نعم . قال : فهذه دنانيرك ، وطلِّق المرأة ، وخبَّره خبرها .

وحُكِىَ أن العباس بن المأمون[2] ، دبَّ فى الفساد على المعتصم بالله ،

---

(١) من أين استنفذت هذا : من أين حصلت عليه .

(٢) كان العباس بن المأمون قد تآمر مع بعض القواد على اغتيال عمه المعتصم ، بينما كان هذا مشغولا فى حرب الروم ، إلا أن المعتصم اكتشف مؤامرتهم فقتل المشتركين فيها ، ومنهم القائد عجيف بن عنبسة ، عدا العباس فقد حبسه حتى مات فى حبسه .

راجع : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ٣ : ٢٧٥ .

وساعده على ذلك جماعة كثيرة ، فيهم عُجَيف بن عنبسة ، وأحمد بن الخليل ابن هشام ، وعمر الفرغانى وغيرهم . وكان فيمن بايع العباس رجل من أهل خراسان ضعيف العقيدة . فتخلَّف عن نوبته فبُعث إليه فحُبس . فظن الرجل أنه حُبس بسبب العباس ، فصاح فى الحبس : عندى نصيحة ، فرُفع خبره إلى المعتصم ، فأمر بمساءلته عن نصيحته . فطلب الأمان على ذلك ، فأُعطىَ أماناً . فخبَّر بقصة العباس ومن بايعه ، فأمر به المعتصم فحُجب عن الناس ، ودعا ابن أبى دؤاد فشاوره وقال : إنى لست آمن أن يشيع ما ذكر هذا الرجل ، فيستوحش الناس ونحن فى بلاد العدو فما ترى ؟ قال ابن أبى دؤاد : أرى أن تبعث قبل أن ينتشر الخبر ، إلى العباس وجميع من قُرن معه ، وإلى نفر من غيرهم تخلطهم بهم ، فتخلع عليهم وتحبسهم بلا سلاح عندك للغداء والشراب . وتُظهر فى العسكر أنهم قد قُيِّدوا . فإن كل من عنده نصيحة فيهم ، إذا علم أنهم قُيِّدوا أظهر نصيحته، فإن كان هذا الأمر حقًّا توثقت منهم ، وإن كان الأمر باطلاً ، لم تعجل بقول لا يُدرىٰ أصدق أم كذب ، ولعله أراد التشفى من بعضهم . ففعل المعتصم بالله ما أشار به ابن أبى دؤاد . فلما ظهر فى العسكر أن العباس ومن بايعه(١) قد قيِّدوا ، جاءت النصائح فيهم ، فاتضح الخبر .

وحُكِىَ أن دارا ملك الفرس ، لما انهزم من الإسكندر ، تواطأ عليه حاجبه وصاحب شرطته ليتقربا به إلى الإسكندر . فشدَّا على دارا وضرباه بسيفيهما حتى سقط . فمرَّ عليه الإسكندر ، وهو صريع ، فعرفه فوقف عليه ونزل إليه فوضع رأسه فى حجره ومسح وجهه بكمه ، ثم قال له الإسكندر : لئن سلمت من جراحك لأخلينَّ لك ملكك وأكون لك عوناً وصديقاً

---

(١) فى ا : « ومن تابعه » .

ماحييت . ونظر إلى الأطباء فنظروا إليه فرأوه مأيوساً منه ، فقال دارا للإسكندر : قد كرمت فى الظفر ، قال الإسكندر : فأوصنى بحوائجك لأبلغ منها ما تحب ، قال له دارا : لا تُكْرِه قومى على تغيير دينهم ، وتزوَّج ابنتى وَشْكاد[١] ــ وهى بالعربية رشيق ــ فلا أعلم لها كفؤاً غيرك ، وتقتل قاتلى ، قال الإسكندر : أفعل .

فأعطى الإسكندر الفرس الأمان ، حتى اجتمع إلى دارا أختانه[٢] وخدمه (وحرمه) قبل موته . فلما مات دارا ، كفنه الإسكندر بأحسن الكفن ، ومشى مع جنازته إلى قبره . فلما جلس على القبر قال : إن الذى قتل دارا عظيم الفعال ، ولو ظهر لجازيناه بما يستحق ، ورفعناه على الناس . فلما بلغ هذا القول قاتِلَىْ دارا ، ظهرا مخبِّرا أنهما قتلاه ، فقال الإسكندر : أما مجازاتكما بما تستحقان ، فما يستحق مَن قَتَل سيده ومن رفع قدره وغدر به إلَّا القتل ، وأما رفعكما على الناس ، فإنى سأصلبكما على أطول خشب يمكننى ، ففعل ذلك بهما .

فلما دخل فارس زُفَّت إليه بنت الملك دارا ، وكانت أحسن أهل زمانها . فأعرض عنها لمَّا دخلت عليه وتشاغل ، فقيل له : أعرضت عن أحسن خلق الله عز وجل ؟ فقال : ما أقبح بمن غلب مثل دارا بالسيف أن تغلبه ابنته بعينيها . فلما مات الإسكندر قالت بنت دارا : ما كنت أظن أن غالب دارا يموت .

---

(١) فى ب : « ردشناد » وورد اسمها فى بعض المصادر « روشنك » ــ البدء والتاريخ ٤ : ١٥٣ . راجع عن مقتل دارا ووصيته : غرر السير ص ٤١٧ .

(٢) فى أ : « خزانه » .

وحُكِىَ أن ملكاً كانت أسراره وأخباره تظهر كثيراً إلى عدوه ، فيبطل تدبيره على عدوه . فبلغ ذلك منه ، فشكاه إلى أحد نصحائه وقال له : إن جماعة يطَّلعون على أسرارى ، ولا بد لى من إظهارها لهم ، ولست أدرى أيهم يظهرها ، وأكره أن أنال من البرىء منهم بما يستحق الخائن . فدعا بكتاب فكتب فيه أخباراً من أخبار الملك وجعلها كذباً كلها ، ثم دعا برجلٍ رجلٍ منهم ، كل واحد دون أصحابه ، ممن كان يُفشى الملك إليه خبره ، فقال الملك : خبِّر كل واحد منهم بخبر على حدة لا تُظهر عليه سائر أصحابه ، ومُرْ كل واحد منهم بستر ما أُسِرَّ إليه ، واكتب على كل خبر اسم صاحبه . فلم يلبث أن أظهر الخونة ما أُفشى إليهم ، واكتتمت أخبار الناصحين وما أُفشى إليهم . فعرف الملك من يُفشى سرَّه فحذره .

وحُكِىَ أن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن[1] ، لمَّا خرج على أمير المؤمنين المنصور بالبصرة ، اتهم المنصور جماعة من أهل الكوفة بالفساد عليه وخافهم . فكتب كتباً إليهم على لسان إبراهيم بن عبد الله ، يخبر فيها بأنه يثق بهم ويعتمد عليهم ويأمرهم بالوثوب على أبى جعفر . ثم أخذ فيجاً[2] فدفع الكتب إليه وهى مفضوضة وقال له : انطلق بها إلى من هى (إليهم) ، واعلمهم أن إبراهيم وجَّهك بها ، وأنى ظفرت بك ففضضتها . فلما وصلت الكتب إلى

---

(١) إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، كان شاعراً عالماً بأخبار العرب وأيامها . خرج بالبصرة على أبى جعفر المنصور ودعا إلى مبايعة أخيه محمد النفس الزكية الذى ثار فى المدينة وطرد عامل بنى العباس منها . وقد التف حول إبراهيم عدة آلاف من المقاتلين ، فاستولى على البصرة والأهواز وواسط ، وهاجم الكوفة . فاضطرب المنصور كثيراً ، فوجه إليه الجيوش فاصطدمت معه بعدة معارك آخرها كانت قرب الكوفة ،قتل فيها إبراهيم سنة ١٤٥ هـ،وجىء برأسه إلى المنصور .

(٢) الفيج : رسول السلطان ، أو الذى يحمل الكتب (فارسى معرب) .

أربابها ، هرب من كان مريباً فتشردوا فى البلاد . وأخذ الكتاب من كان بريئاً فجاء به إلى المنصور وحلف على براءته ، فقبل المنصور منه ذلك .

وحُكِىَ أن إبراهيم بن السندى بن شاهك قال : بينا خالد بن برمك[١] مع قَحْطبة[٢] فى غرفة تشرف على صحراء ، وقد نزل تلك الساعة وترك الجند حوله ، فمن رجل ينصب خيمته وآخر يقود دابته ، ومن رجل يبسط سفرته وآخر ينزع ثوبه ، ودعا قَحْطبة بالغداء . إذ نظر خالد نظرةً فقال : نادِ فى الخيل فقد سرى إليك الخيل ، وبالحرى أن لا يستوى الناس على ظهور الدواب حتى يهجموا عليك ، قال : وما ذاك يا أباالعباس ؟ فوالله ما أرى شيئاً ولا أسمع صوتاً ؟. قال : اِركب أُخبرك ، فإن الأمر أسرع مما تحسب ، قال : فركب قَحْطبة ونودى فى الناس فركبوا ، قال : فما استووا على ظهور دوابهم حتى لاحت الغبرة وطلع عليهم سَرَعان الخيل ، ودهمهم العدو ، فصادفوا من العسكر يَقَظَة فواقعوهم ودافعوهم . فعجب قَحْطبة فقال : كيف علمت ؟ قال : أما رأيت أيها الأمير الوحش مقبلة ؟ قال : بلى ، وما فى وحش لاحت فى صحراء ؟ قال : إن من شأن الوحش الهرب منا لا إلينا ، فلما رأيتها مقبلة إليك ، علمت أنها لم تَدَع شأنها وعادتها ، إلا لأنها قد ضاقت بها الصحراء من الخيل التى هجمت عليها فهربت منها ، قال إبراهيم : فلولا خالد لاصطلموا[٣] ذلك اليوم .

---

(١) خالد بن برمك : أول من وزر من آل برمك فى الدولة العباسية . وكان أبوه برمك من مجوس بلخ يخدم النوبهار ، وهو معبد للمجوس فى بلخ توقد فيه النيران . واشتهر هو وبنوه بسداتنه . تولى خالد الوزارة للسفاح بعد أبى سلمة الخلال . وبقى خالد فى منصبه حتى توفى السفاح فأقره المنصور على وزارته حتى استبدل به أبا أيوب الموريانى . ولم يبلغ مبلغ خالد أحد من ولده فى علمه وجودة رأيه وقوة بأسه . (وفيات الأعيان ١ : ٢٩٥ — ٢٩٦) .

(٢) هو قحطبة بن شبيب . (٣) لاصطلموا : لهلكوا واستأصلوا .

راجع نص هذه الحكاية فى : وفيات الأعيان ١ : ٢٦٥ .

الباب السادس والعشرون

فى ذكر ثأر وطائلة

ذُكر أن الوضَّاح جذيمة[1] ، كان ملكاً على الحيرة وما والاها من السواد . وكانت الزبَّاء[2] ملكة على ناحية قرقيسياء وهِيت وديار ربيعة . فبنت قصرين على شاطىء الفرات لها ولأختها . فخطب الوضَّاح إلى الزبَّاء نفسها ، فأطمعته فى ذلك ، وبعثت إليه : إنى أزوجك نفسى على أن تصير إلىَّ وتقيم عندى ، ثم أصير معك إلى بلدك . فطمع الوضَّاح فى أن يجتمع له المُلْكان ، فتزوجها على ذلك ، وأراد المضى إليها . فقال له وزيرٌ له يقال قَصِير[3] : لا تمضِ أيها الملك إلى هذه المرأة ، فإن النساء يُهدَين إلى الرجال ،

(١) هو جذيمة الأبرش بن مالك من ملوك الحيرة التنوخيين وسمى بالوضاح والأبرش لبرص كان فيه . كان ذا مطامع توسعية ، فهاجم مشارف الشام وحارب ملك الجزيرة عمرو بن الظرب فقتله ونهب بلاده .

(٢) الزباء : بنت عمرو بن الظرب ، خلفت أباها فى حكم الجزيرة ، وكانت على جانب كبير من الدهاء ، فصممت على الأخذ بثأر أبيها ، واستطاعت أن تدبر لجذيمة (قاتل أبيها) مكيدة فقتلته .

راجع : أعلام النساء ، الجزء الثانى ، ص : ٦ — ١٥ .

(٣) هو قَصِير بن سعد بن عمر ، كان أريباً حازماً أثيراً عند جذيمة الأبرش ناصحاً له . وقد نصحه بعدم المضى إلى الزباء وحذره من غدرها . فلما قتل جذيمة وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى على الحيرة ، شجعه قصير على الثأر لخاله ، وقام هو بالدور الرئيسى فى ذلك .

ولست آمنها عليك . فأبى عليه الوضَّاح (ولجَّ ، فقال قصير : لا يُطاع لقصير أمر ، فذهبت مثلاً . ومضى الوضَّاح) إلى الزبَّاء مخففاً[١] من أصحابه .

فلما دخل عليها وجدها على سرير لها ، فأمرت جواريها فأمسكن يديه وأخذن سيفه ، ثم كشفت له عن عانتها ، فإذا شعرها قد طال حتى عقدته فى ظهرها ، وقالت : أهِنَة ذات عرس ترى ؟ قال[٢] : لا ، ولكن هِنَةً قذرة . قالت : أما والله ما بنا عجز مواسٍ ولا قلة أواسٍ ، ولكن شيمة من أناس . ثم قالت له : أى قتلة تحب أن أقتلك ؟ قال : إن (كنتِ) لابد قاتلتى فاقتلينى قتلة كريمة . فأمرت جواريها فقالت : اعجِنَّ لمولاكن لُباب البُرِّ بالسمن والعسل ، فعملن الفالوذج[٣] . فأطعمته حتى شبع ، ثم سقته الخمر حتى ثمل ، ثم أقعدته فى نِطْع وفصدت شريانه ، وأمرت جواريها فأخذن بأطراف النِطْع ودمه يسيل فى النِطْع . فلما غلبه النزف ، مال على إحدى جنبيه ، فخرج الدم من النِطْع . فقالت : أى وضَّاح ، إحفظ دمك . قال : وما عليكِ من دم أضاعه أهله ، فذهب مثلاً . فنزف حتى مات .

وبلغ الخبر قَصيراً وزيره فجدَعَ أنفه[٤] ، ودسَّ إليها أنه جُدِعَ لأنه أشار على مولاه بقصد الزباء . ثم راسلها يُطمعها فى مُلْك وضَّاح . فركنت إليه ، وصار إليها بأمان . وأخبرها بسعة التجارات بالسواد وانشراحها[٥] .

---

(١) فى ب « متخفياً من أصحابه » .

(٢) وفى كتاب أسماء المغتالين ، ص ١١٤ ، قال : بلغ المدى وجف الثرى وأمر غدر أرى .

(٣) الفالوذج : نوع من الحلوى .

(٤) وقيل : لأمر ما جدع قصير أنفه ، فذهبت مثلا .

(٥) انشراح التجارة : توسعها .

فدفعت إليه مالاً يسيراً لتمتحنه ، فأتاها بربح عظيم فسرَّها . ثم زادته فى المال ، فأتى إليها بربح عظيم ، فأعطته مالاً كثيراً وأنست به . وكانت تحادثه ، فقالت له فيما خبَّرته : إنى حفرت من قصرى إلى قصر آخر على الفرات من الجانب الآخر سَرَباً تحت الماء ، وجعلت (باب) السرب تحت سريرى ومخرجه تحت سرير آخر ، فإن راعنى أمر خرجت إلى جانب الفرات الآخر ، فحفظه عليها قَصير .

ثم مضى بالمال ، فهيأ ألفى رجل فى ألفى صندوق على ألف جمل بختى[1] ، وعلى الرجال الدروع ومعهم السيوف ، ثم أقبل بهم . ووجَّه إليها : إنى قد أقبلت إليك[2] بتجارة لم يدرك الناس مثلها ، فلما قرب منها صعدت على سور مدينتها تنظر إلى العير فرأتها مقبلة[3] فقالت :

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلاً يحملن أم حديدا
أم صَرَفاناً بارداً شديدا أم الرجال رُبَّضاً قعودا[4]

وجاء قصير بالعير فأدخلها المدينة ، فأناخ الجمال ، وثار الرجال من الصناديق بالسيوف يضربون مَنْ أدركوا . وعلمت الخبر فدخلت السَّرَب الذى ذكرت لتخرج من جانب الفرات الآخر ، وبادرها قصير فوقف على باب السَّرَب . فلما رأته والسيف معه ، علمت أنه قاتلها ، فمصَّت سُمًّا كان

---

(١) الجمل البختى : الجمل الخراسانى .

(٢) فى ب : « قد جئتك » .

(٣) فى ب : « مثقلة » .

(٤) الصرفان : النحاس والرصاص ، أو الموت .

تحت خاتمها وقالت : بيدى لا بيد غيرى فماتت . وفى رواية ، بيدى لا بيد عمرو[١] ، فأرسلتها مثلاً .

وقيل كتب كسرى إلى عامله ، أن يبعث إليه بكر بن وائل[٢] وتميم ابن مر[٣] . قال : وكان بكر أعور ، فتوجها إلى كسرى ، فلما دنوا منه ، أراد بكر أن يمكر بتميم ، فتغفله فسرق ثيابه وركب راحلته ومضى حتى أتى باب الملك ، ولبس ثياب تميم ، وبقى تميم ليس معه ثياب . فأذن كسرى لبكر ، فلما دخل قال له : أين صاحبك ؟ قال : تخلَّف يتصيد ويجنى الكمأة ، وبادرت أنا إلى الملك بالسمع والطاعة . فأعجب ذلك الملك وقال له : ما تحب أن أَصنع بك ؟ قال : لا تصنع بتميم شيئاً إلاَّ صنعت بى مثله . قال : فذاك لك .

وقدم تميم بعد يوم أو يومين ، فسأله الملك عن سبب إبطائه وتخلفه عن صاحبه ، وأعلمه أن قد جعل له أن يصنع به مثل ما يصنع بتميم . فأخبره تميم بقصته ومكره به ، وقال : إن حاجتى إلى الملك أن يفقأ عينى ويفعل مثل ذلك ببكر كما وعده . قال لك ذلك . فدعا ببكر ، وأمر بتميم ففقئت عينه فصار أعور ، وفقئت عين بكر فصار أعمى ، فخرج يتلمس الجدار وهو يقول :

---

(١) فى بعض الروايات : أن الزباء أقبلت تريد النفق لتدخل ، فأبصرت قصيراً عند بابه مصلتا سيفه ، فانصرفت راجعة فتلقاها عمرو بن عدى ليضربها ، فمصت خاتمها وكان فيه سم ، وقالت بيدى لا بيد عمرو .

(٢) بكر بن وائل بن قاسط : من زعماء بنى ربيعة ومن وجوه الجاهلية ، له عدة أولاد وأحفاد تنتسب إليهم بعض فروع ربيعة .

(٣) تميم بن مر : من زعماء العرب فى الجاهلية وإليه تنتسب بطون قبيلة تميم وهى من أكبر القبائل العربية . وكان ممن أوفدوا إلى كسرى فى بعض المهام .

لا بصر يهديني ولا قائد يقودني ، فتصدقوا على الزَمِن[١] رحمكم الله . قال : فـكان بكر أول السائلين .

قال : كان الوضَّاح بن إسماعيل بن داود[٢] أتى إلى الشام ، فـكان من أجمل الناس وأفصحهم ، فرأته امرأة فى زمن عبد الملك فعشقته ، فـكان يدخل إليها ، وكانت تجعله فى صندوق . فإذا لم تـكن ليلتها من زوجها ، ظهر معها يحدثهـا ، فإذا خافت شيئاً أدخلته الصندوق . فبعث إليها زوجها بجوهر مع خصىّ له ، فدخل فجأة وهو معها ، فلما أحسَّ به دخل الصندوق . ودفع الخصىّ إليها الجوهر ، فطلب منها فصًّا كان فى الجوهر ، فلم تعطه إيَّاه . فأتى مولاه فأخبره بالأمر ، ووصف له الصندوق الذى دخل فيه الوضَّاح . فأتاها زوجهـا فقال يا فلانة ، هبى لى بعض هذه الصناديق . قالت : أيتها شئت ؟ قال : هذا . قالت : خذ غيره . قال : لا أبغى غيره . قالت : خذه . قال : احفروا ، فحفروا حتى أمعنوا . ثم قال : دلُّوه فدلَّوه ، وأعاد التراب عليه ، وقال : إن كان حقاً أو باطلاً فقد فرغنا[٣] (منه) . فما رأت ذلك فى وجهه حتى مات[٤] .

---

(١) الزمن : ذو العاهة .

(٢) المعروف بوضاح اليمن ، أحد أبناء الفرس الذين قدموا فى الحملة الفارسية التى طردت الأحباش . وكان شاعراً ظريفاً .

(٣) وفى كتاب أسماء المغتالين ص ٢٧٣ : قال : ياهذا ، قد بلغنا عنك شىء ، فإن كان حقاً أو باطلا فسنقطع أثرك .

(٤) وردت هذه الجملة الأخيرة فى أسماء المغتالين كما يلى : « فلم تتبين فى وجه الوليد إلى أن مات شيئاً يذكر » . وفيه : إن التى عشقت الوضاح هى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك ، وهو الذى أخذ الصندوق ودفنه .

الباب السابع والعشرون

في فسخ العزائم

قيل لمّا قدم الوفد إلى سليمان برأس قتيبة، كتب لوكيع بن أبي سود[1] عهده على خراسان، فقال يزيد بن المهلب لعبد الله بن الأهتم، ولم يزل مائلًا إلى آل المهلب: إن أنت فتأت[2] أمير المؤمنين عن رأيه في وكيع وصرفته عن توليته خراسان إلى توليتي، فلك مائة ألف (درهم) أعجلها لك بالشام، ولك أمر خراسان، قال: فقام عبد الله بن الأهتم فتكلم عند سليمان كلاماً يفرق الناس عن استبراعه[3] واستحسانه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن وكيعاً أدرك لي بثأري، وبالغ في طاعة أمير المؤمنين فجزاه الله خيراً، غير أني والله لو خفت من إحدى يديَّ خلافاً على أمير المؤمنين، لأحببت إبانتها[4] من صاحبتها. إن وكيعاً لا يملك مائتي عنان قط فيُحدِّث نفسه بالطاعة لأحد إذا غضب، فلا تأخذنا بحدث كان منه عند معصيته، قال سليمان: يا ابن الأهتم، فمن

---

(١) هو وكيع بن قيس بن حسان بن أبي سود التميمي. تولى قيادة الثورة على قتيبة ابن مسلم في خراسان حينما خرج قتيبة على سليمان بن عبد الملك. واستطاع وكيع أن يقتل قتيبة، فبعث برأسه إلى سليمان. للتفصيلات راجع: وفيات الأعيان، ٥: ٣٤٠ — ٣٤١.

(٢) فتأت: عدلت به وصرفته.

(٣) في ب: «استبزاعه» والبزاعة ما يحمد به الإنسان.

(٤) إبانتها: فصلها.

لخراسان ؟ قال : العبد في الطاعة والأخ في النصيحة ، قال : يزيد بن المهلب ؟ ويزيد إلى جنب سليمان قاعد ، وقد كان سليمان استعمل يزيد على حرب العراق وصلاته إلّا خراسان وحدها ، فاستعمل صالح بن عبد الرحمن الكاتب مولى بني تميم على الخراج . فلما قال عبد الله ذلك ، قال سليمان : صدقت . وأقبل على يزيد فقال : استخلف على أعمالك في العراق ، وسر إلى خراسان فأحكم أمرها ، ولا تقدم على وكيع بضرب ولا عذاب ، وخذ ما سرق من مال الله منه إن كان فعل ، بغير عذاب ولا ضرب[١] .

ومثله ما قيل في حكومة أبي بردة بن أبي موسى[٢] . وذلك أنه ولي بعد الشعبي قضاء الكوفة . فكان يحكم بأن رجلًا لو قال للمملوك الذي لا يملكه ، أنت حر ، إنه يُعتق ويؤخذ المعتِق بثمنه ، قال : فعشق رجل من بني عبس جارية لجار له فجُنَّ بها وجنت به . فكان يشكو ذلك إليها ، فلقيها يوماً فقال (لها) : أشكو إلى الله أنه لا حيلة لي فيك ، قالت : بلى والله ، إن لك لحيلة ولكنك عاجز ، هذا أبو بردة يقضي بالعتق بما قد علمت ، فقال لها : إنك لصادقة . ثم قدم بها إلى مجلسٍ للنَخَعي[٣] فيه قوم يُعَدَّلون . فقال : هذه جارية آل فلان أُشهدكم أنها حرة ، فألقت ملفحتها[٤] على رأسها . وبلغ ذلك

(١) لم يلتزم يزيد بهذه الوصية إذ حبس وكيع بن أبي سود وناله بكل مكروه . راجع : كتاب البلدان ، ص ٣٠٠ .

(٢) أبو بردة : هو عامر بن أبي موسى الأشعري ، ولاه الحجاج قضاء الكوفة . وكان يقال ثلاثة قضاة في نسق : كان بلال بن أبي بردة قاضياً على البصرة ، وكان أبوه أبو بردة بن أبي موسى قاضياً على الكوفة ، وأبوه أبو موسى الأشعري قاضياً لعمر .

(٣) هو إبراهيم النخعي ، وهو تابعي من فقهاء الكوفة المشهورين . توفي سنة ٩٥ هـ . وكان من أصدق الناس رواية وحفظاً .

(٤) الملحفة : اللباس الذي يلبس فوق سائر الملابس من آثار البرد ونحوه ، ويقصد هنا إنها تسترت لأنها أصبحت حرة .

مواليها ، فجاءوا فقدموه إلى أبي بردة ، وقدموا صاحب الجارية ، فأنفذ عتقها وألزم الرجل ثمنها . فلما أمر به إلى السجن ، خاف إذا ملكت أمرها (أن تصير) إلى أول من يطلبها ، وأن يخيب هو فيما سعى إليه من أمرها ، فقال : أصلح الله القاضى لابد من حبسى ؟ قال : أو تعطيهم ثمنها ؟ . قال : فليس مثلى يحبس فى شىء يسير ، أشهدكم إنى قد أعتقت كل مملوك لآل أبى موسى ، وكل مملوك للأشعريين ، وكل مملوك لمذحج[١] . فخلّى سبيله ، ورجع عن ذلك القضاء فلم يحكم به .

ومثله لما خرج الأحنف مع مصعب بن الزبير ، أرسل إليه بمائة ألف درهم ، ولم يرسل إلى زبراء جاريته بشىء . فجاءت حتى قعدت بين يديه ثم أرسلت عينيها[٢] فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالى لا أبكى عليك إذا لم تبكِ على نفسك ، أبعد نهاوند ويوم مرو الروذ ، صرت إلى أن تجمع بين عارين من المسلمين . فقال : نصحتِنى والله فى دينى إذ لم أنتبه لذلك . ثم أمر بفسطاطه[٣] أن يقوّض . فبلغ مصعباً ذلك ، فقال : ويحكم مَنْ دهانى فى الأحنف ؟ فقيل له : زبراء . فبعث إليها بثلاثين ألفاً ، فجاءت حتى (وقفت بين يديه وأرسلت) عينيها ، فقال مالكِ يا زبراء ؟ قالت : جئتَ بإخوانك من أهل البصرة تزفهم كما تزف العروس ، حتى إذا صيرتهم فى نحور أعدائهم أردت أن تفت فى أعضادهم . قال : صدقتِ والله ، يا غلام (دعها) فاضطرب العسكر ، وقيل : هاجت زبراء ، فذهبت مثلاً[٤] .

---

(١) يريد أنه أعتق جميع مماليك أسرة القاضى وقبيلته .

(٢) أرسلت عينيها : أخذت فى البكاء .

(٣) الفسطاط : البيت من الشعر .

(٤) وردت هذه القصة فى الباب التاسع بتغيير بسيط كمثل على تسكين شغب وإصلاح ذات بين ، وجاءت هنا مثلاً على فسخ العزائم . وقد جاءت العبارة الأخيرة هنا مشوشة فصححناها على الشكل الذى جاءت به هناك .

ومثله حديث سلمان الفارسى[١]، لما خطب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابنته فلم يستجز ردَّه ، فأنعم له وشقَّ ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله بن عمر . فشكا ذلك عبد الله إلى عمرو بن العاص ، فقال : أفتحب أن أصرف سلمان عنكم ؟ فقال له : هو سلمان وحاله فى الإسلام حاله . قال : أحتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر والكاره له ، قال : وددنا أنك فعلت ذلك . فمرَّ عمرو بن العاص بسلمان فى طريق ، فضرب بيده على منكبه وقال : هنيئاً لك يا أبا عبد الله ، قال له : وما ذاك ؟ قال :هذا عمر يريد أن يتواضع بك فيزوجك قال : وإنما يريد أن يزوجنى ليتواضع بى ؟ قال نعم : قال : لاجرمَ ، والله لا أخطب إليه (أبداً) .

(وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة أن يقدما عليه ، فقدم عمرو من مصر والمغيرة من الكوفة ، فقال عمرو للمغيرة . ما جمعنا إلا ليعزلنا ، فإذا دخلت عليه فأشهر الضعف واستأذنه أن تأتى الطائف أو المدينة ، فإننى إذا دخلت عليه سألته ذلك . فإنه يظن أننا نريد أن نُفسِد عليه ، فدخل المغيرة ، فسأله أن يعفيه ويأذن له . ودخل عمرو فسأل مثل ذلك . فقال معاوية: لقد تواطأتما على أمرٍ وإنكما لتريدان شراً ، إرجعا إلى عملكما[٢]) .

---

(١) سلمان الفارسى: صحابى ومن أوائل المسلمين ، كان قوى الجسم صحيح الرأى، عالماً بالشرائع ، زاهداً . وقد لزم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أشار عليه بحفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب . تولى إمارة المدائن وبقى فيها حتى توفى سنة ٣٦ هـ .

(٢) هذه القصة كلها من نسخة ب ، ويظهر أنها سقطت فى النسخ فى نسخة ا .

الباب الثامن والعشرون

في إنهاء خبر بلا تصريح

قيل لمَّا حارب أهل حمص مروان بن محمد وعليهم السمط ، وكان معاوية السكسكى فارس أهل الشام معه ، فأسر مروان معاوية السكسكى ، فقال : دعنى أكلم أهل حمص وأدعوهم إلى طاعتك . فأرسله مروان ووكل به من يحفظه ، فأتاهم فكلمهم فشتموه من فوق السور وشتموا مروان ، فقال لهم : أما إذا أبيتم ، فأرسلوا إلىَّ غلامى ميسرة الأسود ، ولتكن معه ثيابى كلها . ورجع إلى مروان الذين كانوا معه ، فقال لهم : ماذا قال لهم ؟ فأخبروه ، فقال مروان : أتدرون ما أراد ؟ قالوا : لا ، قال : أمرهم (أن) يبيتونا ، وقال لهم : إذا أمسيتم فالبسوا سلاحكم واحملوا على الميسرة . فأمر معاوية فقطعت يداه ورجلاه . ولما أمسوا صيَّروا الفرسان وأهل النجدة فى الميسرة ، فلما كان فى بعض الليل بيَّتهم أهل حمص فلم يقدروا (منهم) على شيء .

وقيل إن مخارق بن عفار ومعن بن زائدة فى فوارس ، لقيا رجلًا ببعض بلاد الشرك ومعه جارية لم يريا مثلها شباباً وجمالًا ، فصاحوا به أنْ خَلِّ عنها ، ومعه قوس له فرمى بعضهم فجرحه ، وهابوا الإقدام عليه . ثم عاد ليرمى فانقطع وتره ، فأسلم الجارية واشتد فى جبل كان قريباً منه . فابتدروا الجارية وفى أذنها قرط فيه درة ، فانتزعه بعضهم من أذنها ، فقالت الجارية : وما قدر هذا لو رأيتم درتين معه فى قلنسوته ، فاتبعوه ، فقال : مالكم ، ألم أدَعْ لكم

بغيتكم ؟ قالوا : ألقِ ما فى قانسوتك . فرفع قانسوته فإذا فيها وتر للقوس قد كان أعده فأنساه الدهش ، فلما رآه عقده فى قوسه فولّى القوم ليست لهم همة إلا أن ينجوا بأنفسهم وخلُّوا الجارية .

وحكى أن عرباً من بنى أسد ، أسروا غلاماً من طيء ، فلحقه أبوه ليفديه ، فاشتط الأسديون على الطائى فى الفدية ، فطلبوا منه مائة ناقة ، فقال الطائى : والله لا أفديه بمائة ، ما دام الفرقدان على طيء ، وابنه يسمع ، ففهم عن أبيه أن الطريق إلى جبلى طيء على الفرقدين . فطلب غِرَّةً من القوم ، ثم ركب جملًا ذلولًا من إبلهم ، وأخذ على سمت الفرقدين حتى رجع إلى قومه .

وحُكى أن المأمون كان قد رفع بمرو الفضل بن سهل ، وبلغ من الغلبة عليه الغاية ، حتى لا يصل إلى المأمون من أخبار ملكه وأموره ، وخاصة أصحابه إلّا من أذن له الفضل . ثم حمله على البيعة لعلى بن موسى الرضا . قال سعيد ابن مسلم : دعانى الفضل بن سهل ليلة فسهرت عنده حتى نوَّم الناس ، ثم قال لى : أين فعلى حين ظفر أمير المؤمنين بأخيه من فعل أبى مسلم فى نقل الدولة إلى بنى العباس عن بنى أمية ؟ قلت له : لا ، سوى أنت نقلت الدولة من أخ إلى أخ والأمر ثابت لأهله ، وقد كانت البيعة لصاحبها فى أعناق الناس ، وأبو مسلم خرج بغاية الضعف ، فنقل دولة من قبيل إلى قبيل من غير بيعة متقدمة ، قال سعيد : فأمسك الفضل على قولى .

ثم دَبَّ فى البيعة لعلى بن موسى ، فلما بايع له دعانى على خلوة فى مثل ذلك الوقت بعد حَوْل . فعلمت أنه يريد بى بمثل ما كان دعانى إليه ، فقال لى : يا سعيد ، أين فعلى فى البيعة للطالبى من فعل أبى مسلم ؟ فخفت أن أقول دون فعل أبى مسلم ، لأن البيعة لم تخرج عن بنى هاشم ، فيحمله أن يحتال لبيعة

أعجمى ، وكان يغلب المأمون كيف شاء ، فقلت له : لا ، بل فعلك أكبر من فعل أبى مسلم ، فسرَّه ذلك .

ولمَّا بلغ العباسيين بمدينة السلام وقوع البيعة لعلى بن موسى ، بايعوا لإبراهيم بن المهدى(١) ، وخرجوا معه فهزموا الحسن بن سهل من المدائن إلى الصِّلْح(٢) نحو أربعين فرسخاً ، وكانت بنت موسى الهادى(٣) تحت المأمون وهى مقيمة بمدينة السلام ، فأحبت أن يعلم المأمون الخبر وبيعة أهله لإبراهيم عمه . وعلمت أن كتبها لا تصل إلى المأمون حتى يقرأها الفضل ، وخافت أن توجه امرأة بالخبر فتُغَرَّر أو تُرَغَّب فتخبر بما أودعت . فهيأت خلعاً من وشى فائق وخزٍّ حسن ، وبطَّنت الخلع ببطائن خَلِقَة وسخة ، وكتبت على البطائن ما أرادت مما يلى الظهائر كتاباً غير ظاهر . ثم وجهت بها إلى المأمون مع هدايا كثيرة ، فاعترضها الفضل بن سهل فلم يفهم ، فأوصلها إلى المأمون فأعجب بها .

---

(١) إبراهيم بن المهدى: هو أخو هارون الرشيد وأمه جارية سوداء ، فكان لونه أسود حالكاً . وقد عرف بفصاحة اللسان وسعة الصدر وسخاء الكف ، كما كان ماهراً فى الغناء . وقد عمل للرشيد والياً على الشام . ولما ولى المأمون الخلافة اغتنم إبراهيم فرصة الاضطرابات التى نشأت عن الخلاف بين الأمين والمأمون ، فدعا إلى نفسه ببغداد عندما كان المأمون لا يزال فى خراسان . فبايعه كثيرون ومنهم عدد من أهل البيت العباسى ، ولقب بالمبارك ودامت خلافته قرابة السنتين . إلا أن جيوش المأمون انتصرت عليه ، فهرب واختفى مدة ست سنوات ظهر بعدها واستسلم للمأمون معتذراً عن خروجه فعفا عنه .

(٢) الصلح : كورة كانت فوق واسط لها نهر يستمد ماءه من الجانب الشرقى من دجلة يسمى فم الصلح . وكانت بهذه الكورة منازل الحسن بن سهل وقصوره . (معجم البلدان ٥ : ٣٧٩) .

(٣) هى أم حبيب .

ثم أراد لبس بعضها ، فلما نظر إلى بطائنها أنكر ذلك وراعه ، وقال : كيف يبطن ثوب يساوى عشرة آلاف درهم ببطانة تساوى عشرين درهماً ؟ إن لهذا لشأناً ، وإن لأحسب أمراً قد حدث فى ناحية بغداد ينبغى أن يُغيَّر . ثم أمر بفتقها ، ففتقت ، فإذا فى داخلها فى كل بطانة نسخة الخبر .

فدعا المأمون بالفضل بن سهل ، فقال له : كتمتنى خروج عمى عَلَىَّ وهزيمته لأخيك ؟ قال الفضل : لم يكن ذلك كما بلغ أمير المؤمنين ، فأخرج له المأمون بطانة فقرأ ماعليها ، فقال له : أردت أن أكفيك هذا الخطب ثم تعلمه. فأمر المأمون من ساعته بالرحيل إلى العراق ، وتنكَّر للفضل بن سهل[1] .

---

(١) وقد مر خبر قتله فى سرخس بتدبير من المأمون ، فى الباب الثالث والعشرين

الباب التاسع والعشرون

في مخاطرة الملوك بأنفسهم

حُكِيَ أن ملكة كانت قد جمعت ملك اليمن ، لمّا بلغها مخرج الإسكندر وما فعل بملك الفرس وملك الهند . وجّهت إليه مصوراً حاذقاً فصوّره وصوّر رؤساء عسكره . وقد كان ابنها عند ملك الهند ، أخذته امرأته بنت ملك الهند . فلما ظفر الإسكندر ببلاد الهند ، أحسن إلى ابن ملكة اليمن وحمله إلى أمه ومعه امرأته . فلما شخص الإسكندر فى البحر فعمد[1] إلى ناحية اليمن ، خرج إلى الملكة كعادته أنه رسول . فلما بلغها أن رسول الإسكندر قدم عليها جلست له . فدخل إليها وهى محتفية[2] فى أصحابها وجمعها . فأبلغها الرسالة ، فعرفته وأمرت به فأنزل فى منزل واسع . فلما كان العشىّ ، بعثت إليه فحضرها فأُدخل إليها ولا سلاح معه . وهى فى مجلس مفصص بأنواع الحجارة العجيبة ، وجواريها معها على سريرها . فأُتى به ، فقالت له : يا اسكندر ، لا تحتشم فإنك تستأهل أن تُكرّم . قال الإسكندر : أنشدك الله أيتها الملكة أن تدعونى باسم سيدى ومليكى . قالت له إجلس حيث أجلسك ، ثم أخرجت له صورته . فلما علم أنها عرفته جعل يعض يده ، فقالت له : ما هذا التلهف ؟ قال : آسف ألاّ يكون معى سيفى . فرمت فى الأرض بقضيب كان فى يدها ، فخرج من خلف ستورها

---

(١) فى ب : « فعبر » ولم يعرف تاريخياً أن الإسكندر غزا بلاد اليمن .

(٢) محتفية : حفى به أو احتفى به ، بالغ فى إكرامه ، والاحتفاء المبالغة فى الاكرام وإظهار السرور . وفى ب : « محلقة » .

رجال فى الدروع ومعهم السيوف . ثم أومأت إليهم ، فرجعوا إلى مواضعهم . ثم قالت له : لا تُرَعَ ، فإن لك عندى يداً أنا مجازيتك بها . فردته إلى عسكره بعد أن عاهدته على أن ينصرف عنها ، فانصرف .

وحُكِىَ أن أبا مسلم قبل استحكام أمره وهو يتنقل بكُوَر خراسان ، يدعو إلى بيعة إبراهيم الإمام ، نزل ببعض الكور على رجل من عظماء خراسان . فهمَّ الرجل على أبى مسلم بأخذه والتقرب به إلى ولاة بنى أمية . ففطن لذلك رجل من أهل الكورة ، وكان مائلاً إلى بنى هاشم ، فاستأذن الرجل الذى همَّ بأبى مسلم فى الدخول عليه فأذن له ، ووجه معه أميناً له تخوفاً من أن ينذر أبا مسلم . فلما مضى نحوه والأمين معه ، بدأ فى قراءة القرآن فى سورة القصص . فلما دخل على أبى مسلم مرَّ فى قراءته على الآية ﴿ إنَّ المَلأَ يَأْتَمِرونَ بكَ لِيقْتُلوكَ فاخْرجْ إنِّى لكَ من الناصحين[1] ﴾ ونظر إلى أبى مسلم نظرة منكرة ، ففهم أبو مسلم عنه ما أراد ، وسأله الرجل عن حاله وانصرف . فرجع إلى موضع نزيل أبى مسلم ، فسأل أمينه : هل دار بينهما شىء أنكره ، قال : لا ، ولقد كان يقرأ القرآن أكثر جلوسه عنده . وهرب أبو مسلم من تحت ليلته .

وحُكِىَ أن أبا العباس السفاح ، أنكر طاعة أبى مسلم بخراسان ، فوجَّه أخاه أبا جعفر ، إلى خراسان ، وكتب معه كتباً إلى أبى مسلم ، بتسليم عمل خراسان إلى أبى جعفر ، وكتب مع أبى جعفر كتباً بخطه إلى ولاة كور خراسان فى السمع لأبى جعفر ، وحسن معونته على أبى مسلم . فقال أبو العباس لأبى جعفر : إذا وصلت إلى أبى مسلم ، فتعرَّف طاعته بما يُظهر من تعظيمك ، فإن رأيته معظماً لك مكرماً ، فأوصل إليه كتاب عزله وتسلم العمل منه . وإن انكرته فأعْلِمه أنك أتيته زائراً ، ثم أوصل الكتب إلى ولاة الكور فى السمع والطاعة ، ليثبوا على أبى مسلم فيسلموه إليك .

---

(١) سورة القصص ، الآية (٢٠) .

فلما ورد أبو جعفر على أبى مسلم لم يتلقَّه ، ولما دخل عليه لم يكرمه ولم يقم إليه ، ولم يأمر له بمنزل ينزله ، ولا أقام له نُزُلاً . فلما انصرف أبو جعفر إلى مضربه ، قال مالك بن الهيثم الخزاعى[١] ومعاذ بن مسلم العقيلى لأبى مسلم : أصلح الله الأمير ، ورد عليك أخو إبراهيم الإمام وأخو أمير المؤمنين فلم تلقه ولم تقم إليه ، وعبست فى وجهه ولم تُقم له نزلاً ولا منزلا . فقال لهما : أمسكا عنى ، فوالله لو تلقيته بالإكرام لأخرج كتاب العزل من كُمِّه .

فلما كان فى الليل ، صار مالك بن الهيثم إلى باب مضرب أبى جعفر متنكراً فى زى العامة ، فقال لحاجب أبى جعفر : اعلمه أن هذا (الفاسق) يعنى أبا مسلم (عزم) على أن يطرقكم[٢] فى الليل فيفتش الرحالات[٣] ، فإن وجد (عندكم) كتباً بما ينكره ، قتل كل من وجد منكم . فأبلغ الحاجب أبا جعفر ذلك ، فخافه أبو جعفر على نفسه فأحرق ، الكتب التى كانت معه إلى ولاة الكور كلها . ولم يطرقه أحد ، ثم انصرف أبو جعفر (خائباً ، وكان ذلك سبب المباعدة بين أبى جعفر وبين أبى مسلم) .

وحُكِىَ أن ذا القرنين ، وهو الإسكندر ، لمّا قدم أرض العراق لقتال

---

(١) مالك بن الهيثم الخزاعى : من نقباء الدعوة العباسية فى خراسان . وقد أعلن الثورة على الأمويين فقبض عليه وحبس . ثم أطاق سراحه ، فصار إلى أبى مسلم الخراسانى وقاتل تحت لوائه .

(٢) يطرقكم فى الليل : يركب إليكم ليهاجمكم ليلاً .

(٣) الرحالات : جمع رحال وهى سروج الإبل ، أو ما يستصحبه المسافر من الأثاث والأمتعة .

دارا ملك الفرس ، خرج إليه دارا إلى طسوج مَسْكِن[١] ، فعسكر بموضع يقال له حربَى[٢] . فصار إليه الإسكندر على أنه رسول . فلما أدخل إليه ، أعجب دارا هيئته وبلاغته ، فأمر بإحضار مجلس شرابه . فكان الإسكندر كلما أعطى شراباً فى آنية ، صبَّ الشراب فى جيبه ، ووضع منه على رأسه وأخذ الآنية فوضعها فى كمه ، فقيل للملك فى ذلك ، فقال دارا : ما الذى تفعل؟ قال الإسكندر : أمرنى ملكى ، أن لا أشرب خمراً حتى أعود إليه ، فأكره أن أرد شراب الملك فأصبه بين ثوبى وجلدى وأضع منه على رأسى ، وأما أخذ الآنية ، فإن سنتنا فى مملكتنا ، أن كل من سُقى فى آنية فهى له ، فإن أمرنى الملك أن أعصى ملكى وأشرب وأَرُدَّ الآنية فعلت ، قال له دارا : لا تعصِ ملكك ولا تردَّ الآنية .

ودخل الموبذ على دارا فنظر إلى الإسكندر ، فقال للملك : أحسب هذا هو الإسكندر ، فإنى قد وجَّهت من صوَّره . فبعث إلى الصورة ليُؤتَى بها ، ففطن الإسكندر ، فانسلَّ كأنه قام لحاجة ، فركب فرساً له على الباب لا يُدرَك . وطُلب فلم يُلحق ، حتى صار إلى طلائعه .

فلما كان من الغد وتزاحف الخيلان[٣] ، وتوافقت الصفوف ، خرج

---

(١) مَسْكِن : مرتفع على نهر دجيل ، عنده كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير ، حيث قتل مصعب ، وقبره هناك . وتسمى اليوم الإبراهيمية وكانت دجيل سابقاً .

(٢) حربَى : موقع كان جنوبى سامراء ، بينها وبين مسكن .

(٣) تزاحف الخيلان : مشى بعضها إلى بعض بثقل وتؤدة . وفى ا : « تراجف الخيلان » .

الإسكندر من صف أصحابه ، فأمر من ينادى : يا معشر الفرس ، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات ، فمن كان منكم على الوفاء لنا فايعتزل عن سائر العسكر ، فله عندنا الوفاء بما ضمنَّا له . فاتهمت الفرس بعضها بعضاً ، وولت منهزمة .

ورُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وجَّه عمرو بن العاص حيث فتح قيسارية[1] إلى مصر ، فسار عمرو حتى نزل على غزة ، فبعث إلى علجها[2] ، فأرسل إليه أن أرسل إلىَّ رجلًا من أصحابك أكلمه . فنظر عمرو فقال : ما أرى لهذا أحداً غيرى ، فخرج فدخل على العلج ، فكلَّمه فسمع كلاماً لم يسمع بمثله قال : حَدِّثنى هل فى أصحابك مثلك ؟ فقال : لا تسأل عن هوانى عليهم ، لأنهم بعثونى إليك ، وعرَّضونى لايدرون ما تصنع بى ، فأمر له بجائزة وكسوة . وبعث إلى البواب : إذا مرَّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه .

فخرج من عنده ومرَّ برجل من نصارى العرب من غسَّان فعرفه ، فقال له : يا عمرو ، إنك قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . فرجع ، فقال له الملك : ما ردَّك ؟ قال : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجده يسع بنى عمى ، فأردت أن أجيئك بعشرة منهم تعطيهم مثل هذه العطيَّة ، وتكسوهم مثل هذه الكسوة ، فيكون معروفك عند عشرة خير من أن يكون عند واحد ، قال : صدقت فأعجلهم . وبعث إلى البواب أن خَلِّ سبيله ؛ فخرج عمرو وهو يتلفت ، حتى

---

(١) قيسارية : كانت من أمهات المدن فى فلسطين وتقع على ساحل البحر المتوسط .

(٢) العلج : الرجل من كفار الأعاجم ، ويقصد هنا صاحب المدينة من الروم .

إذا أمن قال : لا أعود لمثلها أبداً . فما فارقه عمرو حتى صالحه ، فلما أتى العلج قال : أنت هو ؟ قال عمرو : نعم ، على ما كان من غدرك[١] .

---

(١) جاء فى (فتوح البلدان) : إن عمرو بن العاص وقع أسيراً مع ثلاثة من أتباعه فى حصن الاسكندرية عندما هاجمه العرب عند فتحهم مصر ، إذ كان الجيش العربى قد اقتحم الحصن وقاتل الروم داخله ، إلا أن الروم حملوا على العرب بشدة ، فأخرجوهم إلا بضعة نفر منهم ، بينهم عمرو بن العاص ، وكانت عدم معرفة الروم بعمرو سبب نجاته . (فتوح البلدان ص : ٢٢١ — ٢٢٥) .

وجاء فى الطبرى مايدل على أن هذه القصة وقعت لعمرو بن العاص عندما توجه لفتح أجنادين ، وأن ماوقع له من الأسر والتخلص منه ، كان مع قائدها المسمى الأرطبون . (الطبرى — م ، ٣ : ٦٠٥ — ٦٠٦) .

الباب الثلاثون

في اللطف في حط منزلة

حُكيَ أن أبا عبيد الله واسمه معاوية[١]، كان وزيراً لأمير المؤمنين المهدى. وكان المهدى شديد التتبع للزنادقة، فظهر على أن إبنًا لأبى عبيد الله على الزندقة. فدعا به فامتحنه فوجده زنديقاً، فقتله بمحضر أبيه صبراً بالسيف[٢]. وكان بين أبى عبيد الله وبين الربيع الحاجب[٣] مباعدة، وكان يعقوب بن داود[٤] كاتبًا لأبى عبيد الله قريبًا من قلب المهدى، ولم يكن له مثل قدر أبى عبيد الله وتمكنه من الخليفة. (فقال الربيع ليعقوب بن داود: مالى عليك إن كفيتك أمرَ

---

(١) هو معاوية بن عبد الله بن يسار من وزراء الدولة العباسية، أصله من طبرية، استكتبه المهدى قبل توليه الخلافة، ولما صار خليفة استوزره، وكان يحترمه ويستشيره فى أموره، وكان مدبراً كفؤا، واستمر فى عمله للمهدى حتى تولى الربيع بن يونس حجابة المهدى فأفسد ثقته بمعاوية فعزله.

(٢) راجع عن قتل ابن أبى عبيد الله أمام أبيه: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ٣ : ١٠١.

(٣) هو الربيع بن يونس بن محمد بن أبى فروة وزير المنصور، وقد حظى عند ابنه المهدى فولاه حجابته.

(٤) يعقوب بن داود بن عمر السلمى، كان كاتباً لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن الذى خرج على المنصور بالبصرة، وقد حبسه المنصور عند ما ظفر بإبراهيم، وأطلق سراحه بعد وفاة المنصور، تقرب من المهدى وعلت منزلته عنده بمعاونة الربيع حاجب الخليفة، فاستوزره.

أبى عبيد الله ؟ قال يعقوب بن داود : احكم . فدخل أبو عبيد الله يومًا على المهدى ليعرض أموراً من أسرار الخلافة ، فأومأ المهدى إلى جميع مَنْ بحضرته بالتنحى ، فتنحوا إلّا الربيع فإنه لم يزُل ، فقال له المهدى : تنحَّ ، فخطا خطوة ثم وقف ، فقال المهدى : ألَمَ تؤمر بالتنحِّى ؟) قال الربيع : كيف أتنحَّى عنك وأدعك متفضلًا لا سلاح عليك ، مع رجل عليه سيفه قد قتلت ابنه أمسِ بالسيف صبراً وهو ينظر إليه ؟ .

فقال (المهدى) لأبى عبيد الله : اعرض ما جئت له فليس الربيع بمتهم . فلمّا خرج أبو عبيد الله من عند المهدى ، قال المهدى للربيع : احجب عنى أبا عبيد الله ، فإنى أستحى منه لقتلى ابنه . فسقطت حال أبى عبيد الله ، وارتفع يعقوب بن داود[1] ، وأخذ الربيع جُعله منه .

---

(١) عند ما استوزر المهدى يعقوب بن داود ، قلده أمور الدولة كلها فاستبد بها دون الخليفة ، حتى قال فيه بشار بن برد :

بنى أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود

ولم يخل ابن داود من الُحسَّاد لمركزه الذى صار إليه . فتتابعت عليه الوشايات حتى نفر منه المهدى فعزله وحبسه . وبقى فى السجن حتى أطلقه الرشيد ، وكان قد ذهب بصره . فسكن مكة حتى مات فيها (راجع وفيات الأعيان ٦ : ١٩ — ٢٥) .

الباب الحادى والثلاثون

فى دفع الفيلة

حُكى أن الإسكندر لمّا شخص عن أرض فارس إلى أرض الهند ، تلقاه ملك الهند فى جمع عظيم ومعه ألف فيل مجففة بالسلاح ، عليها الرجال ، وفى خراطيمها السيوف ، فالتقوا . فكانت الدَّبْرة على الإسكندر ، ولم تقف دواب جنده للفيلة وولت منها هاربة . فرجع الإسكندر إلى مأمنه ، ثم أمر صنّاعه فاتخذوا له تماثيل للفيلة ، وجعل مرابط خيله فى تلك التماثيل حتى ألفتها الخيل . ثم أمر باتخاذ ألف تمثال رجل على ألف فرس من نحاس مجوفة . ثم ألبسها الدروع وملأ أجوافها بالنفط والكبريت ، وجُرَّت على العجل فوقفت فى مواضع الوقعة ، وبين كل تمثالين منها جماعة من أصحابه . فلما نشبت الحرب واشتدت ، أمر بإشعال النار فى تلك التماثيل فحميت ، وانكشف أصحابه عنها . وغشيت الفيلة التماثيل فضربتها بخراطيمها فتشيطت خراطيمها واحترقت . فولّت الفيلة راجعة ، وكانت الدَّبْرة فى ذلك اليوم على ملك الهند[1] .

وحُكيَ أن سعد بن أبى وقّاص ، لمّا حارب رستم بالقادسية ، لم يكن شىء أشد على المسلمين من الفيلة ، لنفار[2] دوابهم منها وشدة نكايتها . فأتى

---

(١) سبق أن وردت هذه الحكاية بنصها هذا فى الباب الثانى كمثال على لطف التدبير فى الحروب . وقد سقطت فى نسخة ب ، فى الباب المذكور

(٢) نفار الدواب : جزعها وتباعدها .

سعداً رجل من أهل السواد ، فقال له : أتعطيني الأمان على نفسي ومالي وقرابتي وعيالي ، على أن أدلَّك على أمر يكفيك هذه الفيلة ؟ فأعطاه سعد ما طلب ، فقال له السوادي : اطلب خنزيراً من الأوالف ، فإذا وافتكم الفيلة ، فاضربوا الخنزير حتى يصيح ، فإن الفيلة إذا سمعت صوته مضروباً ولّت هاربة . ففعل ذلك فولَّت هاربة فردَّها ساستها ، فلما سمعت صوت الخنزير أيضاً هربت ولم تقف .

الباب الثاني والثلاثون

في دفع ظنة

قيل أصاب رجل من الضِباب[1] ناقة ضالّةً فنحرها ، ثم مرَّ به بعير فنحره ، ثم قدَّد لحومهما . فلم يلبث أن أتاه صاحب الناقة ، فلما رأى اللحم وأثر المنحر لم يشك أن ناقته عنده . فأطعمه وقال له : ما حاجتك ؟ قال : ناقة أضللتها ، فأخرج إليه ثيل[2] البعير . فلما رأى الثيل يئس من ناقته ، وقال الضبابي : هذا بعير لنا انكسر ، فمضى الرجل .

وجاء صاحب البعير ، فلما رأى اللحم لم يشك أن بعيره عنده . فأطعمه وقال له : ما حاجتك ؟ قال بعير أضللته . فأخرج إليه ضرع الناقة ، ثم قال : هذه ناقة لنا عيبت . فانطلق الرجل في طلب بعيره . فقال الضِبابي :

وملتمسٍ بعيراً ظلَّ يُشْوَى ... له منه ويتبعه قدير[3]
فلما أنْ رأى ضرعاً صحيحاً ... تبين أنه حَرْف درور[4]
فلما أن تروَّح جاء باغٍ ... أضلته علاة عيسجور[5]
فراع فؤاده منها قديد ... على الأطناب مصفوف شرير[6]

(١) الضِباب أو الضِبة : إحدى بطون قبيلة الرباب .

(٢) الثيل : وعاء قضيب البعير والثور ، وقيل هو القضيب نفسه . وفي ا : « ذيل البعير » .

(٣) القدير : اللحم المطبوخ في القدر .

(٤) الحرف من الإبل : النجيبة التي أضنتها الأسفار ، وشبهت بحرف الجبل لشدتها وصلابتها ، والدرور : الناقة الكثيرة اللبن .

(٥) تروَّح : ذهب في العشي . والعلاة: الناقة المشرفة الجسيمة وجمعها علوات .

(٦) الشرير : ما وضع في الشمس أو عرض للهواء ليجف .

فقلت انزل تراكَ اليوم رهن   تضمنه لنـــا فحل كســير
فقال طلبتهـــا أدماء جَلْساً   سما من فوقها قَرِدٌ وثير[1]
فأذهب شــكه ثيل فأمسى   يظن بأنهـا فحل كبير[2]

وقيل تلقَّى عبد الله بن صفوان[3] معاوية حين قدم المدينة ، وعليه إزار ورداء خِفٌّ[4] وعمامة ، حتى دخل بينه وبين يزيد ، فالتفت إليه معاوية فقال : كيف أنت يا أبا صفوان ؟ قال : كالخير لمن أراد الخير ، وكالشر لمن أراد الشر . فلما صار معاوية إلى منزله جمع القواد الذين ظنَّ ، أنهم سمعوا ذلك الـكلام ، فقال : يا أهل الشام ، إن أبا صفوان تعتريه ريح ومرار ، فادعوا الله له بالعافية . فجعل أولئك بغفلتهم يرفعون أيديهم ويدعون الله له .

وقيل لمَّا هرب عمر بن هبيرة[5] من سجن خالد[6] ، وأتى هشاماً فأمّنه

---

(١) أدماء : سمراء اللون ، والجَلْس : الغليظ من الأرض ، وناقة جَلْس أو جلساء : أى وثيقة تشبه الصخرة . والقَرِد : الوبر.

(٢) سقط البيتان الأخيران من نسخة ا .

(٣) عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحى ، من رؤساء مكة . كان شهماً شجاعاً . انضم إلى عبد الله بن الزبير وحارب إلى جانبه ضد الحجاج ، وقتل معه .

(٤) رداء خف : أى خفيف

(٥) عمر بن هبيرة بن سعد الفزارى : من القادة الشجعان الدهاة . قاتل فى جيش الحجاج . وولى الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، ثم ولى العراق وخراسان ليزيد بن عبد الملك ، ثم عزله هشام بن عبد الملك وأسلمه إلى خالد بن عبد الله القسرى ، فحبسه هذا فى سجن واسط ، إلا أنه استطاع أن يهرب من السجن بواسطة نفق حفره أتباعه . فذهب إلى الشام والتجأ إلى مسلمة بن عبد الملك الذى استرضى هشاماً عنه فعفى عنه وأمنه .

(٦) هو خالد بن عبد الله بن يزيد القسرى . ولى العراق لهشام بن عبد الملك ، وأقام فيها حتى عزله وولى مكانه يوسف بن عمر ، وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف وعذبه حتى مات فى السجن . وكان خالد من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، كما اشتهر بالكرم .

وقال له : أمَّا المال فأدِّه فليس منه بُدٌّ . قال : ليس عندى ، ولكن أسأل قومى إذا خرج عطاؤهم . فقال لقومه : إن أمير المؤمنين قد حبسنى بكذا وكذا فأدّونى . فجعل الرجل يجيئ بعطائه فينثره بين يديه ، فيقول : ليس هذا أردنا ، دون هذا يكفينا . وإنما أراد بذلك أن يسمع هشام ، فيعلم أنه ليس عنده مال ، قال : وجعل كلما أخذ من رجل شيئاً كتب عليه اسمه . قال : فلما أمسَى ردَّها عليهم ، وأصبح فأدَّى إلى هشام من ماله .

وحُكِىَ أن أمير المؤمنين المعتصم بالله ، غضب على بعض خدمه فحبسه فى داره فى بيت وأغلق عليه باباً . وأن رفيقاً له من غلمان المعتصم كان يقف بالباب ، فيناجى المحبوس ويخبره بأخبار السلطان ، ويكتب بها إليه الرقاع ، فاتهمهما المعتصم بالله بما كانا يفعلان . فدعا بالغلام المطلق ، فسأله عما قُرِف(١) به من مكاتبته صاحبه ، فأنكر ذلك . فأمره فكتب بيده فى رقعة مثل رقعه ، وجعل فى الرقعة وقيعة فى المعتصم بالله ، ثم قال له : خذ الرقعة ودواة وأدخلهما من تحت باب البيت ولا تتكلم بشىء حتى أنظر بما يجيبك به المحبوس .

فخاف الغلام أن يجيبه رفيقه المحبوس بحسب ما كان يدور بينهما . فأدخل الدواة والرقعة من تحت الباب ، وقلب الدواة ، وجعل صدر الرقعة مما يلى المحبوس وآخرها مما يلى الباب ، وتنحَّى عن الباب . فلما رأى المحبوس الدواة مقلوبة والرقعة مقلوبة ، أنكر ذلك وخاف أن تكون حيلة للتكشيف(٢) . فكتب جواب الرقعة بإنكار ما كان فيها واستعظامه له ، وقال فى رقعته : متى كانت بينى وبينك مراسلة ومكاتبة حتى تكتب إلىَّ بمثل هذا ؟ ثم لفَّ الجواب فطرحه . فلما قرأ المعتصم بالله الجواب برئا عنده من المراسلة .

---

(١) قُرِف به : أتهم به .

(٢) التكشيف : الكشف والإظهار .

باب يختم به الكتاب
يجمع ضروباً مختلفة في لطف التدبير (١)

قيل إن رجلاً أتى الأحنف بن قيس فلطمه ، فقال له : لِمَ لطمتني ؟ فقال : جُعل لي على أن ألطم سيد بني تميم . قال : ما صنعت شيئاً ، عليك بجارية بن قدامة فإنه سيدهم . فانطلق فلطم جارية بن قدامة ، فأخذه فقطع يده ، وإنما أراد الأحنف ذلك به (٢) .

وفي مثل ذلك قال قوم من قريش : ما نظن أن معاوية أغضبه شيء قط (٣) . قال بعضهم : بلى ، إن ذُكرت أمه غضب . قال مالك بن أسماء المَنَى القرشي ، وهي أمه ، وإنما قيل لها أسماء المنى من جمالها : والله لأغضبنَّه إن جعلتم لي جُعلاً . (فجعلوا له جُعلاً) فأتاه ، وقد حضر معاوية (ذلك) العام الموسم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أشبه عينيك بعيني أمك ؟ قال : تلك عينان طالما أعجبتا أبا سفيان يا ابن أخي ، أنظر إلى ما أعطيت من الجُعل فخذه ولا تتخذنا متجراً . ثم دعا معاوية مولاه سعداً ، فقال : له اعدد لأسماء المنى دية ابنها ، فإني قد قتلته وهو لا يدرى .

ورجع الغلام فأخذ جُعله . (فقال له رجل : إن أنت أتيت عمرو بن

---

(١) في ب : باب يجمع ضروباً مختلفة في الحروب وغيرها .

(٢) في ب ، إضافة : « وهي تعد من سقطاته »

(٣) عرف معاوية بالحلم وسعة الصدر ، وقد أغلظ له مرة رجل في الكلام فقيل له : أتحلم عن مثل هذا ؟ فقال : إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا . وهو صاحب القول المشهور : « لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما تركتها تنقطع ، فإن شدوا أرخيت ، وإن أرخوا شددت » .

الزبير[١] فقلت له : يا ابن الزبير ، ما أشبه وجهك بوجه أمك ، لك مثل هذا الجعُل ، فأتاه فقال له) فأمر به فضُرب حتى مات . فبعث معاوية إلى أمه بديته وقال :

ألا قل لأسماء المنَى أم مالك فإنى لعمر الله أقتلت مالـكا

ومثله قول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير[٢] لمّا هاجَى فروة بن خميصة الأسدى[٣] ، ولفروة سبع عشرة سنة ، وعمارة قد جاوز الستين . فقال فى عمارة قصيدة منها :

وابن المراغة جاحر من خوفنا بالوشم منزلة الذليـل الصاغر[٤]
يخشى الرياح بأن تـكون طليعة أو أن تحل به عقوبة نادر
ولَّيت ظهرك واتقيت بنسوة سودِ المعاصم والوجوه حواسر
ورجوت بالهرب البقاء وقد ترى سبب المنية قد بدا للنـاظر

---

(١) هو عمرو بن الزبير بن العوام الأسدى القرشى ، أخو عبد الله بن الزبير ، وكان مع بنى أمية على أخيه ، وقد قاد جيشاً أموياً إلى مكة لمحاربة أخيه ، إلا أنه أسر فقتله أخوه عبد الله .

(٢) من أحفاد جرير الشاعر . وهو شاعر فصيح من أهل اليمامة ، كان يتردد على خلفاء بنى العباس فيجزلون صلته . عاش حتى أيام الواثق .

(٣) فى ب : « فروة بن حميضة » .

(٤) ابن المراغة : كنية جرير الشاعر ، كناه بها الفرزدق حين هجاه فى قصيدته التى أولها :

دعانى جريرُ بن المراغة بعـد ما لَعِبْنَ بنجدٍ والملا كلَّ مَلْعبِ

وجاحر : متخلف . والملا : المتسع من الأرض . راجع ديوان الفرزدق القسم الأول ، ص : ٣٧ .

فقال عمارة فى نقيض هذه القصيدة ما أوله :

لمن الديار كأنها بالحاجر وحىٌ تبيّن فى كتاب داثر[(١)]

وفيها يقول :

وأحال شكركم الوعيد وربما تبع الضغينة عند غير الشاكر
ما فى السوية أن تجر عليهم وتكون يوم الروع أول صادر

فلما سمع فروة هذا البيت الأخير ، استفزَّه وكان صبياً لم يجرب حرباً . فحمله هذا البيت على أن صبر فى حرب بعد أصحابه وقاتل وحده ، فقتل بيده ثلاثة من بنى حنظلة ، وقُتِل[(٢)] . فحكى عن الفضل بن الحُباب : أنه سمع عمارة وقد قيل له : قتلت فروة ، فقال : ما قتلته ولكن أقتلته ، أى عرضته للقتل .

وقيل إن كسرى قال له منجموه : إنك تقْتل . قال : لأقتلنَّ الذى يقتلنى . فأمر بسُمٍّ فخُلط فى أدوية ثم كتب عليه : « دواء للجماع مُجرَّب ، مَنْ أخذ منه وزن كذا جامع كذا وكذا مرة » وجعله فى خزانة الطب . فلما قتله ابنه شيرويه وفتش خزانته مَرَّ به ، فقال لنفسه : بهذا الدواء كان يقوى على شيرين . فأخذ منه فأكله فأصبح وهو ميت .

فى جزالة الرأى :

حُكىَ أن عبد الملك بن مروان كان من رجال أهله . فورد عليه فى يوم

---

(١) الحاجر : منزل للحجاج فى البادية يستريحون فيه فى طريقهم إلى الحج .

(٢) حصل فى هذه الجملة بعض الاضطراب فى النسخ فعدلناه بهذا الشكل . وقد سقطت هذه القصة من نسخة ب .

واحد ثلاثة أخبار تسوءه : أحدها إن طاغية الروم جاش على الثغور مثل عدد النمل كثرة . ومنها إن عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق[١] خرج عليه فى ناحية من الشام . ومنها إن مصعب بن الزبير ورد العراق وقتل المختار[٢] . فقال الناس : اليوم تُعرف جودة رأى عبد الملك . فقال عبد الملك : أما الثغور فإن للإسلام ربًّا ينصره[٣] ، وأما مصعب بن الزبير فهو بالعراق وهو بعيد ، وأما الأشدق فهو أقربهم منى داراً ورحماً ، فهو أولاهم أن أقصده .

---

(١) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأمه عمة عبد الملك بن مروان . عرف بالأشدق لأنه كان مائل الشدق . ولقب بلطيم الشيطان لدهائه وسعة حيلته . كان شجاعاً شهماً ذا كبرياء وخطيباً فصيحاً . وكانت له يد فى مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة ، على أن يكون ولى عهده بعد خالد بن يزيد . إلا أن مروان ، بعد أن استتب له الأمر ، نقل ولاية العهد إلى ابنه عبد الملك أولا ثم لخالد فعمرو . وعند ما آل الأمر إلى عبد الملك ، أراد أن يجعل الولاية لابنه الوليد ، فسهل عليه خلع خالد عنها . أما عمرو فلم يقدر على خلعه منها رغم المكاتبات الطويلة بينهما . ولذا فقد عمل على قتله للتخلص منه ، فدبر له هذه المكيدة فقتله .

راجع : مروج الذهب ٢ : ١١٦ — ١١٨ و ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) هو المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، الذى أمّره عمر بن الخطاب على الجيش الذى وجهه إلى العراق لمحاربة الفرس ، فقتل فى وقعة الجسر . والمختار من كبار الثوار ضد الحكم الأموى . كان من أتباع الإمام على ، وبعد مقتل الحسين انضم إلى عبد الله بن الزبير ،فوثق به هذا وأرسله إلى العراق . وهناك أخذ يدعو إلى محمد بن الحنفية ، وتتبع قتلة الحسين فقتل أكثرهم . وعندما خرج إليه عبيد الله بن زياد والى الأمويين انتصر عليه المختار وقتله . فجرد عبد الله بن الزبير عليه حملة بقيادة أخيه مصعب بن الزبير استطاع أن يتغلب عليه ، فقتل المختار .

(٣) يذكرنا هذا القول بقول عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم لأبيه ، حينما هاجم الأحباش بقيادة أبرهة مكة واستولوا على إبل قريش . وكان لعبد المطلب فى هذه الإبل مائتا ناقة ،فذهب إلى أبرهة يطلب إليه أن يرد إبله =

فركب فرسه ودخل على امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية يودعها . فقامت إليه فقالت له : يا أمير المؤمنين ، لو وجَّهت من يكفيك ؟ قال : لابد من مشاهدة الأمر بنفسي . فلما أبى بكت وبكى مَنْ حولها من جواريها . فقال : لله در كُثَيِّر [1] كأنه كان يرانا حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه ... حَصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم ترَ النهى عاقه ... بكت وبكىّ مما شجاها قطينها

ثم خرج نحو الأشدق [2] ، فجرت بينهما مراسلة على أن الخليفة عبد الملك ، وعمرو الأشدق ولى عهده . فأخذ كل واحد منهما العهود المؤكدة بذلك ، ثم التقيا على صلح . فأعدَّ عبد الملك غِلاًّ وقيدًا من ذهب فى جوفه زرد درع وثيقة ، وجعله خفيفاً يتثنَّى . ثم قال عبد الملك لعمرو بعد أن آنسه من نفسه كل أنس : إنى كنت حلفت أن أغلك وأقيدك ، وهذا غل من ذهب ضعيف يتثنَّى وقيد مثله ، فضعهما فى عنقك ورجليك لأخرج من يمينى . وقال لمؤذنه : إذا شدَّهما عمرو فى عنقه ورجليه ، فأذِّن لى بالصلاة . فلما شدَّهما عمرو فى عنقه ورجليه وأقفلهما [3] آذنه المؤذن بالصلاة . فخرج عبد الملك مبادراً وقال لأخيه عبدالعزيز

= فاستاء منه أبرهة ، وقال له: تسألنى إبلك وتترك البيت الذى تقدسه «يعنى الكعبة». فقال له عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل ، وللبيت رب يحميه إن شاء منعه .

(١) هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعى ويلقب بكثير عزة : شاعر مدنى وأحد عشاق العرب المشهورين . وفد على عبد الملك بن مروان فاختص به . وأخباره مع عزة بنت جميل الضمرية مشهورة ، وكان حبه لها عفيفاً وأكثر شعره فيها .

(٢) فى وفيات الأعيان : أن عبد الملك بن مروان لما أراد الخروج إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير منعته زوجته عاتكة وبكت فتمثل بقول كثير عزة . (الجزء الثالث ، ص : ٢٦٦) .

(٣) فى ا : وأقفلا .

ابن مروان : أدخل إليه فاقتله . ثم صلَّى عبد الملك ورجع فوجد أخاه لم يصنع شيئاً . فدخل على عمرو وهو على سريره فجذبه فألقاه على وجهه ثم قتله [١] .

حكى الهيثم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد قتل الهرمزان [٢] ، فاستسقى ، فأتى بماء فى قدح خشب ، فأمسكه بيده واضطرب . فقال له عمر : لا بأس عليك ، إنى غير قاتلك حتى تشربه . فألقى القدح من يده ، فأمر عمر بقتله . قال : أولم تؤمِّنى؟ قال : كيف أمَّنتك ؟ قال : قلت لا بأس عليك حتى تشرب ، فقولك : لا بأس عليك ، أمان ، ولم أشربه . فقال الزبير [٣] وأنس ابن مالك [٤] وأبو سعيد الخدرى [٥] رضوان الله عليهم : صَدَق . فقال عمر رضى الله عنه : قاتله الله أخذ أماناً ولم نشعر به .

---

(١) تتفق هذه الرواية مع رواية المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ١١٦ — ١١٧

(٢) هو القائد الذى وجهه يزدجرد ملك فارس إلى الأهواز لمقابلة الجيوش العربية التى كانت بقيادة أبى موسى الأشعرى الذى استسلم إليه الهرمزان . فتوجه به أبو موسى أسيراً إلى المدينة . وعندما قابله الخليفة عمر بن الخطاب ،عرض عليه الإسلام فأبى وقال للخليفة : لا تقتلنى حتى تسقينى الماء . وهذه هى التى يرويها المؤلف هنا . ومن المعروف أن الهرمزان تظاهر بالإسلام وعمل على اغتيال الخليفة . فلما قتل أبو لؤلؤة المجوسى الخليفة عمر ، اتهم الهرمزان بالاشتراك فى ذلك فقتل .

(٣) هو الزبير بن العوام .

(٤) أنس بن مالك : صحابى من الأنصار صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وخدمه حتى وفاته ، وكان الرسول عنه راضياً ، وقد دعا له بكثرة المال والولد . وعمّر أنس طويلا إذ توفى على عهد الحجاج فى سنة ٩١ هـ . وكان آخر من مات من الصحابة فى البصرة . وقد روى أحاديث كثيرة عن الرسول .

(٥) هو سعيد بن مالك الأنصارى من الصحابة ومن ملازمى الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد صاحبه فى أكثر حروبه وغزواته ، وروى عنه أحاديث كثيرة .

قيل تمارض الأحوص بن جعفر بن عمرو على أهله فجعل لا يتكلم ، والأطباء يختلفون إليه . فأتاه شراعة وكان نديماً له ، فكلمه فلم يجبه . فالتفت شراعة إلى جليس له فقال : كنا أمس بالحيرة فأخذنا الطلاء أربع قنانى بدرهم . قال الأحوص : الكاذب ناك أمه ، إنما هو قنينتان بدرهم .

قيل أتى طفيلي دار قوم قد أعرسوا ، فدنا من الباب فدُقَّ فى صدره ومُنع من الدخول . فأخذ إحدى نعليه فجعلها فى كُمِّه وعلّق الأخرى فى يده . وأخذ خلالاً يتخلل به ، ودنا من الباب ، فقال : يا عبد الله إنى نسيت إحدى نعلى داخل الدار ، فقال له البواب : إنما كنا نمنعك من الدخول للغداء ، فأما إذا تغديت . فادخل ، فدخل وجلس مع القوم فأكل وخرج .

قال : كان نُعَيمان [1] من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن شهد بدراً مع النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ضُرب فى الخمر مرات ، وكان يعبث كثيراً . فمر يوماً بمَخْرمة بن نَوْفل الزهرى [2] بعدما أضَرَّ ، وهو يقول : مَنْ يقودنى إلى موضع أبول فيه ؟ فأخذ بيده نعَيمان حتى إذا كان فى مؤخر المسجد (قال : إجلس . فجلس يبول . فصاح به الناس : يا أبا المِسْوَر إنك فى المسجد) فقال مَنْ قادنى ؟ قالوا نعَيمان . قال : لله علىَّ أن أضربه بعصاى إن وجدته . فبلغت نُعَيمان فجاء فقال : يا أبا المسور هل لك فى نعيمان ؟ قال نعم . قال : هو هذا يصلى ، فأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو يصلى

---

(١) هو نعيمان بن عمرو ، صحابى من الأنصار . كان كثير الفكاهة والمزاح . وله قصص فكاهة ودعابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع بعض الصحابة . وقد شهد أكثر حروب الرسول وغزواته .

(٢) مخرمة بن نوفل الزهرى القرشى ، صحابى عالم بالأنساب ، أسلم يوم فتح مكة ، وكان فصيحاً سليط اللسان ، عمر طويلا وكف بصره فى زمن عثمان . مات فى المدينة سنة ٥٤ هـ .

فقال : هذا نُعيمان . فَعَلاه بعصاه . فصاح الناس وقالوا : ضربت أمير المؤمنين . قال : من قادني . قيل : نُعَيمان . قال : لا جرم ، لا عرضت له بشيء .

وقيل أراد يوسف بن عمر أن يستعمل عبد الملك بن إسحاق بن عبد الله بن عمير الليثي ، فكره عبد الملك العمل ، فأتى قُحْذُماً [١] فقال : اعمل لي في أن تكفه عني ، فلا حاجة لي في عمله مع قتله عماله . فقال له : إذا كان غداً وجلس فآته والبس أطول ما تقدر عليه من الثياب وأجودها ، وأكثِر من الغالية والتعطّر . ففعل (ذلك) ودخل على يوسف بن عمر وعليه ثياب يسحبها . فقال يوسف لقُحْذُم : مَنْ هذا المقبل ؟ قال : هذا عبد الملك بن إسحاق ، رجل له شرف وخطر ومؤونة عظيمة ورّثه أبواه [٢] مالا كثيراً فأتلفه . قال : فيمَ ؟ قال: فيما ترى من الهيئة وطلب المروءة . قال : لا يقوم هذا بأموالنا ، وليس هذا من عمالنا . قل (له) لينصرف . فناداه الحاجب : انصرف ياعبد الملك . فرجع.

قيل لما خرج قَطَرِى أحب أن يعلم رأى الأحنف فيعمل به ، فدعا رجلاً من بني مازن فقال (له) : انطلق إلى البصرة ثم إيتِ الأحنف في ثياب سفرك ، فإن سألك عني فقل خلفته بأصبهان . قال : إيهاً يا أبا نعامة ، إن أشار على القوم أن يركبوا البغال ويقودوا الخيول ويصبحوا ببلدة ويُمسوا بأخرى بالحرى أن تطول مدتهم . فلما سمع الرجل هذا الكلام من الأحنف انصرف إلى قَطَرِى فحكى له ما قال له الأحنف ، فأخذ به .

وقيل أودع رجلٌ رجلاً كيساً فيه دنانير . وغاب الرجل فطالت غيبته . فلما طال الأمر فتق المستودَع الكيس من أسفله وأخذ الدنانير ، وصيَّر في الكيس دراهم وخاطه . فقدم صاحب الكيس بعد خمس عشر سنة فطلب

---

(١) هو قُحْذُم بن أبي سليم بن ذكوان ، كاتب يوسف بن عمر .

(٢) في ب : « أبوه » .

ما له . فرفع إليه الكيس بخاتمه ، فلم يقبله . ورافعه إلى عمر بن هبيرة ، فقال لإياس بن معاوية [١] : أنظر فى أمر هذين . فقال إياس للمستودَع عنده المال : ما تقول ؟ قال هذا كيسه بخاتمه . قال : منذ كم هو عندك ؟ قال : منذ خمس عشرة سنة . قال : فضُّوا الخاتم وانثروا الدراهم ، ففعلوا فوجدوا فيها ضرب عشر سنين وخمس سنين وأكثر وأقل . فقال له : أقررت أنه عندك منذ خمس عشرة سنة ، وفى الكيس ضرب عشر سنين وخمس سنين ؟ فأقرّ بالدنانير فألزمه إيّاها .

قيل كان فى الزمن الأول ملك إنما يشرب (هو) وأهل ناحيته من ماء السماء . فقال له منجموه : إنا نجد فى علمنا أنه من شرب من ماء هذه السنة المقبلة تغيرَّ عقله وخولط ، فإن رأى الملك أن يأمر بادخار الماء لنفسه وخاصته فليفعل ، ولا يشربوا من ماء هذه السنة المقبلة . فأمر بالمصانع فاتخذت وادُّخر فيها من الماء ما يكفيه ويكفى خاصته . فلما جاء المطر وشرب الناس منه تغيرَّت عقولهم واختلطوا . وشرب الملك من الماء الأول هو وخاصته فلم يصبهم ما أصاب العوام .

فلما رأتهم العامة فى خلاف حالهم ، قال بعضهم لبعض : إن ملكنا قد خولط ، وتغيرَّت عقله وعقول أصحابه . وما الرأى إلاّ خلعه والاستبدال به ملكاً (منا) عاقلاً لم يتغيرَّ عقله . فبلغ ذلك الملك ، فقال لوزيره وكتّابه ومنجميه : قد ترون ما أجمع هؤلاء عليه ، فما الرأى ؟ قالوا : الرأى أن نشرب

---

(١) إياس بن معاوية بن قرة المزنى ، اشتهر بالفطنة وحدة الذكاء . وضرب المثل بذكائه واستقرائه وصدق فراسته . ولذلك كان مقرباً من الخلفاء والولاة . ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة فكانت أحكامه مضرب الأمثال فى دقتها وعدالتها . توفى بواسط سنة ١٢٢ هـ .

من مائهم حتى نصير فى مثل حالهم ، فلا ينـكروا منك ولا منا ما أنـكروه . ففعل وخولط ، فصار مثلهم وأصحابه . فلما رأت ذلك العامة قالت : قد برأ الملك وصلُح أمره .

وقيل خرج فيروز بن حصين مع ابن الأشعث ، وجعل فى رأس الحجاج مائة ألف درهم . فأسر فيروز فأتى به الحجاج . فلما رآه قال : أتجعل فى رأسى مائة ألف درهم وقد وليتك ما وليتك ؟ أكتب أموالك . قال : وتُؤَمّننى ؟ قال : إذا رأيت صدقك . قال : إن لى عند الناس ودائع فأخرجنى أتقاضاها . فخرج فنادى : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا فيروز بن حصين كل مملوك لى حُرٌّ وما فى يده له . ومَنْ كانت لى عنده وديعة (فهى له) وهو منها وهو فى حلٍّ ، ومَنْ كان لى عليه مال فهو عليه صدقة . فتعلمها خالد بن عبدالله القسرى منه ، فصنعها بيوسف بن عمر . ثم دعا الحجاج بفيروز فضرب عنقه .

حدَّث هشام بن الـكلبى عن أبيه قال : سمع رجل من جرم يُقال له مسلمة بن عمرو أو عمرو بن مسلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يذكر فتح الحيرة وغيرها ، وقد كان رأى بنت بُقَيْلة[1] قبل ذلك وكانت من أجمل الناس (وجهاً وأشب النساء) فقال : يا رسول الله ، إذا فتح الله عليك الحيرة فهب لى بنت بُقَيْلة . قال : هى لك . وكان مع خالد بن الوليد ، فلما صالح أهل الحِيرة قال له : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان وهب لى بنت بقيلة .

---

(١) وهى كرامة بنت عبد المسيح ، ولقبه بقيلة . وجاء فى الطبرى أنها أعطيت إلى شُوَيل . والخبر هناك يختلف عما ورد هنا قليلا . الطبرى — م ، ٣ : ٣٦٤ — ٣٦٦ .

قال : ومن يشهد لك (بذلك) ؟ فشهد له جرير بن عبد الله البجلى ومحمد ابن سلمة الأنصارى . فنادى خالد أن أخرجوا إبنة بقيلة من صلحكم ، فإن نبينا عليه السلام كان وهبها لرجل من أصحابه . قال : فجزع[1] أهل الحيرة من ذلك . وقالوا : مَن الرجل ؟ فدَلُّوا عليه . فقالوا : نحن نشتريها منك بحكمك . قال : ولى منها نظرة ؟ قالوا ذلك لك .

فأنفذوا له عجوزاً كبيرة قد اختلفت ترقوتها ، فى حجاب ، فكشف الحجاب فنظر إليها فقال : إنكِ لهى ؟ قالت : نعم . قال : بؤساً لكِ ، قد صيَّرك الدهر إلى ما أرى . قالوا : فاحتكم الآن إلى ما بدا لك . قال : أنا أحتكم عشر مائة . قالوا : فلك عشر مائة .

وبلغ المسلمين إنهم قد حكَّموه فرجع إليهم بعشر مائة ، قالوا : قد والله خُدعت مرتين ، كيف صارت عجوزاً وأنت شاب ؟ قال : هذه واحدة . قالوا : وعشر مائة . قال : أو فى الأرض عدد يجاوز عشر مائة ؟ قالوا : نعم عشرة آلاف . قال : خُدعتُ مرتين .

قيل كان رجل يسخر بالناس ويدَّعى أنه يَرْقى[2] الضرس إذا حَزَبَ على صاحبه . فكان كلما أتاه من يشتكى من ضرسه قال له إذا رقاه : إياك أن تذكر القرد إذا صرت إلى فراشك ، فإنك إذا ذكرته بطلت الرُّقْيَة . وكان أحدهم إذا صار إلى فراشه أول مايخطر على باله القرد ، فيبيت على حاله من وجعه ، فيغدو إلى من رقاه ، فيقول له : كيف بِتَّ ؟ فيقول : بِتُّ وجِعاً . فيقول : لعلك ذكرتَ القرد ؟ فيقول : نعم . فيقول : من ثَمَّ لم تبرأ .

---

(١) فى ا « فخرج أهل الحيرة » .

(٢) يرقى : يستعمل الرقية نفعاً أو إضراراً . والرقية هى أن يستعان للحصول على أمر بقوى تفوق قوى الطبيعة كما يقول الرقاة .

انتهى(١) الكتاب ولله الحمد والمنّة ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، على يد فقير عفو ربه المجد عيسى بن على بن محمد الشافعى . فى مستهل شهر ربيع الأول من شهور سنة تسع وثمانين وثمانمائة . والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، ورضى الله عن كل الصحابة أجمعين .

فيا قارئاً خطى ســـل الله توبةً أفوز بها يوم المعاد من الحشر

---

(٣) هذه خاتمة نسخة ا .

شكر واجب

أعانني على تحقيق الكتاب وإخراجه عدد من الإخوان الأفاضل ، أرى من الواجب الاعتراف بما بذلوه من جهدٍ وما قدموه من عونٍ . أخص بالذكر منهم الأستاذ السيد مكي جاسم والأستاذ جاسم محمد الرجب ، اللذين أبديا مساعدة قيِّمة في كشف كثير من الكلمات والتعابير المبهمة ، والأستاذ فؤاد السيد الذي أشرف على مراجعة الكتاب وطبعه ووضع فهارسه ، والأخ السيد قاسم محمد الرجب الذي قدم مخطوطة الكتاب وتولى طبعه ونشره . فإلى هؤلاء جميعاً أزجي أزكى التحيات وأتقدم بخالص الشكر والثناء .

أحمد عبد الباقي

المراجع

الأخبار الطوال : لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى .

تحقيق عبد المنعم عامر والدكتور جمال الدين الشيال

دار إحياء الكتب العربية ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٦٠

أخبار النساء : لابن قيِّم الجوزية

إصدار دار الفكر — بيروت

أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام : لعمر رضا كحالة

الطبعة الثانية (٥) أجزاء

المطبعة الهاشمية — دمشق — ١٩٥٨

الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) :

تأليف خير الدين الزركلى

الطبعة الثانية (١٠) أجزاء

مطبعة كوستا تسوماس وشركاه — مصر — ١٩٥٥

الأنساب : للإمام أبى سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى —

(الجزء الأول)

الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية

حيدر أباد الدكن — ١٩٦٢

أيام العرب فى الجاهلية : محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوى ،

ومحمد أبو الفضل إبراهيم

مطبعة عيسى البابى الحلبى — القاهرة — ١٩٤٢

إيران فى عهد الساسانيين : تأليف كريستنسن ، وترجمة : يحيى الخشّاب
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٥٧

البدء والتاريخ : لمطهر بن طاهر المقدسى (٦) أجزاء
عنى بنشره كلمان هوار — طبعة باريس — ١٨٩٩

بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : للحافظ جلال الدين السيوطى
الطبعة الأولى — مطبعة السعادة — مصر — ١٣٢٦ هـ

بلاغات النساء : لأحمد بن أبى طاهر طيفور
مطبعة مدرسة والدة عباس الأول — مصر — ١٩٠٨

التاج فى أخلاق الملوك : لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
حققه : أحمد زكى باشا
المطبعة الأميرية — القاهرة — ١٩١٤

تاريخ الأمم والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى
الطبعة الأولى — المطبعة الحسينية المصرية (١٣) جزءاً
وطبعة دار المعارف بمصر (٤) أجزاء منه فقط — ١٩٦٢

تاريخ الحكماء : لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى
عنى بنشره يوليوس ليبرت ليبزك — ١٩٠٣

التنبيه والإشراف : لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى
عنى بتصحيحه ومراجعته : عبد الله إسماعيل الصاوى
دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف — القاهرة — ١٩٣٨

جمهرة رسائل العرب : لأحمد زكى صفوت (جزآن)
مطبعة مصطفى البابى الحلبى — مصر — ١٩٣٧

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : تأليف آدم متز . نقله إلى العربية : محمد عبد الهادى أبو ريدة (جزآن)
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٤٠

ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى : تحقيق محمد عبده عزّام (المجلد الثانى)
دار المعارف — مصر ١٩٥٧

زبدة كشف الممالك، وبيان الطرق والمسالك : لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى
اعتنى بتصحيحه : پول راوس
المطبعة الجمهورية بباريس — ١٨٩٤

سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون : تأليف جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة
مطبعة بولاق — ١٢٧٨ هـ

سلوك المالك فى تدبير الممالك : لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع
مطبعة جمعية المعارف المصرية — ١٢٨٦ هـ

شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامرى: حققه وقدّم له الدكتور إحسان عباس
إصدار وزارة الإرشاد والأنباء فى الكويت
الكويت — ١٩٦٢

العقد الفريد : تأليف أبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى
شرح وتصحيح وترتيب : أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبيارى (٧) أجزاء
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — مصر — ١٩٤٦

العقد الفريد للملك السعيد : لأبى سالم محمد بن طلحة الوزير
المطبعة الوهبية — مصر — ١٢٨٣ هـ

عيون الأخبار : لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (٤) مجلدات
مطبعة دار الكتب المصرية — القاهرة — ١٩٢٨

غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم :
لأبى منصور الثعالبى
طبعة طهران — ١٩٦٣

فتوح البلدان : لأبى الحسن البلاذرى . عنى بمراجعته والتعليق عليه :
رضوان محمد رضوان
مطبعة السعادة — مصر — ١٩٥٩

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية : لابن الطقطقى محمد بن على بن طباطبا
المطبعة الرحمانية — القاهرة — ١٣٤٠ هـ

الكامل فى التاريخ : لأبى الحسن على بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير
(٩) أجزاء
المطبعة المنيرية — مصر — ١٣٠٣ هـ

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون : لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى
خليفة أو كاتب جلبى
طبعة وكالة المعارف فى مطبعتها باستانبول — ١٩٤٣

لطائف المعارف : لأبى منصور الثعالبى . تحقيق إبراهيم الأبيارى وحسن كامل الصيرفى
دار إحياء الكتب العربية — مصر

مجمع الأمثال : لأبى الفضل أحمد بن محمد الميدانى . حققه وعلق حواشيه :
محمد محيي الدين عبد الحميد
مطبعة السعادة — مصر — ١٩٥٩

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الخضرى (٣) أجزاء
مطبعة دار إحياء الكتب العربية — مصر — ١٩٢١

مروج الذهب : لأبى الحسن المسعودى (جزآن)
المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ

المعارف : لابن قتيبة . حققه وقدمّ له : دكتور ثروت عكاشة
مطبعة دار الكتب — مصر — ١٩٦٠

معجم البلدان : لياقوت الحموى . الطبعة الأولى
مطبعة السعادة بمصر — ١٩٠٧ (١٠) أجزاء

معجم المطبوعات العربية والمعرّبة : جمعه ورتبه يوسف إليان سركيس
مطبعة سركيس — مصر — ١٩٢٨

فوات الوفيات : تأليف محمد بن شاكر الكتبي — (جزآن)
حققه وضبطه وعلق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد
مطبعة السعادة — مصر — ١٩٥١

معجم المؤلفين (تراجم مصنفى الكتب العربية) : لعمر رضا كحاله
(١٥) جزءاً ـ مطبعة الترقى بدمشق — ١٩٦٠

معجم الأدباء : لياقوت الحموى . طبعة د . س . مرجليوث
مطبعة هندية بالموسكى بمصر — ١٩٢٥

الملل والنحل : لعبد الكريم بن أبى بكر الشهرستانى (جزآن)
مطبعة البابى الحلبى — مصر — ١٩٦١

نكت الهميان فى نكت العميان : لصلاح الدين الصفدى
وقف على طبعه أحمد زكى باشا
المطبعة الجمالية بمصر — ١٩١١

نوادر المخطوطات (المجموعة السادسة) : كتاب أسماء المغتالين من الأشراف
فى الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء : لأبى جعفر
ابن حبيب البغدادى . نشرت بتحقيق عبد السلام هارون
الطبعة الأولى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر —
القاهرة — ١٩٥٤

نهج البلاغة : شرح عز الدين أبى حامد الشهير بابن أبى الحديد (٢٠) جزءاً
مطبعة دار الكتب العربية الكبرى — مصر — ١٣٣٠هـ

نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار لمحمد بن على بن
محمد الشوكانى .
الطبعة الثانية . شركة مصطفى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، ١٩٥٢ .

الوافى بالوفيات : لصلاح الدين الصفدى . باعتناء س . ديدرينغ
المطبعة الهاشمية — دمشق — ١٩٥٣

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد
ابن أبى بكر بن خلكان
حققه وعلق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد (٦) أجزاء
مطبعة السعادة — مصر — ١٩٤٨

الوزراء والـكتاب : لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى
حققه : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبى
الطبعة الأولى . مطبعة مصطفى البـابى الحلبى وأولاده —
القاهرة — ١٩٣٨

هدية العارفين (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) تأليف إسماعيل باشا البغدادى
طبع وزارة المعارف فى مطبعتها باستانبول — ١٩٥٥

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير — القاهرة
ت : ٩٠٦٠١٧

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
...	مقدمة المحقق
١	مقدمة المؤلف
٢	الباب الأول : فى أوائل ما تحتاج الملوك إلى معرفته
١٦	الباب الثانى : فى لطف التدبير فى الحروب
١٩	الباب الثالث : فى فتح القلاع
٢٤	الباب الرابع : فى لطف التدبير فى فتح البلاد
٢٩	« الخامس : فى لطف التدبير فى عقد مُلْك
٣٨	« السادس : فى كسر العساكر بقوة الرأى لا بقوة المكاثرة
٤٨	« السابع : فى كسر الجيوش بتفريق كلمتها
٥٥	« الثامن : فى التدبير على مفسدٍ أو مستعصٍ
٦٥	« التاسع : فى تسكين شغب وإصلاح نفار أو ذات بين
٧٩	« العاشر : فى التضريب والإغراء
٩٥	« الحادى عشر : فى تدبير المنهزم
٩٨	« الثانى عشر : فى لطف التدبير
١٠٤	« الثالث عشر : فى المكائد على الأعداء
١٠٩	« الرابع عشر : فى مكايدة صغير لكبير
١١٧	« الخامس عشر : فى دفع مكروه بقول
١٢٣	« السادس عشر : فى دفع مكروه بمكروه

الصفحة	الموضــــــوع	
١٢٩	الباب السابع عشر	: فى دفع مكروه بلطف
١٣٨	« الثامن عشر	: فى لطف التدبير فى دفع مكروه
١٤٣	« التاسع عشر	: فى مداراة السلطان
١٥٠	« العشرون	: فى الانتقام من سالبى ملك
١٥٨	« الحادى والعشرون	: فى الخلاص من نقمة من يعين على قطيعة الرحم بالقتل
١٦٤	« الثانى والعشرون	: فى الفتك والأمر به أو الاحتراز منه
١٧٦	« الثالث والعشرون	: فى جزالة الرأى
١٨١	« الرابع والعشرون	: فى إظهار أمرٍ وإخفاء غيره
١٨٤	« الخامس والعشرون	: فى اطّلاع على مكتوم
١٩١	« السادس والعشرون	: فى درك ثأر وطائلة
١٩٦	« السابع والعشرون	: فى فسخ العزائم
٢٠٠	« الثامن والعشرون	: فى إنهاء خبر بلا تصريح
٢٠٤	« التاسع والعشرون	: فى مخاطرة الملوك بأنفسهم
٢١٠	« الثلاثون	: فى اللطف فى حط منزلة
٢١٢	« الحادى والثلاثون	: فى دفع الفِيلة
٢١٤	« الثانى والثلاثون	: فى دفع ظِنَّة
٢١٧	« يختتم به الكتاب	: يجمع ضروبا مختلفة فى لطف التدبير